# من وجدوا الله

# God‘ed

ISBN: 1-4196-8460-4
ISBN- 13: 978-1419684609

التنضيد: أزهر ماجوثي، إحسان ديزاين
www.ihsaandesign.com



# من وجدوا الله

# God‘ed

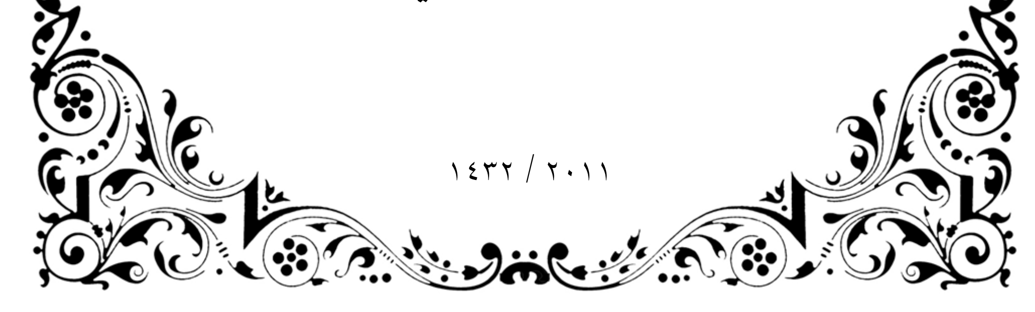
## الإسلام خاتمة الوحي


**د. لورنس ب. براون**

Dr. Laurence B. Brown


ترجمة

د. منذر عبسي



١٤٣٢ / ٢٠١١

# شكر وتقدير

اللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

احمد الله جلّ وعلا واشكره ، فهو صاحب الفضل والإحسان والنعم،

قال تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾. [سورة النحل، ٥٣]

وإنّ من نعم الله علي توفيقه لي فى كتابة هذا الكتاب واختيار موضوعه ، فاللهم لك الحمد عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك .

ثم اتقدم بخالص الشكر لكل الذين تكرموا بمد يد العون لى اثناء الترجمه للغة العربيه وهم :

زوجتى الكريمه السيده / سمر عبد اللطيف شنيّك: لمساعدتها فى تصحيح الأخطاء المطبعيه واللغويه والأخطاء النحويه .

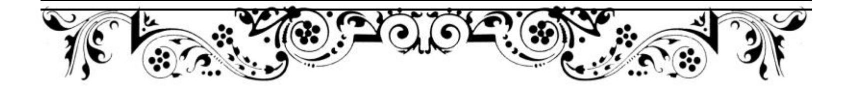
د. محمود نيازى : لتقديمه بعض الإقتراحات ومراجعة الأخطاء المطبعيه واللغويه .

# محتويات الكتاب



**إن الطريق من المسيحية اليهودية الأولى إلى القرن السابع يقود حقاً إلى الإسلام ... فعناصر التشابه بين الصورة القرآنية لعيسى و الشرح اللاهوتي لشخص المسيح وأعماله Christology الممهورة بخاتم مسيحي – يهودي مذهلة. كما أن هذه التشابهات لايمكن دحضها، بل إنها تدعو للمزيد من التأمل المركّز التاريخي منه والمنظم.**

هانز كونغ Hans Küng (٢٠٠٧): **الإسلام: الماضي والحاضر والمستقبل**، الصفحات ٣٧، ٤٤.



بسم الله الرحمن الرحيم

# ملاحظات في مصادر لنصوص الكتاب المقدس وترجماتها

جميع اقتباسات الكتاب المقدس الواردة في هذا الكتاب مأخوذة **من نسخة الملك جيمس الجديدة** (ما لم تتم الإشارة إليه بغير ذلك). والسبب وراء اختيار هذه الطبعة من الكتاب المقدس لا علاقة له بدرجة دقتها من الناحية الدينية، وهو أمر خلافي، وإنما بسبب سعة انتشار هذا النص، فإصدار العام ١٦١١ من طبعة الملك جيمس هي ترجمة الكتاب المقدس التي تحتل المركز الأول من حيث عدد القراء في الدول الناطقة باللغة الإنجليزية. وقد انبثقت طبعة الملك جيمس الجديدة من جهود ترمي إلى جعل ترجمة العام ١٦١١ ميسرة أكثر للقراء المعاصرين، مُسقطة في سبيل ذلك كلمات قديمة مثل "thee" و"thou" [وهما صيغتا الفاعل والمفعول به لكلمة "you" (أنت) في اللغة الإنجليزية القديمة]. وللأسف، أنه لم يُبذل جهد يذكر لتسوية الخلافات بين إصدار العام ١٦١١ من طبعة الملك جيمس والمخطوطة السينائية والمخطوطات الفاتيكانية التي تم اكتشافها في العام ١٨٠٠، التي تحتوي على أقدم مخطوطات العهد الجديد وأكثرها موثوقية منذ تم اكتشافها إلى يومنا هذا. أما وقد أصبحت هذه النصوص متوافرة الآن فإن للمرء أن يتوقع أن يرى مدى تأثيرها في الترجمات الأحدث للكتاب المقدس. إلا أن هذه ليست هي الحال بالنسبة

إلى طبعة الملك جيمس الجديدة التي تحتفظ بالآيات والنصوص التي تتضارب ومخطوطات العهد الجديد الأقدم وذات النصيب الأكبر من التبجيل. ولذلك، وفي حين أن هذا الكتاب يستشهد في الغالب بآيات طبعة الملك جيمس في سبيل إرضاء الطائفة البروتستانتية التي تشكل الغالبية المسيحية في الغرب، فإنه قد تم استعمال نسخة مكملة تتطلب قدراً أكبر من الدقة الدرسية [الأكاديمية].

والطبعة المعتمدة المنقحة الجديدة NRSV تسد هذه الفجوة، لأنها كسابقتها – النسخة المعتمدة المنقحة RSV – هي خلاصة تعاون مسكوني تتجلى في طبعاتها الثلاث المنفصلة، البروتستانتية، والروم الكاثوليكية، والأرثوذكسية الشرقية. والأهم من ذلك أن النسخة المعتمدة المنقحة الجديدة تعكس خلاصة أبحاث إنجيلية معاصرة لم تكن متوافرة حتى ذلك الوقت. والواقع أن الغبار كاد يُنْفَض عن مخطوطات البحر الميت عندما نُشرت ترجمة النسخة المعتمدة المنقحة للعهد القديم لأول مرة في العام ١٩٤٦. ولهذه الأسباب فإن النسخة المعتمدة المنقحة الجديدة قد حلت محل النسخة المعتمدة المنقحة، وهي تحظى بالنطاق الأوسع من القبول بين جميع ترجمات الكتاب المقدس.

مقتبسات "**الببليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم** World Bibliography of Translations of the Meanings of the Holy Qur'an" (التي سوف يرمز لها من الآن فصاعداً اختصاراً بـ"TMQ") ، مأخوذة من ترجمة القرآن الكريم لعبد الله يوسف علي

"**القرآن الكريم: ترجمة وتفسير**". وما لم يرد غير ذلك، وإذا ما دعت الضرورة لترجمة أكثر دقة، فسوف يتم الاستعانة بترجمات "**صحيح الدولية**" أو ترجمة محمد الهلالي أو ترجمة محمد خان "**القرآن الكريم**".

ونقول لأولئك الذين يشككون في استخدام ترجمات متعددة: إنه ما من لغة يمكن أن تُترجم بدقة تامة، وبالأخص لغة في غاية التعقيد كاللغة العربية. فكما صرح المستشرق والمترجم ألفرِد جِيوم Alfred Guillaume: "القرآن إحدى الروائع العالمية التي لا يمكن ترجمتها دون فقد".[١]

ومن هنا كانت الحاجة إلى ترجمات متعددة للقرآن، حيث إنه لا يمكن لترجمة معينة – أو مجموعة ترجمات حسب رأي بعضهم – أن تنقل المعنى الأصلي نقلاً وافياً.

---

١. Guillaume, Alfred. 1990. *Islam*. Penguin Books, pp. 73-74

# المقدمة



**إن الحياة أشبه ماتكون بعلبة سردين – فجميعنا يبحث عن المفتاح.**

آلان بينيت Alan Bennett، **ماوراء الحافّة**[٢]

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة كتابين كُرّسا لتحليل الديانات الإبراهيمية[٣] الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام. وكما سبق وأن بيّنت في كتابي الأول "**من فقدوا الله**"، فإن أهداف هذا التحليل هي تحديد الحلقات السليمة من جملة سلاسل الوحي، وتتبع هذه سلاسل إلى نهايتها، وعبر القيام بهذه العملية تعرية المؤمن من غير المؤمن (أي التمييز مابين **من فقدوا الله** و **من وجدوا الله**) من بين من يدّعون الهداية الربانية.

---

٢. Cohen, M.J. 1996. *The Penguin Dictionary of Twentieth Century Quotations*. Penguin Books

٣. يستخدم الباحثون في مجال الأديان المقارنة مصطلح "الديانات الإبراهيمية" للإشارة إلى الأديان السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي العقائد التوحيدية الثلاث التي تعتقد جميعاً أنها ترجع بأصولها إلى نبي الله إبراهيم. وفي الحقيقة إن هذا الاعتقاد غير صحيح وذلك لأن إبراهيم لم يتبع ثلاث ديانات، بل واحدة. ومن خلال هذا الكتاب سوف يتضح لنا أيُّ الديانات الثلاث كان دين إبراهيم الحنيف.

وأفترض أن القارئ قد قرأ الكتاب الأول في هذه السلسلة، وأما من لم تتح له الفرصة لذلك، فأقول إن كتاب **من فقدوا الله** قد حدد الفروقات بين الفهم اليهودي والمسيحي والإسلامي لله، وحلل الاختلافات العَقَدية التي تفصل بين المسيحية والإسلام، وبيَّن نقاط الضعف في الكتاب اليهود—المسيحين المقدس وعقيدتهم. وأما فيما يختص الكتاب الثاني، فإن العديد من نقاط الضعف هذه قد أصبحت مركبة، مثل الحالات التي استقى فيها الدين المسيحي مبادئ عقيدته من أخطاء ناجمة عن النسخ أو إضافة تحريفات إنجيلية. وهناك حالات أخرى استُمدت فيها عناصر غير شرعية للمعتقد المسيحي من مصادر غير إنجيلية، وهذا يعني أن الإنجيل ليس له أية علاقة بتلك المصادر، وإن كان ثمة علاقة فهي علاقة جد محدودة. وحينما نقع على عناصر العقيدة المسيحية المستقاة من مصادر إنجيلية، فإننا سرعان مانصدم حين نجد أن تعاليم بولس تُقَدّم على تعاليم عيسى، وبخاصة عندما يكون هناك تضارب واضح بينهما.

إن هذه المصادر اليهودية—المسيحية غير الموثوقة ترغم الكثير من الباحثين المخلصين للبحث عن الهداية في مكان آخر، ومن هنا جاءت فكرة المجلد الثاني في هذه السلسلة. فهناك الكثير ممن يشككون في العقائد اليهودية أو المسيحية التي تم التأسيس لها عن طريق طرح اعتراضات منطقية، ولكنهم سرعان ما يجابهون باعتراضات عاطفية مصحوبة بتعصب أعمى للعقيدة.

ولكن هذا لاينطبق على الإسلام.

فوفق ماقالته مارغريت نايدِلّ Margaret Nydell: "إن العرب المسلمين آمنين في معتقدهم حول كمال الإسلام، طالما أنه قد تم قبوله على أنه التنقية الثالثة والنهائية للديانتين السابقتين الموحى بهما وهما اليهودية والمسيحية".[٤]

فهناك الكثيرون ممن يجدون المقاربة الإسلامية للدين مُجدِّدَة، وذلك لأن الإسلام يمقت التعصب الأعمى للعقائد ويحض على استنباط الحقائق الدينية من الأدلة الراسخة. فمن المؤكد أن الإسلام يدعو إلى العقائد المقبولة شريطة ألا تتجاوز حدود العقل. ولابد لأية دراسة موضوعية أن تكشف عن ترابط سلسلة الوحي وتعرّي العناصر غير المقبولة وغير السماوية في جميع الكتب المقدسة والفلسفات والتي تجاوزها القرآن الكريم. إن من يتفق وهذا الرأي لابد أن يقر بأن "التسليم لأمر الله" هو دستور الحياة الوحيد الذي يقبله الخالق، ويكتشف أن تعاليم الإسلام ليست موجودة في القرآن الكريم وحسب، بل في الكتب المقدسة التي أنزلت قبله أيضاً.

فالزّعم الإسلامي يقول بأن الباحثين المخلصين عن الحقيقة يجب ألا يشعروا بالهول وذلك لأن الإسلام هو مجرد إعادة إحياء لتعاليم الأنبياء جميعاً وتوكيداً لها، ليس إلا. وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا

[٤] Nydell, Margaret K. 2006. *Understanding Arabs*. Intercultural Press. p.34.

ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (القرآن الكريم ١٠ : ٣٧). ومن جهة أخرى فقد تشعر المؤسسات اليهودية والمسيحية أنها مهددة، وذلك لأن الإسلام يفضح الأسس الزائفة التي قامت عليها هذه المؤسسات، وهي مؤسسات قام بتلفيقها أتباعٌ لهذه المؤسسات بناء على تعاليم قدّموها على أنها البديل الأفضل لتعاليم الأنبياء انفسهم.

ولكن كيف حصل هذا؟ فنقول أنه ووفقاً للإسلام إن الله أرسل في زمن التراث الشفهي نبياً لكل أمة. ولكن عندما أنعم الله على البشرية باللغة المكتوبة، فقد عوّضت الكتب المقدسة عن تلك الوفرة من الأنبياء. وهكذا فقد وصل الوحي إلى الأجيال التالية عبر توافقية التراث الشفهي، والكتب المقدسة، وعبر الأتقياء من الرجال والنساء الذين كانوا أمثلة يحتذى بها في مجتمعاتهم.

فما قد بلغنا هو أن الله أنعم على الإنسانية بسلسلة من الكتب المقدسة التي أوحى بها على أنبيائه ورسله، فقد أنزل **الصحف** Sheets على إبراهيم، و **الزبور** Psalms على داوود، و**التوراة** Torah على موسى، و**الإنجيل** Gospel على عيسى، **والقرآن** على محمد. وكان كل كتاب من هذه الكتب ينسخ السجل السابق له وذلك حين كانت رسالة الله الخالصة تتعرض لتزييف يستوجب التصحيح المسوّغ.

وهذا المشهد قد يبدو مألوفاً، وذلك لأن التاريخ ليس غريباً عن أفراد عدة ممن بدّل الوحي أو فسّره تباعاً لرغبات منحرفة. وفيما يتعلق بهؤلاء الأفراد يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٣: ٧٨)

وكذلك قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢: ٧٩).

والنتيجة التاريخية هي أن موضوعاً مشتركاً يسري عبر خيوط الكتب المقدسة للديانات الإبراهيمية. وكما ناقشنا في "**من فقدوا الله**" فإن لكل من العهد القديم والعهد الجديد علامات تحريف لايمكن لأحد إنكارها. ومع ذلك، فإن ثمة عقائد دينية مشتركة تتخذ سبيلها عبر سلسلة الوحي المتمثلة في العهد القديم، والعهد الجديد، والقرآن الكريم. فهذه الكتب الثلاثة تدعو إلى الوحدة الإلهية، وتأمر بالامتثال لأوامر الله. وقد بدأ

الانحراف عندما وقع أمر التدوين، والترجمة، والإقرار بين يدي أولئك الذين سعوا لتصميم دين أقرب مايكون إلى رغباتهم الدفينة.

ولنأخذ على سبيل المثال مزامير Psalms [زبور] داوود. فإن كان ثمة من يؤمن بأن مابقي في أيدي الناس منه هو كتاب هداية كامل، ولم تعبث به الأيادي، ويمكن أن يحقق ما هو مطلوب بمفرده، فإن عليه أن يراجع نفسه. ولنأخذ بعد ذلك العهد القديم والذي يعج بالأخطاء مايكفي منها ليقوض مصداقية العمل برمته. ثم لنأخذ بعد ذلك العهد الجديد والذي تم استبعاد قرابة ما بين ٢٥٠ و٢.٠٠٠ من الأعمال غير الكَنَسيّة non-canonical acts، والرسائل epistles، والأناجيل gospels منه (والتي أزيلت وأحرقت بيد حفنة قليلة ممن بقي من الكتّاب المشكوك في صحة ماينسب إليهم).[٥ م. ت.] ومن حق المرء أن يتساءل عن شخصية الرجال

٥. كما جاء في **الموسوعة البريطانية** Encyclopedia Britannica: "إن تاريخ استخدام المصطلح [الأبوكريفا apocrypha أي الكتب المنتحلة] يشير إلى أنه كان يدل على مجموعة من الكتابات الخفية كانت موجودة في الكتاب المقدس، وقد تم في البدء تثمينها، ثم جاء زمن تم فيه التغاضي عنها، لكنها مالبثت بعد حين أن أزيلت نهائياً". ومن الممتع ملاحظة أنه على الرغم من أن الأبوكريفا تم "تثمينها" في البداية، لكنها هبطت إلى مستوى التسامح بوجودها، ثم مالبثت أن نبذت جملة وتفصيلاً. ويمكن التوكيد على أن سلسلة التحوّل الديني قد قادت بالنتيجة إلى تعديل تعاليم يسوع المسيح أو رفضها بالطريقة ذاتها. وكيف لايمكن ذلك والتاريخ المبكر للمسيحية تكتنفه الضبابية. ولنقتبس هنا مجدداً **الموسوعة البريطانية**:

إن كُتّاب الأناجيل الأربعة المتَضمنة في العهد الجديد كانوا يشهدون بكتاباتهم على حقائق مؤكدة من حق المؤمنين أن يعرفوها، وأن لا سبيل لإعادة بناء حقائق تاريخية لهذه الكتب من العهد الجديد الهدف منها الإقناع والإقناع فقط. إن الكتاب التاريخي المسموح به علناً في العهد الجديد هو "أعمال الرسل". والعهد الجديد بجملته لايمثل سوى مختارات من كتابات المسيحيين الأوائل. ولم يكن يتضمن سوى ماكان يتوافق وعقيدة الكنيسة وذلك عندما أصبحت تلك العقيدة ثابتة في صيغة واحدة فيما بعد. ومابين "أعمال الرسل" (التي ربما يرجع

الذي قاموا بذلك الخيار التحريري، وعن نواياهم، وتوجهاتهم الدينية، وعن سبب عزمهم للمساومة بالحقائق الإنجيلية في سبيل دعم إيديولوجيا الجماعة group ideology. ثم لدينا بعد ذلك الخبير المعروف في نقد النصوص البروفيسور بارت دي. إهرمان Bart D. Ehrman والذي يخبرنا بأن العلماء يقدرون عدد المتغيرات في المخطوطات بمئات الآلاف، وبعض التقديرات تصل الى ٤٠٠,٠٠٠.[٦] ولابد هنا من أن نقتبس مقولة إهرمان الشهيرة إذ يقول: "يوجد في مخطوطاتنا [الإنجيلية] اختلافات تفوق عدد كلمات العهد الجديد."[٧]"

فأين يقود هذا كله الباحث عن الحقيقة الدينية، إن لم يكن يبحث عن الكتاب الخاتم الذي أوحى به الله والذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ وهل يمكن أن يكون القرآن الكريم ذلك الوحي؟ أدع جميع القرّاء كي يجيبوا عن هذا السؤال بأنفسهم بناء على الأدلة التي سوف نسوقها فيما يلي.

وأخيراً، فإن المشكلة بكتاب غزير المراجع كهذا الكتاب هو أن القارئ لايعرف دوماً أنه من الجدير تقليب عدد من الصفحات للوصول إلى الحواشي [الملاحظات] وقراءتها. ولحل هذه المسألة، فإن أرقام الحواشي التي

---

تاريخها إلى أواخر القرن الأول)، وكتابات يوسيبيوس قيسارية Eusebius of Caesarea (المتوفى حوالي ٣٤٠ للميلاد) ومعاصريه في الربع الأول من القرن الرابع ثمة تقريباً فجوة تامة في التاريخ المسيحي.
ومع ذلك نسأل: "ما الذي كان يعرفه مسيحيو القرن الأول والثاني والثالث ولانعرفه نحن؟"

٦. Ehram, Bart D. 2005. *Misquoting Jesus*. HarperCollins. p.89

٧. المرجع السابق، ص 90

تتضمن شرحاً قد تم وسمها بالاختصار "م.ت. EN" أي ملاحظة توضيحية، ومثالها يكون على النحو التالي "٣٦ (م.ت.)" أي حاشية رقم "٣٦" المتضمنة لنصٍ إيضاحي. وفيما خلا ذلك، فإن أرقام الحواشي لاتتضمن سوى معلومات مرجعية.

# القسم الأول: القرآن الكريم



**عندما يدنس الشيطان الآيات، يبعث الله وحياً إلهياً ليطهرها.**

جورج برنارشو George Bernard Sahw، **مغامرات الفتاة السمراء في البحث عن الله** *The Adventures of the Black Girl in Her Search for God*.

# ١ : نبذة تاريخية عن القرآن الكريم

**من أسباب إعادة التاريخ لذاته هو أن الكثيرين لم يكونوا منصتين في المرة الأولى.**

مارْغرِت هسي. Margaret Hussey

أُنزل القرآن الكريم في مطلع القرن السابع بعد بعثة المسيح عيسى عليه السلام بحوالي ستمائة عام. ويباري المسلمون بالقول أن النبي محمداً ﷺ لُقِّن الوحي كلمةً كلمةً خلال الثلاث والعشرين سنة الأخيرة من حياته. وعلى النقيض من ذلك، يتّهم غير المسلمين محمداً بحزمة من الاتهامات بزيف نبوّته. وقد وجّهت إليه مزاعم بالسرقة من الكتاب المقدس، وبالخداع، والكذب الصريح، والتفكير المضلل، تماماً كما طرحت النظرية بأن محمداً كان إنساناً ذا ذكاء خارق وذا نظرة ثاقبة، لكن ليس إلا. وقد ذهب بعض المؤلفين شأواً بعيداً لدرجة اقتراح أن محمداً كان مصاباً بالصرّع epilepsy، وأن القرآن الكريم ماهو في واقع الأمر إلا جمع لغمغماته في أثناء إصابته بالصرّع.

وليس بغريب على المصادر التاريخية وصف التغيرات التي كانت تطرأ

على مظهر محمد الخارجي عندما كان يتلقى الوحي. فقد لاحظت زوجه المحببة إليه عائشة أنه كان يتفصّد عرقاً لدى تلقيه الوحي حتى في الأيام الباردة، أما الذين يسعون لإصدار أحكام سريعة على شخصية محمد الإنسان فبوسعهم نسج النتائج التي تتواءم وذوقهم من مثل ندرة الأدلة تلك. إلا أن الذين يفترضون الإخلاص في محمد ويواجهون الظرف بوعي قد ينحازون إلى ألاّ يكون التغيّر في المظهر مبرراً فحسب، بل هو مبرر ومتوقع أيضاً من كل إنسان يُجابه بالعبء الروحي للوحي المباشر.

وكلّ فرد وقع له تسارع في نبضات القلب، وقشعريرة في الجلد، ووقوف في الشعر، وارتعاد في الفرائص، وتسارع الحواس الذي يحدث عندما يواجه موقفاً روحياً غير عادي بوسعه أن يتخيل مايحدثه أثر لحظة الاتصال بالخالق أو بأمين وحيه، من المؤكد أنه لا يمكن — والحالة هذه — إلا أن يكون هناك تنبّه مركز، وتفصّد عرق على الجبين، وتحديق مستمر ناجم عن الدهشة. ومن غير المعقول افتراض أن كلّ إنسان يمكن أن يتحادث وملك الوحي بطريقة عابرة ومريحة، كأنه يسترخي وهو يحتسي كوباً من القهوة وبعضاً من البسكويت في نادٍ محلي. فكم من أناس تصبّبوا عرقاً لمجرد مقابلة رؤسائهم في العمل، ولنا أن نتخيّل كيف تكون أعصابهم فيما لو قابلوا خالق الرؤساء جميعاً؟ وفضلاً عن ذلك فإن سبق له أن شاهد نوبات صرع عنيفة *grand mal seizures* يدرك أن المصروع لا يمكن له أن يصدر كلاماً مفهوماً، كما أنه في واقع الأمر لا يمكن له التخاطب في أثناء فترة استعادة حواسّه إثر نوبة الصرع تلك. وقد علق و.مونتغمري وت

Montgomery Watt قائلاً:

> كثيراً ما أكد أعداء الإسلام أن محمداً كان مصاباً بالصرّع، واعتقدوا أن تجاربه الدينية باطلة. وفي حقيقة الأمر فإن الأعراض الموصوفة ليست متطابقة وأعراض الصرّع، و ذلك لأن هذا المرض يؤدي إلى خور جسدي وعقلي، في حين كان محمد يبقى في كامل قواه العقلية حتى النهاية. إلا أنه ولو صحّت تلك الادعاءات، فإن المقولة سوف تكون باطلة تماماً ومبنية على محض جهل وتعصّب، فمثل تلك الأعراض الجسدية المضطردة ليس من شأنها أن تفعّل أو تبطل التجارب الدينية.(٨).

أما هارتوغ هيرشفلد Hartwig Hirschfeld الذي لم يتوانَ يوماً عن الكيل للقرآن، فقد عبّر عن حقده الدفين حيال هذا الكتاب في توطئة كتابه الموسوم **أبحاث جديدة في كتابة القرآن وتفسيره**، وذلك بقوله: "إن القرآن كتاب الإسلام ليس في واقع الأمر سوى تزوير للكتاب المقدس".(٩) ثم بعد ذلك يخلص للقول:

---

٨ Watt, W. Montgomery, 1953. *Muhammad at Mecca*. Clarendon Press. p.57

٩. Hirschfeld, Hartwig, Ph. D. 1902. *New Researches into the Composing and Exegesis of the Qoran*. London: Royal Asiatic Society. Pii.

والآن مالذي بقى من تأثير الصرّع أو الهيستيريا في أصول الإسلام؟ لا شيء على الإطلاق، فإلى اليوم لم يتلفظ إنسان بجملة واحدة بكامل الوعي والدّقة أكثر مما قام به محمد بـ "اقرأ". ولو لم يكن أعلنها لشيء إلا لمجرد الحماسة النبوية، فإنه لابد أنه كان أعظم عبقري وُلِد.[١٠]

وبالطبع يؤكد المسلمون القول بأن محمداً تلفظ بالقرآن بأكمله — بما في ذلك سورة العلق التي تسمى أيضاً بسورة إقرأ — وهو مجرد من الحيطة تماماً، لأنه ما كان له إلا أن يردد ما أوحي إليه. ومع ذلك فإن هيرشفلد — وعلى الرغم من مخالفته الواضحة لوجهة النظر الإسلامية — نفى تهمة الصرّع بصفتها زيفاً سافراً يصعب المصادقة عليه.

وكذلك يجب نفي التفكير التضليلي وذلك لأن محمداً لم يبدُ أنه استوعب التجربة الأولى للوحي استيعاباً تاماً، فقد أحدث نزول الملك جبريل عليه في المرة الأولى صدمة عنيفة له لدرجة أن محمداً كان بحاجة للإقناع بما حدث له. ووفق ماجاء في **الموسوعة الكاثوليكية الجديدة** *The New Catholic Encyclopedia* فإن "محمداً نفسه كان خائفاً، وغير مصدِّق، وغير متأكد من مغزى تلك التجربة. وتطلب الأمر إقناعاً من زوجه وأصدقائه قبل أن يقتنع ويؤمن بأنه قد تلقى فعلاً الوحي من

---

١٠. المرجع السابق، ص 32

الله"[١١].

إن المتوهمين سرعان مايؤمنون بأوهامهم، وهذا ما ينمّ عنه معنى التوهّم: استعداد لتقبل ماهو غير عقلاني نتيجة اختلاجات في عملية التفكير. وفضلاً عن ذلك، فقد مرت فترة مهمة (بعضهم يعدّها أربعين يوماً، في حين يرى آخرون أنها عامان) بين الوحي الأول والوحي الثاني. ويستدعي ذهن المتوهم أفكاراً غريبة على أساس متكرر. وتلك ببساطة طبيعة المرضى ممن لديهم معاناة نفسية – فعقولهم المشوهة لا يمكن لها أن تستقيم استقامة عفوية لمدة يوم أو يومين، فما بالك بأسبوع أو أربعين يوماً أو أكثر من ذلك؟ وهذا هو تماماً حال المشعوذين والمصابين بمرض الكذب والذين لايستطيعون على مايبدو إخفاء خداعهم الذي لابد أن يظهر للعيان على كلّ حال...

وحيث إن التاريخ قد برَّأ ساحة محمد من تهم الأوهام والخداع والإفك، فإنه لا يحفل بهذه الافتراءات عالم حق. فمثلاً، يعلق توماس كارلايل Thomas Carlyle قائلاً:

> يمكن لنا أن نفهم كيف حظي (محمد) بمكانته عند هذه الأرملة الثرية خديجة وكيلاً لأعمالها، سافر في تجارة لها إلى أسواق الشام الموسمية، وكيف استطاع القيام بذلك كلّه بأمانة

---

١١ *New Catholic Encyclopedia*. 1967. Vol 9 Washington, D.C.: The Catholic University of America.p.1001 .

واستقامة؟ كما يمكن لنا أن نفهم، كيف نما تقديرها واحترامها له؟ إن قصة زواجها بكاملها جليلة جليّة على ما رواها المؤلفون العرب لنا: كان في الخامسة والعشرين من عمره، وعلى الرغم من أنها كانت في الأربعين كانت ماتزال جميلة. ويبدو أنه قد عاش حياة مودة ووئام وصحة مع هذه المحسنة الثيب، محبًّاً مخلصاً لها دون غيرها. إن هذا يتعارض تعارضاً شديداً مع من قال بنظرية المحتال، لأن محمداً قد عاش على نحو غير استثنائي تماماً، عاش حياة هادئة وعادية تماماً حتى مضى عنفوان شبابه. بلغ الأربعين قبل أن يتحدث عن مهمة من السماء. ويعود تاريخ ماخرج عن مألوف حياته من الأمور، سواء الحقيقي منها أم المفترض، إلى ما بعد بلوغه الخمسين، وذلك عندما توفيت زوجه الصالحة خديجة. ويبدو أن أقصى ماكان "يطمح" إليه هو أن يعيش حياة مستقيمة، أما عن "شهرته"، فقد كان يكفيه مجرد حسن انطباع جيرانه الذين عرفوه عنه. ولم يبدأ "مهمة طموحه"، إلا بعد أن تقدم به العمر، وذهبت جذوة حياته، وبعد أن غدا **السلام** الأمر الرئيس الذي يمكن للعالم أن يسديه إليه. فهل يمكن أن يكون قد تهيأ على ماهو مناقض لشخصيته ووجوده كمشعوذ فارغ تعس ليحصل على ما لم يعد بوسعه الاستمتاع به؟! أنا لا أؤمن بذلك البتة. كلا: إن ابن البرّية واسع القلب هذا، بعينيه السوداوين البرّاقتين، وروحه

> الاجتماعية العميقة كان يحتضن أفكاراً أخرى غير الطموح، كان يحتضن روحاً صامتة عظيمة، كان واحداً من الذين ليس بوسعهم إلا أن يكونوا جادين؛ واحداً اختارته الطبيعة نفسها كي يكون مُخْلِصاً ... إن فرضية المحتال هذه سوف نتخلّى عنها لأنه لايمكن تصديقها، أو احتمالها، إنها نظرية لاتستحق منا إلا الرفض.[١٢]

وفيما يتعلق بالمحاولات الأخرى للانتقاص من قيمة الوحي الذي جاء به محمد، لا بد لنا أن نتجه لتحليل للقرآن ذاته.

فبادئ ذي بدء، إن كلمة "**قرآن**" لا تشير إلى كتاب، بل إلى وحي. إذ يُعتقد في التراث الإسلامي أن الملك جبريل نقل هذا الوحي إلى النبي محمد مشافهة. وهكذا حوفظ عليه وحياً شفوياً إلى يومنا هذا مصوناً في صدور الحفّاظ التقاة وعقولهم (حُفّاظ القرآن أو حملته) الذين يبلغ عددهم في وقتنا الراهن، وفقاً لبعض الإحصاءات ثلاثين مليوناً على الأقل.

كما دُوِّن القرآن في صيغته المكتوبة من قبل الكتبة، الذين قاموا بتدوين كل عنصر من عناصر الوحي وقت نزوله، مما جعل القرآن الكريم الكتاب السماوي الوحيد المدوّن عند نزول الوحي والمحفوظ دون تغيير حتى يومنا هذا، وذلك على خلاف العهد الجديد الذي لم تُكتب كتبه الأولى

---

١٢. Carlyle, Thomas, 1841. *On Heros, Hero – Worship and the Heroic in History*. London: James Fraser, Regent Street. Pp. 86-87, 89.

إلا بعد عقود من بعثة عيسى. وكانت مواد الكتابة نادرة بالنسبة عند تنزّل الوحي. ونتيجة لذلك فقد كان القرآن الكريم يدوّن على ما كان يتوافر للكَتَبة من سعف النخيل، وقطع الجلد، وألواح العظام أو كلّ شيء كان يتوافر لهم مباشرة. ثم جمع كل هذا في مصحف رسمي بتفويض من أبي بكر (الخليفة الأول)[١٣] (م.ت.على خلاف الإشارة المرجعية) بعد وفاة محمد بعامين تقريباً.

وأشرف على المشروع زيد بن ثابت، أحد كَتَبة محمد المخلصين. وتلا ذلك إكمال ما بين أربع نسخ إلى ثمان في أثناء خلافة عثمان، وأهديت كل نسخة منها إلى أحد أمصار العالم الإسلامي. وسَلِمَتْ إلى يومنا هذا نسختان .. إحداهما في طشقند بأزبكستان، والثانية في إسطنبول بتركيا. وما زالت هاتان النسختان الأصليتان تمثلان السجلين المكتوبين لسائر بني البشر. ويمكن التأكد من صحة كلّ نسخة من نسخ القرآن، في أي مكان من العالم، بمطابقتها بهاتين النسختين الأصليتين لإظهار سلامة كتاب الإسلام المقدس وصونه.

وهذا الصون بعينه هو الذي يعده بعضهم برهاناً معجزاً على قداسة القرآن الكريم. وتضيف الدكتورة لورا فاغليري Laura Vaglieri عنصر الأصالة هذا إلى قائمة الأدلة لديها معلّقة بالقول: "ويبقى لدينا دليل آخر

---

١٣. يفتقر الإسلام إلى الكهنوت أو مايقابل وظيفة البابا في الدين المسيحي. ولكن ليس في الإسلام نقباء (أي قضاة وحكام للدين) ممن وظيفتهم شغل مناصب الحكم في الأمة الإسلامية وبالتالي تقرير أمور الدين. إن أعلى وظيفة في هذا الشأن هي وظيفة الخليفة، إلا أن الخليفة لايملك سلطة على الدين، بل على النقيض حيث ينبغي عليه في حال إصدار مراسيم أن تكون متوافقة والشريعة الإسلامية.

على المصدر الإلهي للقرآن وهو حقيقة أن نصّه قد ظل نقياً دونما تغيير عبر القرون من اليوم الذي أُنزل فيه إلى يومنا هذا ...".[١٤].

ويدلي آرثر ج.آربري Arthur J. Arberry، أستاذ اللغة العربية بجامعة كيمبرج ١٩٤٧–١٩٦٩، بدلوه قائلاً: "باستثناء بعض التعديلات الإملائية التي أدخلت على طريقة الكتابة الأصلية التي كانت بدائية إلى حد ما، والتي كانت ترمي إلى حل الإبهام وتسهيل التلاوة، فإن القرآن كما يُطبع في القرن العشرين مطابق للقرآن الذي أجازه عثمان منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام".[١٥]

وهذا الرأي ليس بجديد، فـ السير وِلْيم موير Sir William Muir مستشرق القرن التاسع عشر وكاتب سيرة محمد سطَّر بالقول مايلي: "لقد وصلتنا نسخة عثمان المنقَّحة دونما تغيير ... ولعله لا يوجد في العالم كتاب آخر ظل على مدار اثني عشر قرناً بصفاء نص مثله".[١٦]

بينما نقع على رأي أكثر معاصرة ملخصّة في كلمات أدريَن بُرِكتْ

---

١٤. Vaglieri, Dr.Laura Veccia. Trans from Italian by Dr Aldo Caselli, Haverford college, Pennsylvania, Originally published in Italian under the title: *Apologia dell Islamismo* (Rome, A.F. Forming in 1925). 1980. *An Interpretation of Islam*. Zurich: Islamic Foundation. P42-41.

١٥. Arberry, Arthur J.1964. *The Koran Interpreted*. London: Oxford University Press. P.9.

١٦. Muir, Sir William. 1923. *The Life of Mohammad*. Edinburgh: Jhon Grant. P.22-23 .

:Adrian Brockett

كان نقل القرآن بعد وفاة محمد بشكل رئيس نقلاً ثابتاً لا عضوياً. وكان هناك نص واحد، ولم يكن ممكناً حذف شيء مهم، حتى يُقال أنها مادة منسوخة، أو إضافة شيء. وهذا ماكان ينطبق كذلك على الخلفاء الأوائل ... فنقل القرآن من جيل إلى جيل كان دوماً يتم مشافهة تماماً ودوماً وفق النص الذي كُتب فيه أصلاً". (١٧)

كما وافق عشرات الآلاف من الصحابة وبالإجماع على السجل المدوّن للقرآن الكريم. وكان كل واحد من هؤلاء جميعاً يحفظ أجزاء من القرآن، وكان كثير منهم يحفظ كتاب الله كاملاً عن ظهر قلب. وعندما جُمع القرآن في هيئة كتاب لأول مرة، كان الكثير من الصحابة يمتلكون نسخاً شخصية من تدوينهم. وكان العديد من هذه النسخ غير كاملة، وأخرى (مثل نسخ عبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وابن عباس) كانت صحيحة وفقاً لإحدى القراءات، لكنها لم تُتِح المجال أمام تعدد القراءات الممكنة وهذا يمثل إحدى معجزات القرآن. (١٨) (م.ت.) وبالنتيجة فإنه لم يعترف أحد بهذه النسخ غير الكاملة حتى مالكوها بأنها كاملة أو

---

١٧. Rippin, Andrew (editor). 1988. *Approaches to the History of the Interpretation of the Qur'an*. Chapter "Value of Hafs and Warsh Transmission" by Adrian Brokett. Oxford: Clarendon Press. P.44-45.

١٨. للمزيد حول هذا الموضوع انظر **القسم الأول، الفصل الرابع**

مرجعية.

والتدوين الوحيد للقرآن الذي حظي بموافقة إجماعية كان المصحف المعتمد رسمياً الذي جمعه زيد بن ثابت بتفويض من أبي بكر. ولمنع الفوضى واحتمال حدوث انقسام لدى أجيال المستقبل، سُلِّمت جميع النسخ المدونة الأخرى طواعية، وأتلفت هي وبقايا العظام وجلود الحيوانات وأوراق البردى التي كتب عليها القرآن. ولو لم يحدث ذلك، فلربما كانت الأجيال التالية قد وقعت فريسة للجهل أو المكابرة، مفضّلة إحدى النسخ غير الكاملة التي آلت إلى عائلة أو قبيلة على الوحي الحق والكامل. وكان من شبه المؤكد أنه سوف ينجم تضامن قبلي وفرقة دينية. ويبدو أن الصحابة الأخيار قد أدركوا ذلك وقضوا على هذا الخطر بالمحافظة على الوحي كاملاً دون سواه، متجاهلين الأجزاء المتفرقة، التي ربما كان يمكن لها أن تصبح مصادر للتنازع.

والمسلمون مغرمون بالإشارة إلى عدم اعتراض أحد من بين معاصري محمد على نص المصحف الرسمي، كما لم يقل أحد من الصحابة أن نصاً واحداً أغفل تضمينه في ذلك المصحف أو أن نصاً لم يكن جزءاً من الوحي قد أُقحم فيه. والأهم من ذلك حقيقة أن ما جمع وأتلف من نصوص كانت نسخاً **غير كاملة** ولم تكن نسخاً **مختلفة** للقرآن. وسلم مالكو النسخ نسخهم طواعية للإتلاف، نظراً لأن المصحف الذي جمعه زيد بن ثابت كان شاملاً لكل ما دوّن في النسخ الجزئية التي وجدت قبله. ويمكن القول ببساطة: إنه لم تكن هناك نسخ محكمة لم تضمن فيه.

إضافة إلى ذلك، وكما أسلفنا، فإنه لم يحافظ على القرآن بشكل رئيس في هيئته المكتوبة بل في ذاكرة المؤمنين. وقد راجع الحَفَظة نسخة المصحف الرسمية تلك وأكدوا اكتمالها وصحتها، ولم يعترض على ذلك أحد منهم وكانوا يُعدّون بالآلاف.

إن وجود عدد قليل من حفظة القرآن بعد مرور ألف وأربعمائة سنة على نزوله يعد أمراً غير اعتيادي، فمابالك بوجود عشرات الملايين منهم اليوم؟ إن ذلك لاشك يعد أمراً عجيباً.

وفقاً لإحصائيات حديثة للسكان، هناك مليار مسيحي وعدة ملايين من اليهود في العالم، إلا أن أحداً منهم لا يحفظ كتابه الديني الأصلي عن ظهر قلب. ولربما حفظ التوراة غيباً عدد نادر من الأحبار ... ليس كما أُنزلت، بل كما أعيدت صياغتها بحوالي مائتي عام إثر إتلاف النسخة الأصلية إبّان نهب هيكل سليمان عليه السلام من قبل الإمبراطورية البابلية في العام ٥٨٦ قبل الميلاد. والنسخة الوحيدة من العهد القديم، سواء أكانت محفوظة غيباً أم مطبوعة، تحوي الأخطاء غير السماوية التي سبق مناقشتها في كتابي السابق **"من فقدوا الله"**.

**ويندر** جداً أن يكون مسيحي واحد قد حفظ العهد الجديد برمته في ترجمة واحدة فقط من آلاف النسخ المعروفة. والأندر من ذلك، إن وجد أصلاً، هو العثور على مسيحي واحد يحفظ غيباً نسخة واحدة فقط من ٥.٧٠٠ مخطوطة يونانية باقية لدينا. إلا أنه لم نعلم قط في مكان ما في العالم أو في فترة من فترات تاريخية أن أحداً قد حفظ إنجيل عيسى

الأصلي، والسبب في ذلك هو ببساطة أن ذلك الإنجيل لم يعد موجوداً، ولو وُجد لتوقف العالم المسيحي عن اصطراعه لتنقيح مئات الآف من التباينات في المخطوطات اليونانية المتبقية، ولواجه العالم بالنسخة الأصلية غير المزيفة من الإنجيل.

يبدو إذاً أن القرآن كتاب فريد. إنه الكتاب المقدس الوحيد الذيُ دوِّن عند نزول الوحي وحوفظ عليه بنقائه الأصلي إلى يومنا هذا. وقد توجد ترجمات مختلفة للغات غير العربية، إلا أن هناك قرآناً أصلياً واحداً، ومن هنا فليس هناك اختلاط كذاك القائم بين العديد من نسخ الكتاب المقدس. وليس هناك قنوط كالذي ينبع من انعدام وجود كتاب منزل أصلي، وليس هناك عدم يقين، مثل التساؤل عن الحقائق المحجوبة عن أنظار العامة في المكتبة الخاصة للفاتيكان أو في حقيقة لفائف بردى قمران (البحر الميت) Qumran (Dead Sea) Scrolls التي لايمكن الوصول إليها. ولا ينبغي لأحد أن يتساءل عن مدى الاختلاف بين اليونانية القديمة (Koiné Greek) التي كانت سائدة ولغة النبي عيسى الآرامية. ولو كانت أخطاء الترجمة من الآرامية والعبرية القديمة إلى اليونانية القديمة بقَدْر كثرة الأخطاء التي وردت خلال الترجمة من اليونانية إلى الإنجليزية وفداحتها لوجب إعلان فقدان أي أمل في صحة الكتاب المقدس منذ أمد بعيد.

والفرق الشاسع بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم هو أن القرآن كان دوماً في متناول أيدي الناس، ولكن الكتاب المقدس لم يكن كذلك

مطلقاً. وكلّ امرئ أراد الحصول على نسخة من القرآن بوسعه فعل ذلك. أولاً، إن الكتاب المقدس لم يبدأ وجوده في هيئته الحالية، أي بفهرسه الحالي للمحتويات، إلى أن أُقِرّ في مجلس ترِنْت Council of Trent في العام ٣٦٧ ميلادية. ومع ذلك تم الاحتفاظ بالكتاب المقدس بنسخته اللاتينية Latin Vulgate لأكثر من ألف عام. وتلا ترجمة جون وكلف John Wycliff الإنجليزية للعهد الجديد في العام ١٣٨٢ ميلادية ترجمة وليم تِنْديل Wiliam Tyndale (التي أكملها مايلز كفرديل Miles Coverdale وحررها جون روجرز John Rogers)، وكذلك ترجمة مارتِن لوثر Martin Luther إلى الألمانية (وكلتا الترجمتين تعودان إلى القرن السادس عشر)، ماذا كان جزاء تِنْديل؟ كان جزاؤه الموت حرقاً في العام ١٥٣٦. وروجرز، ماذا كان مصيره؟ مصير تِنْديل ذاته، وذلك في العام ١٥٥٥. أما سلفهم وِكْلِف فقد نجا من المقصلة ولكنه لم ينجُ من النار، وذلك لأن مجلس كونْستَنْس المسكوني Ecumenical Council of Constance أدانه بعد موته في العام ١٤١٥، حيث نبشت رفاته وأحرقت على الملأ. ولولا شفاعة الدانمارك لواجه مايلز كفرديل Miles Coverdale المصير ذاته. أما مصير ترجمتي وِكْلِف وتنديل فقد لاقتا مصير صاحبيهما ذاته، وهو الحرق علناً.

وهكذا ولمدة ألف وخمسمائة عام ونيف، لم تكن كتب المسيحيين المقدسة لتتوافر لديهم إلا بإحدى اللغتين اليونانية Greek أو اللاتينية Latin، ولم يكن بوسع أحد قراءتها سوى الطبقة المثقفة، وبعض رجال

الدين الأوسع اطلاعاً، وذلك لأن العديد من رجال الدين الكاثوليك أنفسهم كانوا أمّيين عندما كان الأمر يتعلق بكتابهم المقدس. ولو أعملنا الفكر بجدية لأدركنا أنه لو قُدّر لعيسى المسيح أن يرجع الآن، لعجز هو نفسه عن قراءة كل من مخطوطات عهدنا الجديد باللغة اليونانية أو الفولجاتا الكاثوليكية Catholic Vulgate باللغة اللاتينية [الترجمة اللاتينية للتوراة أو الإنجيل] وذلك لأن لغته الأصلية كانت الآرامية.[١٩] وفي الحقيقة لم تكن الطبقة المثقفة تمثل سوى نسبة ضيئلة جداً من السكان بالمقارنة مع اليوم، فلم يكن بوسع هذه الطبقة سوى قراءة الكتاب المقدس، هذا في حال توافرت نسخة منه. فقد حدّت جملة من الأسباب من اقتناء نسخة من الكتاب المقدس من بينها التكلفة الباهظة، وندرة العدد (فقد كانت جميع الأناجيل تنسخ باليد)، بالإضافة إلى القوانين الصارمة التي كانت تمنع العامّة laity من امتلاك الأناجيل. وكثير من تلك القوانين كانت تقضي بالإعدام، لاسيما في حال اقتناء ترجمات للكتاب المقدس بلغة الموطن vernacular language [أي بغير اليونانية أو اللاتينية]، أو اقتناء ترجمات غير مرخص بها أو تلك التي وسمت بالهرطقة والتي كان يعد من بين أشدها إيذاءً الأناجيل البروتستانتية.

ولم تكن هناك طريقة ممكنة لإنتاج الكتاب المقدس بكميات كبيرة حتى اختراع الطباعة على يد غوتنبرغ Gutenberg في العام ١٤٥٠. ولم تتم ترجمة الكتاب المقدس إلى لغات العامة من القراء (أي الألمانية والإنجليزية)،

---

١٩. Ehrman Bart D. 2004. *Lost Christianities*. OUP. P.102.

أو توضع كميات كبيرة منه في متناول الجمهور إلا بعد حركة الإصلاح البروتستانتي Protestant Reformation في القرن السادس عشر.

وكان القرن السادس عشر هو الفترة الأولى في التاريخ المسيحي التي شهدت إنتاج نسخ من الكتاب المقدس مترجمة إلى اللغات الوطنية الأوروبية والتي تصاحب معها نمو لكنائس جديدة غير كاثوليكية بمباركة ملكية متعاطفة. واستجابة لضغوط الإصلاحات البروتستانتية، فإن الكنيسة الكاثوليكية أنتجت إنجيل دُووي – ريمز Douay-Rheims Bible الذي قدم وللمرة الأولى ترجمة الفولجاتا اللاتينية Latin Vulgate [النسخة اللاتينية للكتاب المقدس] إلى الإنجليزية. وكان جزء العهد الجديد من الكتاب المقدس قد أُكملت ترجمته في ريمز Rheims بفرنسا في العام ١٥٨٢، في حين أُكملت ترجمة العقد القديم في دُووي Douay في الفترة ١٦٠٩—١٦١٠. وعلى الرغم من ذلك، فإنه مع إنتاج كميات كبيرة من نسخ الكتاب المقدس كان توافرها لايخلو من معوقات جمة، والسبب في ذلك هو "أنه قُدِّر وجود حوالي ٢٥٠٠٠ نسخة من الكتاب المقدس – وهو الإنجيل – قيد التداول في أوروبة الغربية حوالي العام ١٥١٥، ثلثها كان في ألمانيا، لحوالي خمسين مليون نسمة، أي نسخة واحدة من الكتاب المقدس لكل ألفي روح". [٢٠]

إن مايعنيه هذا هو أنه على مدى ألف وخمسمائة عام ونيف لم يكن

---

٢٠. Fossier, Robert (eds). 1986. *The Cambridge Illustrated History of The Middle Ages:* Cambrdge U Press. Vol.3, p.495

بوسع المواطن العادي التحقق من تعاليم كتب المسيحيين المقدسة وذلك بسبب الأمية وبسبب الافتقار إلى نسخ الإنجيل ذاتها. كما يعني هذا أنه وعلى مدى فترة أطول لم تكن العامة تستطيع التساؤل عن العقائد الكنسية التي فرضت عليها، خشية "موت غير دموي" وهو التعبير المنمق الذي كان يستخدم للكناية عن الحرق حتى الموت.

ويجادل الكاثوليك بأن قَصْر التفسير الإنجيلي والتعليم الديني على مؤسسات الكنيسة (الذي مازال قائماً إلى اليوم) كان ضرورياً للمحافظة على الفهم السليم، في حين يجادل آخرون أن الكنيسة لم تكن معنية بحماية الإنجيل من سوء التفسير أكثر مما هي معنية بحماية قاعدة نفوذها وموقعها المميز في المجتمع. أصبحنا نعلم الآن أن الكنيسة كانت تعتقد بأن دقائق الأسرار المسيحية كانت عصية عن الفهم بالتعليل المعرفي لدى العامة أو بنتائج دراستهم. إن ماهو ليس معروفاً معرفة واسعة هو أن الكنيسة لم تكن توكل حتى لعلمائها مسألة التفسيرات الإنجيلية. وكما أعلن البابا إنوسنْت الثالث Innocent III في العام ١١٩٩:

> ينبغي ألا تشرح أسرار الدين على عجالة لكائنٍ مَنْ كان، فهي عادة أمرٌ لا يفهمه الجميع، بل يقتصر فهمها على المؤهلين لفهمها من أصحاب الكفاءة المشهود لهم بالذكاء ... إن عمق الكتب السماوية هو من الكبر الذي لايصعب فهمه على الأميين وغير الراسخين في العلم فحسب، بل على

المثقفين الموهوبين أيضاً.[٢١]

إلا أن الموقف البروتستانيتي يقول إن البشر خلقوا جميعاً، ولديهم العقل والمقدرة على تفسير كتب المسيحية بأنفسهم، ويجادل البروتستانت —كما فعلوا في الماضي — في أنه بمجرد أن يتمكن البشر من قراءة الكتاب المقدس ودراسته بلغتهم الخاصة بهم بعيداً عن كلّ الضغوط، فإنه يكون بمقدورهم استنباط الحقيقة الإنجيلية من الخيال المقدس، وأنه بمجرد تعرية أخطاء الكاثوليكية، والكشف عن أساس اللاهوت الكاثوليكي بأنها في مجملها (وفي بعض الحالات برمتها) دخيلة على الكتاب المقدس، فإن النزوع إلى البروتستانتية يضحي أمراً حتمياً.

أما المسلمون فيذهبون إلى أبعد من ذلك، ويؤكدون إن الأساس الواهن للكتب المسيحية المقدسة يجب ألا يفضي بالقوم بالتحول من طائفة مسيحية إلى طائفة أخرى تقيم كل منهما معتقداتها على كتاب مقدس مفعم بأخطاء جلية وتناقضات جمة. بل يرى المسلمون أن الذين يبحثون عن الحقيقة الربانية عليهم أن يعترفوا بالحاجة إلى أهمية إدراك الخالق لتجديد وحيه على عباده.

وحيث يرى المسلمون أن هذا الوحي الخاتم هو القرآن الكريم، فإنهم يشيرون إلى أن القرآن كان دوماً في متناول الناس وفي عقولهم. فالقرآن يُرتل

---

٢١. Denzinger, Henricus & Schonmetzer, Adolfus. 1973. *Enchiridion Symbolorum, Definitionum et Declarationum de Rebus Fidei et Morum*. Barcinone: Herder. P.246.

جهراً في صلوات المسلمين اليومية منذ نزوله. وفي كل عام وخلال شهر رمضان يُفترض أن القرآن يُختم جهراً في كل مسجد من مساجد العالم تقريباً. وبوسع كلّ مسلم أن يردّ الإمام إذا أُرتج عليه، ولكن على مدار ألف وأربعمائة عام لم يختلف المسلمون السنة في صحة حرف واحد من حروفه. وفي يومنا هذا يمكن أن يصوّت مع هؤلاء بالإجماع ما يصل عددهم إلى المليار نسمة. ومما يثير الدهشة أنه ظهرت عبر التاريخ عدة فِرق من المسلمين السنة قاتل بعضها الآخر. فقد اغتيل الخليفة الثالث عثمان بينما كان يقرأ القرآن ويمكن رؤية آثار دمه على صفحات ذلك القرآن. إلا أن أصالة القرآن لم تكن يوماً محل تساؤل بين المجموعات المسلمة المتنافرة تلك في كلّ عصر. ومن المؤكد أنه لا يمكن قول الشيء ذاته بشأن الكتاب المقدس، وكما علّق ف. ف. آربُتْنُت F.F.Arbuthnot:

> من وجهة نظر أدبية، يعد القرآن نموذجاً لأنقى مافي اللغة العربية، كُتب نصفه شعراً والنصف الآخر نثراً.(*) وقد قيل إن النحويين كيّفوا قواعدهم في بعض الحالات لتتواءم مع بعض العبارات والتعابير المستخدمة فيه. وعلى الرغم من أنه قد بُذل العديد من المحاولات للإتيان بعمل مثله في فصاحته، لم ينجح شيء منها حتى الآن. وهكذا يتبين مما سلف، أنه تم جمع نص

(*) إن القول بأن القرآن شعر هو فرية استشراقية يستخدمها بعضهم لتجريد الإسلام من سماويته. وواضح أن المؤلف استشهد بهذا الاقتباس للدلالة على ثبات النص القرآني مقارنة بنص العهدين القديم والجديد. [المترجم].

نهائي وكامل للقرآن في غضون عشرين عاماً بعد وفاة محمد (عام ٦٣٢ للميلاد) وأن هذا النص قد ظل كما هو، دونما تغيير أو تبديل من قِبل المتحمسين أو المترجمين أو المقحِمين إلى يومنا هذا. ومما يؤسف له أنه لا يمكن قول الشيء ذاته بالنسبة إلى جميع كتب العهدين القديم والجديد[٢٢].

كما أن القرآن مكتوب بلغة حية يفهمها مئات الملايين من أبنائها الأتقياء حتى يومنا هذا. أما الكتاب المقدس، فمكتوب بشكل رئيس باللغة اليونانية المندثرة *Koiné* Greek، وبـ شذرات من اللغة العبرية القديمة المنقرضة (وليست اللغة العبرية المحكية اليوم) أو الأرامية. ولا يوجد في العالم بأسره سوى نذر يسير من العلماء الذين يفهمون هذه اللغات الميتة فهماً جزئياً، ومع ذلك فإنهم لا يتفقون على الترجمة. ونقع على أدلة هذه المصاعب في تصدير الطبعة المعتمدة المنقحة للكتاب المقدس، التي اعتمدت بالتصويت في المجلس الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة في العام ١٩٥١م. ويبدو أن الطبعة المعتمدة المنقحة NRS قد تمتعت لاحقاً بأوسع قبول شعبي في أرجاء العالم المسيحي. ومع ذلك، وعلى الرغم من العِلْميّة المسكونية ecumenical scholarship، والقبول الدولي، تعترف النسخة المعتمدة المنقحة بالقول:

وبالطبع يبقى هناك الكثير من الغموض والعديد من

٢٢. Arbuthnot, F.F. 1885. *The Construction of The Bible and the Korân*. London: Watts & Co. pp.5-6.

المصاعب. وحيث كان الاختيار بين مَعْنَيْين صعباً أو مشكوكاً فيه على وجه الخصوص، فقد وضعنا شرحاً بديلاً في الحاشية. وإذا رأت اللجنة أنها ليست متأكدة تماماً من معنى نص ما أو كان النص غامضاً — سواء أكان بسبب التلاعب بالنص أو لعدم كفاية معرفتنا الآنية باللغة — فإن اللجنة تشير إلى الحقيقة بملاحظة. إلا أنه ينبغي ألاّ نفترض أن اللجنة كانت على يقين تام أو إجماع بشأن كل شرح لم يُشر إليه على هذا النحو.[٢٣].

ويزداد فهم المخطوطات الإنجيلية مع كل اكتشاف جديد، كما هو واضح من خلال دوافع السلطات الكنسية إلى مراجعة نسخة الملك جيمس للعام ١٦١١، والنسخة الأمريكية المعتمدة للعام ١٩٠١، والنسخة المعتمدة المنقحة بعدها بخمسين عاماً. وتكمن الدوافع على مثل هذه المراجعات، كما ورد في تصدير النسخة المعتمدة المنقحة من أن نسخة الملك جيمس تعاني من "أخطاءٍ جسيمة". وعلى نحو أكثر دقة يقول التصدير: إن "نسخة الملك جيمس للعهد الجديد قامت على نص يوناني يعج بالأخطاء، وقد اجتمع في جنباته ركام أربعة عشر قرناً من الأغلاط الناجمة عن نسخ المخطوطات".[٢٤].

وبينما يستمر صقل فهم العهد الجديد باليونانية، يبقى هذا الفهم

---

٢٣. The Bible, Revised Standard Version. 1977. N. Y.: American Bible Society. Preface, p.v.

٢٤. المرجع السابق، المقدمة، ص iii

بعيداً عن الشمولية في الوقت الراهن، ولن يكون شمولياً يوماً ما. وفي مثل هذا الجو من عدم اليقين، فإن الترجمة المغلوطة – سواء أكانت متعمدة أم عرضية أم صادرة عن حسن نية – تُمرّر على أنها ترجمة محكمة بسهولة إلى من تعوزهم الخلفية اللغوية من عدم القدرة بالحكم على مدى دقتها. ولكن هذا الأمر لايقع في حال كانت اللغة مفهومة لدى أبنائها المخلصين الذين لديهم المقدرة على كشف أدق الأخطاء وتصحيحها، وهذه هي الحال تماماً مع اللغة العربية والقرآن الكريم.

وهنا يمكن لنا أن نتساءل إذاً: كيف يدعم المسلمون تأكيدهم أن القرآن فريد ولم يتغير؟! إن المزاعم التي يعوزها الدليل لا تحظى بالقبول هنا. لقد طلب التصويب من معظم البشر، ولكنهم **أرغموا** على الإيمان الأعمى لأمد بعيد. لقد سئم مثقّفو العامة النهج الجذاب الذي يعوزه الدليل، ذلك النهج المرصّع المصحوب بضروب الإغراء الذي يلجأ إليه المبشرون، ولكن هذا النهج خاو روحياً خواءً تاماً، في حين يحتاج الباحثون المخلصون غطاءًا من الأدلة يغلفون به قناعاتهم. ليس مجرد غطاء يبدو جذاباً برّاقاً من بعيد، بل غطاء يفي بالغرض.

تحتوي الفصول التالية إذاً الجوانب القرآنية الثرّة التي تشكل منظومة الأدلة التي يؤكد المسلمون قناعاتهم بها.

## ٢ : الأدلة ... مقدمة عامة

**إذا ما وصل الأمر بالتفكّر إلى نقطة الحضيض، فإنه يبقى أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة.**

صموئيل جونسون Samuel Johnson

ربما بدت قلة المراجع في المناقشة التالية للتاريخ الإسلامي والدستور القرآني مثيرة للدهشة لأولئك الذين يجهلون التاريخ الإسلامي، لكنها في الحقيقة تعد من المسلمات في أوساط عامة المثقفين المسلمين. وبالتالي فإنه بالطريقة التي لا تحتاج فيها عبارات شهيرة مثل "الكتابُ المقدس هو الكتاب الأساس للمسيحية ويضم الأناجيل المنسوبة لمتّي، ومرقس، ولوقا، ويوحنا" لمراجع، فكذا هو الحال بشأن مجمل ما سوف نأتي عليه.

ومع ذلك، يمكننا التحقق من بعض التفاصيل من خلال عدد من أمهات الكتب الموثوق بها لكُتّاب مسلمين، ومن بين هذه الكتب **مناهل العرفان في علوم القرآن** للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، و**المدخل لدراسة القرآن الكريم** لمحمد أبو شهبة، وكتابان يحملان العنوان ذاته: **مباحث في علوم القرآن** للدكتور صبحي الصالح والآخر للدكتور منّاع القطان وهي كتب يجب أن تترجم إلى الإنجليزية. ولكن ثمة كتابان رائعان

باللغة الإنجليزية وهما: **علوم القرآن: مقدمة** *Ulum Al-Qur'an: An Introduction to the Sciences of the Qur'an* لـ أحمد فون دنفر Ahmad Von Denffer وهو، على الرغم من سطحيته، مدخل جيد للموضوع. والكتاب الثاني هو **مقدمة في علوم القرآن** *An Introduction to the Sciences of the Qur'an* لـ أبي عمار ياسر قاضي. Abu Ammar Yasir Qadhi وهو أكثر عمقاً وشمولية من سابقه.[٢٥]

من ناحية أخرى، فإن نتائج العديد من المؤلفين غير المسلمين — إن لم يكن معظمهم — يعتريها الكثير من التعصب الديني. فمعظم هذه المؤلفات النقدية لا يرتقي لمستوى القيمة العلمية الموضوعية لدرجة أنه لم ينبذها المسلمين فحسب، بل رجال الدين المثقفين، والمستشرقين، وعلماء الدين كذلك، مما حدا بأحد هؤلاء المؤلفين ليتحسّر قائلاً:

> إن التصريحات المغرضة عن الإسلام في الغرب تصدر عن جهل أحياناً وأحياناً أخرى تصدر بغرض تشويه سمعة منتظم. إلا أن أخطر الافتراءات هي تلك المتعلقة بالحقائق، لأنه في الوقت الذي قد تغتفر فيه وجهات النظر المغلوطة، لا يمكن غفران تقديم الحقائق التي تعارض الواقع. ومن المزعج قراءة افتراءات فاضحة في مؤلفات مرموقة لمؤلفين مشهود لهم

---

٢٥. هذا الكتاب متوافر في دار الهداية للنشر Al-Hidaayah Publishing, P. O. Box 3332 .Birmingham, UK B10 9AW

بالكفاءة العالية.[٢٦]

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن العديد مما يسمى بـ "مؤلفات علمية" يعرّيها المثقفون من أبناء ملة المؤلف نفسه. إلا أننا نجد أن معظم التفاصيل التالية [التي سوف نناقشها] والتي هي تفاصيل ثابتة في التاريخ الإسلامي تُحذف ببساطة من مثل هذه الكتب على افتراض أن مناقشة هذا الموضع لا يروق لمن ينكرون الآيات التي تثبت صحة الوحي الإسلامي. ومن جهة أخرى، يكاد يكون هناك إجماع تام في العالم الإسلامي بأسره بشأن الموضوعات التالية، ويسهل نسبياً التحقق منها إذا ما أخذنا بعين الاعتبار دقة التوثيق التاريخي المميزة للعلوم والتراث الإسلامي.

إلا أنه علينا أن نعترف أن بعض الكتب الحديثة لمؤلفين مسلمين تعوزها الدقة كذلك، وعدم الدقة هذه ناجمة في الغالب عن محاولات بعض المغالين سعياً منهم إما لتحديث هذا الدين أو تمجيده. ومع ذلك كله نجد أن عناصر تاريخ القرآن المتفق عليها تُستخدم في معظم هذه المؤلفات باتساق ملحوظ. وسوف ينصب البحث في هذا المؤلف على هذه العناصر المتفق عليها في التاريخ الإسلامي. وسوف نتجنب الخوض في مسائل شخصية أو طائفية أو آراء فرق منحرفة (كالأحمدية، والشيعة، وأمة الإسلام) أو الخوض في رأي الأقلية، بل ندع مناقشة ذلك لمن يرغب في استكشاف الفرق الإسلامية الأقل شيوعاً بطريقته الخاصة.

---

٢٦. Bucaille, Maurice, M. D. 1977. *The Bible, the Qur'an and science*. Lahore: Kazi publications. P.110-111.

# ٣: الدليل الأول .. النداء الفطري

**في نهاية المطاف لا تغدو كل الحقائق أن تكون سوى أمور بدهية تم إيضاحها.**

توماس هنري هكْسْلي Thomas Henry Huxley، **حول دراسة الأحياء**.

فيما يتعلق بأكثر الأمور سطحية يعتقد المسلمون بحقيقة أن القرآن كتاب تتجلى حقائقه من خلاله كونه كتاباً ذا معنى يتوافق وأسس الفهم الفطري لله ومنهجه. ولكن أيّ دين يعوزه هذا القول؟ فليس هناك من برهان يرضي بني البشر جميعاً، وذلك لسبب، بسيط وهو حقيقة أن العالم كله ليس مسلماً. إلا أن هذا البرهان ليس بعيد المنال على المستوى الفردي. فالكثيرون ممن يقرؤون الكتب الأساسية لشتّى الديانات يجدون أنفسهم ميّالين دون مبرر نحو كتاب واحد بعينه، تشدّهم إليه العقائد التي يشتمل عليها هذا الكتاب. والقرآن ليس استثناءً هنا، فما على المرء إلا أن يجلس إليه ويشرع في القراءة.

إن من يجلس للقرآن عليه أن يواجه كتاباً ذا طابع مختلف تماماً عن كتب العقائد الإبراهيمية الأخرى. فالعهد القديم في مجمله يُعدّ كتاب

قوانين وقوائم مجترّة طويلة وتاريخ جاف. وفي المقابل يموج العهد الجديد بالروحانية، ولكنه يفتقر إلى القدرة على الأخذ بيد القارئ نحو طريق ملموس فيما يتعلق بقضايا الحياة الهامة. وفي مقابل هذا وذاك يقدم القرآن الأساس ليس للدين الإسلامي فحسب، بل للشريعة الإسلامية، والحكومة الإسلامية، والسلوك الاجتماعي، وبنية الأسرة، وكل منحى من مناحي الوجود الدنيوي والروحاني. وقد علّق هـ. ج. وِلز H. G.Wells على تعاليم الإسلام التي حملها محمد بما يلي:

أرست [تعاليم الإسلام] في العالم تراثاً عظيماً من التعامل الكريم المنصف، وأفصحت عن روح من الكرم، وهي تعاليم إنسانية قابلة للتطبيق. كما أوجدت هذه التعاليم مجتمعاً أكثر تحرراً من القسوة والظلم الاجتماعيَّيْن من كلّ مجتمع في العالم قبله ... فالإسلام كان مفعماً دوماً بروح العطف والكرم والأخوّة، وهو دين بسيط يفهمه الجميع، ومنسجم تماماً مع مشاعر الشهامة البدوية. وهو دين يخاطب خطاباً مباشراً أكثر الغرائز شيوعاً في تركيبة الإنسان العادي. وفي مقابل الإسلام كانت هناك اليهودية البائسة التي جعلت من الله حكراً عنصرياً. وكانت هناك النصرانية التي مافتئت تدعو إلى تثليث وعقائد وهرطقات لا يمكن لإنسان عادي أن يحزر أولها من آخرها. كما كان هناك المازدوية Mazdaism، وهي طائفة المجوس الزرادشتية Zoroastrian Magi التي استلهمت صَلْب

ماني Mani. إن جموع القوم التي جاءها تحدّي الإسلام لم تكن لتعبأ كثيراً فيما إن كان محمد شهوانياً أم غير شهواني، أو فيما إن جاء بأمور مشبوهة أو مشكوك فيها. إن ما راق لهم هو أن هذا الإله — الله — الذي كان يدعو إليه هذا النبي والذي كان اختباراً لما يعتمل في صدورهم، إله استقامة، وأن الإذعان الصادق لعقيدته ونهجه فتحا الباب على مصراعيه في عالَم من عوالم الشك، والخيانة، والانقسامات العصبية نحو أخوّة عظيمة ومتنامية من الثقة المتبادلة لرجال في الدنيا، ونحو جنّة تكون جزاء الحمد والعبادة الدائمين لا تكون فيها اليد العليا للقديسين، أو القساوسة، أو الملوك المبجّلين، بل هي جنة يتساوى فيها الجميع في نعيم كالذي تشتهيه أنفسهم. لقد أعاد محمد من جديد تلك العقائد الجذابة إلى قلوب البشر، بعيدة عن الرمزية المبهمة والمحاريب الدامسة وأناشيد القساوسة.(٢٧)

إن الركن الأساس للعقيدة الإسلامية، كما يشدد عليه القرآن الكريم مراراً وتكراراً، هو رسالة التوحيد السمحة، وهي رسالة يرى المسلمون أن لها النداء الأعظم مقارنة بالمعارف جميعاً، وذلك لأن الخالق غرس معرفة وحدانيته وخصاله الفريدة في عقول الناس جميعاً وفي قلوبهم وأرواحهم.

---

٢٧. Wells, H. G. *The Outline of History.* 4th edition. Vol. 2, pp. 686-688.

وهكذا لا يمكن أن نتخيل شخصاً من شأنه أن يعترض على وحدانية الخالق أو على أسمائه الحسنى وصفاته العُلا حين يتعلمها.

وفيما يتعلق بوحدانية الله، فإن الإيديولوجية الإسلامية واضحة حول هذا الأمر، فالله واحد أحد، أزلي صمد، لم يلد ولم يولد، ولا شريك له في الألوهية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (القرآن الكريم ١١٢: ١-٤).

إن هذا الإيضاح المطلق لوحدانية الله التي لايمكن المساومة فيها إطلاقاً هي مايعترض عليه المسيحيون التثليثيون، وذلك لأن إيديولوجيا التثليث تنادي حقاً بوحدانية الله ولكنها تقول أيضاً بأن الله ثلاثة أقانيم في واحد. وحيث إننا تناولنا حجج عقيدة التثليث في الكتاب السابق "**من فقدوا الله**"، فبوسعنا اقتراح اختبار للفهم الفطري. وإذا ما افترضنا أن اعتناق فهم كامن يبعث على الطمأنينة في القناعات، فإنه من المؤكد جداً أن يكون النقيض صحيحاً أيضاً. فاعتناق تعاليم تتنافى والمعرفة المغروسة لابد أن يجلب للمرء القلق وعدم الطمأنينة، وهنا تأتي أهمية الاختبار. فالذين يعتمدون نهجاً دينياً يتوافق والفهم الفطري الذي منّ الله به على عباده (من مثل وحدانية الخالق) سوف يكونون في دَعة من أمرهم حين يشرحون قناعاتهم، وذلك لأن شرحهم لا يتماشى وصبغتهم الكامنة للفهم فحسب بل والفهم الفطري لجمهورهم أيضاً. وأما الذين يحاولون شرح أفكار تتناقض والمعرفة الفطرية فلسوف تبدو عليهم علائم الإحباط في ضعف

مناقشتهم، ولن يكونوا قادرين على فرض أفكارهم على جمهور يفوقهم معرفة وعلماً. إن اللجوء إلى دغدغة العواطف والتظاهر بالاستقامة والتكلف في السلوك والقول هي سمات الذين يخفقون في المناظرة العقلانية.

بعد أمور العقيدة يقدّم القرآن جملة من التعاليم المتعلقة بوقائع الحياة. فهناك تصحيح للسلوك مع التشديد على التواضع. كما يخاطب القرآن موضوعات مثل المال والوقت والقدرات مع التأكيد على الاعتدال في التطبيق سواء فيما يتعلق بالفرد أم بالأسرة أم بالمجتمع. فالبخل مذموم وكذلك الإسراف في غير موضعه.

وحتى الحرب نُظمت بقوانين وُضعت لتشجيع القتال الشريف، ولايمكن أن تصبح الحرب مشروعة في حال من الأحوال إلا بعد استنزاف الخيارات الأخرى كافة. وعندما تنشب الحرب، لا ينبغي للمسلمين أن يسيئوا استخدام مغنم غنموه، بل يجب أن يكونوا رحماء بأكبر قدر يسمح به الموقف.

إن الإنصاف والمساواة والرحمة والمودة هي موضوعات قرآنية متكررة تفضي أحياناً إلى نظام عدل منصف، ولكنه شديد على من يهدد سلام المجتمع المسلم. ليس هناك في تاريخ الإنسانية قوانين أنجع في تقييد شرور الجريمة والاغتصاب والسرقة وزنى المحصن، وزنى المحصنة واللواط والخمر والمخدرات من القانون الإسلامي. فالخداع والكذب والرشوة والربا والتمييز وجميع أنواع الظلم أمور مذمومة في الإسلام، وهذا مايفتح السبيل إلى إصلاح اجتماعي، وهو الذي إذا ما طبِّق، فمن المحتمل أن يوحد جميع

أصناف بني البشر تحت إله واحد.

وأما تعدد الزوجات – الذي لا يمارسه سوى قلة من المسلمين – فيفسح المجال الشرعي أمام من قد تدفعهم شهواتهم للفاحشة في حال غياب ذلك. ومن جهة أخرى فإن حقوق المرأة مصونة. فمنذ ألف وأربعمائة عام خلت أعطى الإسلام النساء حقوقهن في الملكية والميراث والدّين والتعليم، وهي حقوق حُرمت منها المرأة في المجتمع الغربي وديانتي العهد القديم والجديد منذ القدم حتى القرن العشرين.

وكما يركز القرآن الكريم على مزايا تحرير الرقيق، فإنه كذلك يحرر العقل .. مصححاً بذلك المعتقدات الخاطئة ومشجعاً على التفكير الحر. وأما الحقيقة الموضوعية فإنها تُقدَّم على الرأي الشخصي، والأعراف الاجتماعية وتقاليد الأسرة والتعاليم المؤسساتية المقننة ومؤثرات التمييز الخارجية كافة. والقرآن يحرِّم الإكراه في الدين في مطلق الأحوال. وفوق ذلك، فإن القرآن يحرض التفكير ويحض عليه، ولكنه في الوقت ذاته يهدّئ الروح. وباختصار، يمكن النظر إلى القرآن على أنه "العهد الأخير" الذي يمنح بني البشر ما يحتاجه بنو البشر هدياً متوازناً في جميع مناحي الحياة.

وينظر المسلمون إلى الوحي على أنه أمر لايمكن إنكاره، وهو مايخالفهم به غير المسلمين الذين يعدّون الوحي أمراً يمكن إنكاره إنكاراً شديداً، ويرون أن مقولة المسلمين بالنداء الفطري هي ادّعاء زائف. وبالمحصلة النهائية فإن غير المسلمين لايجدون في أمر الوحي مايثيرهم.

كيف يجيب المسلمون عن هذا اللغز؟ يعتقد المسلمون أن العقول غير المتحيزة لابد أن تستجيب لتعاليم القرآن الكريم. العقول المنفتحة كالحقل الخصب سوف تؤتي أفضل الزرع الذي خلقت من أجله. ولكن معظم العقول هي عقول متحيّزة. فما إن يأتي الوقت الذي يتعلم معظم الغربيون فيه شيئاً عن الإسلام تكون عقولهم قد ملئت حقداً عليه، وذلك عبر الدعاية المضادة في الأوساط الاجتماعية والدينية وعبر وسائل الإعلام. وبالنتيجة، تنغلق عقولهم وتصم آذانهم عن الإسلام.

وقياساً على هذا فإن نظرية الفوتون في الضوء photon theory والآثار الموشورية على الطيف المرئي قد لاتعني شيئاً عند من حرم نعمة البصر. وبالمثل، فإننا لانتوقع ممن أغلق قلبه وعقله عن الإسلام أن يقيم وزناً للأدلة الإسلامية. ولكن عدم قدرة الأعمى على رؤية الضوء لاينفي وجود الضوء، وكذلك فإن الإخفاق في إدراك أمر ما لاينفي واقع وجوده. فكل مافي الأمر هو أن هذا الواقع لن يُقنع أولئك الذين لايُلْقون له بالاً. فالذين يدرسون الرسالة ويجدون فيها مصدراً لقوتهم سوف يفهمون وجهة النظر الإسلامية، أما الذين يعرضون عنها فلن يملكوا سبيلاً لفهمها أبداً.

فالله ينبئنا بأنه لو شاء لجعل الناس أمة على قلب واحد: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (القرآن الكريم ١١: ١١٨). ولكن لأمر يعلمه الله ولانعلمه لم يشأ ذلك.

والمغزى الكامن وراء ذلك هو أن الله يهدي من يشاء ويضل من

يشاء، وهذا ما ينص عليه القرآن تماماً: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (القرآن الكريم ٢٧: ١٣).

أما حقيقة أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء فهي ليست أمراً اعتباطياً، بل نتاج عمل المرء الذي يتوقف على مدى استجابته للرسالة السماوية: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٦: ٤٨-٤٩)، ويقول تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (القرآن الكريم ٤: ٧٩).

بعبارة أخرى، فإن الله يهدي من يؤمن به ويتّبع هداه ويلتزم بأمره، ويعرض عمّن أعرض عن هديه. ومَثَل حقيقة أن الله يجتبي لهديه من يشاء كمثل المعلم الذي يشرح درساً فقط للطالب الذي لايتغيب عن فصله الدراسي، أو كمثل السائق الذي يحضر بسيارته إلى محطة الوقود كي يسأل عن وجهة ما، فهو وحده يُرشد إلى الطريق الصحيح دون سواه، أو كما نقل عن عيسى قوله: «اِسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ وَمَنْ يَقْرَعُ يُفْتَحُ لَهُ» (متى ٧: ٧-

٨). فمن لم يسأل ومن لم يَسْعَ، فماذا يمكن أن يتوقع من الناس؟ لاشك أنه سوف يترك في حالة من الجهل اختارها بنفسه.

وما هذا إلا حلقة وصل أخرى في سلسلة استمرارية الهدي بدءاً من العهدين القديم والجديد وانتهاء بالقرآن الكريم، ففي العهد القديم نقرأ: «لاَ يَعْرِفُونَ وَلاَ يَفْهَمُونَ لأَنَّهُ قَدْ طُمِسَتْ عُيُونُهُمْ عَنِ الإِبْصَارِ وَقُلُوبُهُمْ عَنِ \لتَّعَقُّلِ»(إشعياء ٤٤:١٨).

إن عبء الاختيار إذاً يقع على الفرد، فالذين يبحثون عن الهداية هم من يستجيبون لدعوة الصلاح، أما الذين يختارون الضلالة فسوف يحل عليهم سخط الله وليس لهم أن يلوموا أحداً إلا أنفسهم. وحيث إن الله يهدي من ينيبون إليه مخلصين مؤمنين فذلك مظهر من مظاهر رحمته، وحيث إن الله يضل من يكفر به فهو بيان لعدله.

ربما بدت وجهة النظر [الإسلامية] هذه اصطفائية نخبوية، ولكن هذا هو حال الأديان جميعاً. فعالم الدين مزيج غير متجانس من طوائف ينادي كل منها بمقولة أنها هي التي سوف تكون الطائفة الناجية بإذن الله وأن جميع الطوائف الأخرى سوف تلقى في النار. بل إن هناك العديد من الديانات ممن تصور نفسها بأنها هي الأقرب إلى الله، وتسوق أسباباً تسوغ مقولتها بأنها الوحيدة التي سوف تستحوز على الفوز بالجنة والنجاة من النار دون سواها. ولكن معظم هذه المناقشات غالباً ما تفتقر إلى التعليل المنطقي حول أسباب "نجاة" أتباع دين ما دون سواهم — وهي أسباب تروق للذين يتّبعون هذا الدين دون غيره — بل وتفتقر أيضاً إلى عدم

القدرة على تبيان أسباب لعنة الله للبقية الباقية من البشر ممن لايتبع هديهم. والفرق بين الدين الإسلامي وغيره من الديانات في هذا الشأن هو أن الإسلام يقدم تفسيراً ملموساً ومقبولاً لكلا طرفي السؤال. أما الديانات الأخرى فتخفق عموماً في تناول هذا الأمر، وتترك من هو غريب عنها يتساءل عن السبب في أن الله يهدي بعضهم دون سواهم. ولكن مفهوم أن هناك رباً اعتباطياً هو ببساطة مفهوم غير مقبول لدى عقول الغالبية من البشر.

ويقول المسلمون أن الذين يطلعون على جميع الأدلة التي يقدمها الإسلام لابد أن يروق لهم أحدها أو جميعها. وهذا ما يتفق وغرض الوحي، فالله يوفّر لكل نفس بعضاً من بين كل الأدلة كي يقتنع كل فرد بالأصل الرباني للوحي. إن الاعتراف بالوحي أمر يسير، وأما نكرانه فيتطلب العناد. ومن هنا فإن الجزاء نقيض العقاب.

# ٤: الدليل الثاني .. لغة القرآن

**كانت اللغة والمقدرة الكلامية من أولى النعم التي أنعم الله بها على بني البشر.**

نوح ويبستر Noah Webster

للقرآن الكريم صيغة كتابية واحدة، وهي التي نراها عليه اليوم، ولكن له عشر قراءات. وعلى الرغم من أن هذه القراءات مختلفة لكنها يكمل بعضها الآخر، ويمكن أن تقرأ أو تُتلى بسبع لهجات. وقد يتساءل المرء كيف يمكن ذلك. وتكمن الإجابة في دقة تفاصيل اللغة العربية التي تتمتع بمرونة غير عادية نظراً لأن نظامها الهجائي يخلو من حروف العلة(*). وتوضع حروف العلة القصيرة وهي الأكثر شيوعاً في اللغة العربية باستخدام علامات صوتية (علامات مميزة كالشرطات والدوائر) فوق الحروف الساكنة أو تحتها. وعليه، ينطق الحرف العربي المقابل لل "*b*" في الإنجليزية "*ba*" إذا ما وضعت شرطة فوق الحرف، و "*bi*" إذا كانت الشرطة تحت الحرف.

(*) هذا رأي سائد في أوساط علمية كثيرة في الغرب والواقع أن نظام الهجاء العربي لا يخلو من جميع حروف العلّة بل مما يسمى بالحركات (أي حروف العلة القصيرة) [المترجم].

ويمكن أيضاً الحصول على تراكيب أخرى مثل *"bu" , "baan" , been"* ، *"buun" , "baa" , "bii "buu" , "bai" , "bau"*، إلخ. وعندما تُكتب الكلمات بحركات التشكيل هذه نستطيع على الفور فهم لفظها ومعناها الصحيحين. أما عندما تكتب الكلمات بعيداً عن هذه الحركات يتوجب عندها الاعتماد على السياق لتحديد معنى كل كلمة، وذلك لأن التهجئة المتطابقة ذاتها قد تحمل معانيَ مختلفة، وذلك تبعاً للطريقة التي تحرك أو تُشكل بها هذه الكلمات شفوياً. فعلى سبيل المثال نقول: *"a speck of dust flew into my eye"* "دخل طيف من الغبار في عيني"، فكلمة "عين" في اللغة العربية يمكن لفظها بحيث تعني "جاسوساً spy"، أو "شخصاً هاماً an important person"، أو "موظف ذا مرتبة عالية a high-ranking official"، أو يمكن أن تعني "لا أحد nobody". وفي الحقيقة فإن هذه الكلمة المفردة قد توحي بأكثر من ثلاثين معنى مختلفاً بما في ذلك "عين الماء أو النبع"، أو "قيمة رأسمال capital asset"، ولكن السياق هو مايحدد المعنى المطلوب في مثل هذه الحالة. ونادراً ماتتطابق المعاني المتعددة، وأكثر منها ندرة أن جميع المعاني ضمن السياق الذي كتبت فيه كلمة ما. تخّيل جملة تحتوي على كلمة أو أكثر لها معان متعددة محتملة تفضي جميعاً إلى معان عدة. فهذه إذاً هي اللغة الغنية، وهي إحدى المعجزات التي يستشهد بها المسلمون فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وهذه هي الطريقة التي كُتب بها القرآن من البداية حتى النهاية.

وللبدء بفهم تعقيدات هذا الموضوع، يمكننا تقليب صفحات معجم

معتبر عربي-إنجليزى مثل معجم هانز فير Hans Wehr's **قاموس اللغة العربية المعاصرة** *A Dictionary of Modern Written Arabic*. فما سوف نجده هو أن الغالبية العظمى من الكلمات العربية لها ترجمات عدة. وإذا مابحثنا عن الكلمات ذاتها في واحد من أكثر كتب المعاجم شهرة وهو **معجم لِين عربي-إنجليزي** Lane's *Arabic-English Lexicon* نجد أن الشرح الإنجليزي للكلمة العربية الواحدة غالباً لايتجاوز المقطع فقط، بل الصفحات.

في ضوء مثل هذا التعقيد لاعجب أن نجد للقرآن عشر قراءات رسمية معروفة يمكن أن تتلى في سبع لهجات مختلفة. والمصحف الأصلي لايحتوي حركات التشكيل هذه مما سمح باختلاف اللفظ والمعنى وفقاً للقواعد التي يمكن فيها تعيين النقاط الصوتية في أماكن النص غير الصوتية، وبالتالي سر هذا الاختلاف المتكامل في اللهجات والقراءات. والمدهش حقاً هو أنه على الرغم من الاحتمالات اللغوية المتعددة، إلا أن التلاوات كافة هي تلاوات ذات معنى وكل تلاوة تكمل التلاوة الأخرى. وليس هناك من موضع تخالف فيه تلاوة جملة واحدة – إن لم نقل كلمة – تلاوة جملة أخرى. فمثلاً، لا تختلف الكلمتان العربيتان "مالك Owner" و "ملك king" سوى بحركة صوتية واحدة فقط، ومع ذلك فالكلمتان صفتان اعتباريتان من صفات الله. والنتيجة هي أن تلاوة القرآن، لمن منّ الله عليه بمعرفة شاملة بالعربية، لا تؤدي درساً واحداً، بل تستحضر رؤية منظورة من الصور والفهم الواسعين.

ينبغي على اليهود والنصارى الذين يجدون صعوبة في فهم نص سماوي غير مضبوط [بحركات صوتية] أن يدركوا الأرضية المشتركة بين الكتاب المقدس والقرآن في هذا المضمار، وذلك لأن مخطوطات العهد القديم الأساسية هي – كما كان القرآن – غير مضبوطة أصلاً. وكما جاء في **الموسوعة البريطانية** Encyclopedia Britannica:

> بما أن النصوص السماوية كانت تُسقط منها تقليدياً حروف العلّة لدى كتابتها، فقد أدخل المازورتيّون Masoretes[٢٨] (م.ت.) علامات حروف العلة لضمان النطق السليم. ومن بين أنظمة التشكيل المختلفة المبتدعة، كان ذلك الذي وُضع في مدينتي طبرية، والجليل والذي تم بالنتيجة اعتماده. وفضلاً عن ذلك، ففد أضيفت علامات للنّبر stress والوقف pause في النص لتسهيل قراءة الكتب السماوية في الكنيس لدى العامة".[٢٩]

وعلى نحو مماثل، فإن الأغلبية الساحقة من نسخ القرآن الحديثة دوِّنت وفق رواية حفص عن عاصم، وهي التي سرعان ما أصبحت القراءة الأكثر ذيوعاً بين المسلمين. وأحد أهم الفروق بين هذين المثالين هو أن

---

٢٨. نسّاخ اليهود من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الذين صمموا العلامات الصوتية (علامات مميزة كالشرطات والدوائر) فوق الحروف الساكنة أو تحتها التي وحّدت اللفظ، وتقسيم الآيات، وتدوين الأصوات في العهد القديم.

٢٩. *Encyclopedia Britannica.* CD-ROM.

من "بين أنظمة التشكيل المختلفة التي ابتدعت" لنصوص العهد القديم نجد أن النصوص المازورتية "هي التي سادت" (ولنقف عند كلمة "ابتدعت")، في حين أن رواية حفص عن عاصم للقرآن هي واحدة من القراءات المعترف بها للنص الأصلي من القرآن.

وكما ناقشنا في الكتاب السابق "**من فقدوا الله**"، لا أحد يعلم بوجود نسختي الوحي الأصلي اللتان أنزلتا على موسى أم على المسيح. ولكن كلتا النسختين، مثلهما مثل اللغة العربية، كُتبتا باللغات السامية (العبرية القديمة لـ توراة موسى، والآرامية – لغة المسيح الأصلية – لـ إنجيل عيسى). ومن هنا فلو توافرت نسخة من إنجيل عيسى الأصلي، لتوقعنا وجود نص غير مشكل، ولكن بسبب عدم توافر النسخ الأصلية للتوراة والإنجيل، فإن مترجمي العهدين القديم والجديد حاولوا التعويض عن هذا النقص.

وتنوّه توطئة النسخة المعتمدة المنقحة The Revised Standard Version فيما يتعلق بالعهد القديم بما يلي:

> إن علامات حروف العلة التي أضافها المازورتيّون مقبولة أيضاً في جملتها، ولكن من أجل تحقيق قراءة مشكّلة أكثر احتمالاً وإقناعاً فقد تم استخدام حروف علّة مختلفة".[٣٠]

ولكن ألا تبعث هذه الفكرة على الاطمئنان إذا ما أخذنا بالاعتبار أن

---

٣٠. The Bible, Revised Standard Version. 1977. N. Y.: American Bible Society. Preface, p.iv.

خلاصنا معلّق في الميزان؟

إن مساحة التلاعب النصي واضحة جلية، كما أن الفكرة تستخف بالخيال: فقبل أن يجعل المازورتيّون النص معيارياً، كان الكتاب المقدس العبري يفتقر إلى علامات الترقيم، وإلى حروف العلة، وكذلك الحروف [الاستهلالية] الكبيرة، وإلى المسافات بين الكلمات. وبوسع المرء، من باب الدعابة، أن يُجري كلمات كلّ جملة في كلّ لغة بعضها مع بعض، ويختزل الحروف الكبيرة إلى أخرى صغيرة، وأن يحذف علامات الترقيم و ينزع حروف العلة وعلامات التشكيل، ثم يرى بعد ذلك كيف كم يكون سهلاً إفساد هذا النموذج من الرسالة الأصلية.

فعلى سبيل المثال، تصبح العبارة "God is one" (الله أحد) في حال نزع حروف العلة منها "gdsn"، التي يمكن أن يتشكّل منها كلّ عبارة من العبارات التي يمكن أن يساء فهمها، فيمكن أن تكون "good son" (أي: ولد طيب)، أم "good sin" (أي: معصية جيدة)، أم "go do sin" (أي: امضِ لفعل المعصية)، أم "God's son" (أي: ابن الله، لأنه بموجب قواعد اللغات السامية، يمكن تضعيف الحروف الساكنة، مثل الـ "s" في هذه الحالة)، إلى العبارة الأصلية "God is one"، أم "Sun God" (أي: الله الشمس)، (في اللغات السامية الصفة تتبع الموصوف، وبالتالي "gdsn" يمكن أن تُشكَّل في "God–Sun" أي: شمس–الله وهي التي تقابل "God Sun" في الإنجليزية).

وبهذه الطريقة فإن "gdsn" غير المضبوطة بحركات يمكن ببساطة إساءة

فهمها أو التلاعب بها، وقد تنقل المرء من الهداية إلى الهرطقة، والذين يقرؤون الترجمة لن يملكوا الدليل لمعرفة موضع التلاعب أو الإفساد. وفي هذه الحالة يمكن لنا أن نتخيّل البساطة التي يمكن من خلالها للمرء (أو بالأحرى لمترجمي الكتاب المقدس) أن يسيئوا تفسير صفحات بأكملها من صفحات مخطوطات العهدين القديم والجديد وفقاً للأهواء أكثر مايكون فهماً للمعنى الأصلي، ومع ذلك لا يمكن أن يقع هذا الأمر في القرآن الكريم، والسبب يعود إلى أنه لم يسبق أن فقدت نسخ كتاب المسلمين المقدس في زمان من الأزمان قط: بل كانت النسخة الأصلية دوماً موجودة لتكون المصدر الأوّلي الذي يمكن من خلاله تحديد الأخطاء.

كما أن الترقيم حاسم أيضاً، وذلك وفقاً لما يقوله ف. ف. آربُثْنُت F.F.Arbuthnot، الذي يروي قصة ممتعة حدثت لأحد أعضاء مجلس العموم البريطاني حيث أرغم على التراجع عن نعت عضو زميل آخر بـ الكاذب. وقد صاغ العضو نص تراجعه على الشكل التالي:

"I said the gentleman lied, it is true, and I am sorry for it".

"قلت إن السيد كذّاب، وهذا صحيح، وأنا آسف لذلك".

إلا أنه في صبيحة اليوم التالي نشر الاعتذار في الصحيفة المحلية على الشكل التالي:

"I said the gentleman lied. It is true; and I am sorry for

it".

"قلت إن السيد كذّاب. هذا صحيح؛ وأنا آسف لذلك".[٣١]

إن وقوع خطأ في علامة ترقيم واحدة فقط يمكن أن يؤدّي معنى معكوساً في مثل هذه الظروف(*).

إذاً يحق لنا أن نسأل: من الذي قرر ما عُدَّ "القراءة الأرجح والأكثر إقناعاً" لنص مقدس عبري غير مضبوط بالحركات، وغير مرقّم، وخالٍ من الحروف الكبيرة؟ وهل كان ذلك القرار مبنياً على التحيز العقدي أم على البحث الموضوعي؟ وإذا كان نظام حروف العلة الذي أدخله المازورتيّون موثوقاً تماماً بحيث اعتُمد على أنه الدليل على النص المقدس لدين بأكمله، فلماذا استدعى الأمر تغيير المعنى في بعض المواضع للحصول على "قراءة أرجح وأكثر إقناعاً ؟" وأخيراً، لماذا تم حصر وعي الجمهور لهذه الجدليات بتوطئة نادرة القراءة بدلاً من وضع ملاحظات لها حيثما وردت في النص؟

إن الإجابة عن هذا السؤال الأخير أمر سهل، وهي أن هذه الجدليات كثيرة ومتعددة. فقد صيغت كتب بأكملها فيما يختص بهذه النزاعات، ولو تمت إضافة هذه المناقشات في نص الكتاب المقدس اليهودي لصار الكتاب ضعفي حجمه اليوم. كما أن ذلك يؤدي إلى إحباط عزيمة

---

٣١. Arbuthnot, F. F .p.10

(*) في الجملة الأولى يعترف عضو المجلس بخطئة إذ يقر بأنه ادّعاه كاذباً ويعرب عن أسفه لذلك. أما في الحالة الثانية فإنه يكرّس كذب العضو، ويأسف لكذبه. [المترجم].

القارئ. حتى الإيمان الأعمى له مشكلاته في التغاضي عن المجادلات إذا بلغت حداً بعيداً.

وتثير الظروف حقيقة بعض القلق لدى أولئك الذين يدركون احتمالية وقوع تكييف في الترجمة لتتواءم وبعض الميول العقدية. ونواصل قراءة التوطئة في النسخة المعتمدة المنقحة للكتاب المقدس فنقرأ:

> واضح أحياناً أن النص قد طرأ عليه بعض التغيير في أثناء النقل، إلا أن واحدة من النسخ لا تتطابق والنص الأصلي تطابقاً مرضياً. ولا يسعنا في هذا المقام إلا اتباع حكمة أكثر العلماء كفاءة فيما يختص بإعادة بناء النص بحيث يبدو الأكثر احتمالاً أنه النص الأصلي.[٣٢]

إن حقيقة اعتراف الكتاب المقدس الأكثر قبولاً على الصعيد العالمي بوقوع "خلل في النقل" لايتضمن بالضرورة وجود خلل في الدرس العلمي الحديث، بل إن ذلك يتضمن حقيقة وجود خلل في الأساسات.

وهكذا دوِّن كل من الكتاب المقدس والقرآن في نصين غير مشكولين بالحركات، لكنهما يختلفان اختلافاً كبيراً في المصداقية. فالقرآن أُنزل وحياً وحافظ المسلمون عليه نصاً شفوياً إلى يومنا هذا، وعليه فإن نطقه ومعناه لم يكونا موضع شك قط. كما أن جميع قراءات القرآن على اختلافها

٣٢. The Bible, Revised Standard Version. 1977. N. Y.: American Bible Society. Preface, pp.iv-v.

يكمل بعضها الآخر، وهذا بخلاف الكتاب المقدس، حيث تتطلب "أرجح قراءاته وأكثرها إقناعاً" تعريفاً طالما أن احتمالاته الشفوية المختلفة تتفاوت في معناها تفاوتاً كبيراً. وقد حوفظ على القرآن دون تغيير إلى يومنا هذا، أما العهد القديم – وفق ماورد في التوطئة سالفة الذكر– "فلدينا عدد كبير من المخطوطات اليونانية التي تحافظ على صيغ عدة للنص ولكنها متباينة"[٣٣]، فليس من بينها مخطوط واحد ذو موثوقية عالمية.

إن السياق الذي أوحيت فيه المعجزة الأدبية للقرآن مهمة في هذا المضمار، لأنه يبدو أن كل نبي قد أعطي آيات تتحدى القوم الذين أرسل إليهم. فالمهارة التي كان يجلّها المصريون القدامى هي السحر، أما تلك التي كان يجلها اليهود فكانت التطبيب. ولا غرو، إذن، أن موسى أوتي معجزات شدهت سحرة فرعون فآمنوا بالله. وبالمقابل، يجب ألاّ نعجب أن أوتي عيسى معجزة الإبراء.

ونسأل: ما أبرع المهارات وأكثر الفنون احتراماً لدى العرب قديماً؟ الجواب هو الشعر والبلاغة في القول. وينبع تعقيد اللغة العربية من وفرة اللهجات التي "... تبلغ فيها أسماء العسل الثمانين، وأسماء الأفعى المائتين، وأسماء الأسد الخمسمائة، وأسماء السيف الألف، في وقت أوكل فيه هذا

---

٣٣. المرجع السابق، المقدمة، ص iv

المعجم الثري لذاكرة قوم أُميين". [٣٤].

وكان العرب مولعين بأثر الكلمة المنطوقة، حتى إنهم كانوا يعقدون مهرجانات سنوية، كانت توصف بالتالي:

كانوا يمضون ثلاثين يوماً لا لتبادل الطعام والشراب فحسب، بل للفصاحة والشعر أيضاً. وكان يتنازع الجائزة التباري الكريم لشعراء الملاحم، وكانت القصائد الفائزة تودع أرشيفات الزعماء والأمراء، وبوسعنا أن نقرأ بلغتنا [الإنجليزية] المعلقات السبع الأصلية التي نقشت بحروف من ذهب وعلقت على جدران الكعبة"[٣٥].

ويعلق ر. بوزورث سمث R. Bosworth Smith قائلاً:

إن ما قدمته الألعاب الأولمبية لليونان من محافظة على الشعور القومي، على أنه شعور مميز عن شعور الاستقلال القبلي، وفي إسهامها في حقن الدماء ولو لفترة وجيزة، وفي دورها كمركز أدبي، هو ما قدمته الأسواق السنوية التي كانت تقام في أسواق عكاظ في الجزيرة العربية. ففيها كانت تسوّي القبائل نزاعاتها، وتتبادل أسرى حروبها، وأهم من ذلك كله، أنها كانت

---

[٣٤]. Gibbon,Edward, Esq. 1854. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*. London: Henry G. Bohn. Vol. 5, Chapter L, p. 452.

[٣٥]. المرجع السابق Chapter L, p. 452

تتنافس فيما بينهما بمسابقات شعرية مرتجلة. وحتى في "عصور الجاهلية" كان لكل قبيلة شاعرها الخاص، وكان أفحل الشعراء يرى قصيدته وقد دوِّنت بحروف من ذهب أو علّقت على جدار الكعبة عند مدخلها، بحيث كان بوسع كل حاج يزور أقدس تلك البقاع أن يراها".[٣٦]

باختصار، كان العرب يحبون شعرهم.

ويكتمل الاتساق حتى النهاية، لأنه كما دحضت معجزات موسى السحر الذي جاء به سحرة فرعون، وكما قزّمت معجزات المسيح على البرء أطباء زمانه، كذلك جاء محمد بوحي نُظم بأجمل عبارات اللغة العربية التي عرفها الإنسان. فنصّ واحد من القرآن الكريم يمكن له أن يُذْرِف دمع أبناء البادية ممن ألف قساوة العيش، ويمكن لنص آخر أن يحلّق بأرواح المؤمنين إلى قمم النشوة. يقول مايْكِنَر James A. Michener في مقالته الموسومة "الإسلام: دين أُسِيء فهمه":

> لعل القرآن هو أكثر الكتب قراءة في العالم، فهو بالتأكيد أكثرها استظهاراً، وربما كان أكثرها تأثيراً في الحياة اليومية للقوم الذين آمنوا به. وهو ليس بحجم العهد الجديد، وقد كتب بأسلوب رفيع، فهو ليس بالشعر ولا بالنثر العام، لكن لديه

٣٦. Smith, R. Bosworth, M. A. 1986. *Mohammad and Mohammadanism* London: Darf Publisher Ltd. p.46-65

القدرة على إثارة مستمعيه حتى يرتقي بهم إلى نشوة الإيمان.[٣٧]

إن جمال الإعجاز القرآني مؤثر للغاية لدرجة أنه انبثق عنه فيض من الشهادات، وأكثر هذه الشهادات إقناعاً السجل التاريخي لأعداء محمد، ومن بينهم العديد ممن كان يشدّهم جمال القرآن لدرجة أنهم كانوا يتسللون في بهيمة ليل الصحراء الدامس لاستراق السمع لتلاوات القرآن الليلية. وفي إحدى تلك المناسبات، ارتطم عدد من هؤلاء الرجال بعضهم ببعض في الظلام في طريق عودتهم إلى منازلهم إثر التلاوة. وحيث إن أبا سفيان وأبا جهل صنفا نفسيهما بأنهما زعيما أعداء محمد فقد أقسما ألاّ يعودا لفعل ذلك البتة، ولكنهما وفي الليلة التالية ارتطم كل منهما بالآخر في طريقهما لسماع القرآن من جديد. وفي هذه المرة تعاهدا ألاّ يعودا لمثل تلك الفعلة، بعد أن أشهد كل منهما صنمه على ذلك. ولكن سرعان ماعادا لتلك الفعلة من جديد ليرتطم أحدهما بالآخر وللمرة الثالثة تحت جنح الظلام.[٣٨] و يعدّ المسلمون هذه القصّة دليلاً على جمال القرآن الذي لا يقاوم .. جمال مؤثر لدرجة استحوذ فيها على أسماع المنتقصين المتشددين، ألدّ أعداء الإسلام وعلى خيالهم.

وكثيراً ما يشار إلى اعتناق عمر للإسلام، وكان واحداً من أعظم

---

٣٧. Michener, James A. May, 1955. "Islam: The Misunderstood Religion," in *Reader's Digest* (American Edn.).p.70.

٣٨. Muhammad Ibn Ishaq Ibn Yassar. 1963. *Seerat An-Nabi* Maydan AlAzhar (Cairo): Muhammad Ali Sabi'eh&Children. Vol. 1. P. 207.

المحاربين في زمانه، في لحظة تحوله إلى الإسلام، كان واحداً من ألدّ أعدائه وكان شخصية مرهوبة الجانب. ولدى توجهه بنيّة قتل محمد، عرّج على بيت أخته [كي يبدأ بها]، ولكنه سرعان مادخل في دين الله بعد سماعه لتلاوة سورة واحدة من القرآن قبل غيرها.

ونقع على حالات نموذجية مثل أُنيْس الغفاري، والكندي، اللّذين أصبحا من فحول الشعراء المسلمين في عهد محمد. فقد علّق أُنيس الغفاري على أول لقاء له بمحمد بالقول: "لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر؛ كاهن؛ ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم. ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر. والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون".[٣٩] وعندما طُلب إلى الكندي أن يأتي بقول يضاهي ذلك الذي في القرآن، أفاد بالقول أن ذلك أمر يقصر دونه، ثم قال: إنه يحتاج لتأليف كتب كي ينقل معنى بضعة سطور من القرآن. ويرى المسلمون أن عجزه عن مضاهاة جمال القرآن وفحواه هو شهادة على الطبيعة الربانية للتحدي الإلهي لبني البشر... ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (القرآن الكريم ٢: ٢٣). ونذكّر القارئ بأن استخدام ضميري الجمع في

[٣٩]. رواه مسلم

الآية أعلاه يعود إلى "جمع الجلالة" [الجمع الملكي] (كما ناقشنا في الكتاب السابق **من فقدوا الله"**) لا إلى جمع العدد. وبعد تقرير ما تقدم، نجد أنه من المفيد وضعه تحت المجهر.

ورد أن الله تحدى بني البشر بأن يحاولوا أن يأتوا بمثل القرآن ليس بأقل من خمس مرات. التحدي الأول (وفقاً لترتيب نزول الوحي، لا وفق ترتيب السور) كان التحدّي هو الإتيان بكتاب كامل كالقرآن (القرآن الكريم ١٧: ٨٨، و ٥٢: ٣٣-٣٤). وعندما عجز فحول الشعراء في العربية عن الإتيان بمثل ذلك، تحدّاهم الله مرة أخرى بأن يأتوا بعشر سورٍ من مثل القرآن (القرآن الكريم ١١: ١٣). وعندما نكّست الأمة العربية رأسها في إذلال أدبي كبير، خفض الله مستوى التحدي إلى الإتيان بسورة واحدة من مثل سور القرآن (القرآن الكريم ١٠: ٣٨، متبوعاً بـ ٢: ٢٣). وعلى مدار ألف وأربعمائة عام مضت جاهد أبناء اللغة العربية من يهود، ونصارى، ووثنيين، وملحدين لتفنيد القرآن وذلك لدوافع دينية، وسياسية، وشخصية، علماً أن العربية هي اللغة الأم لهؤلاء جميعاً.

هناك على ما يبدو شيء خارق بشأن هذا المشهد، لأن أقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر، رقم ١٠٨، وهي سورة فائقة المعنى لا يكاد يتجاوز عدد أسطرها سطر واحد ومجموع كلماتها العشر. إذاً لماذا عجز بنو البشر عن "الإتيان بمثل القرآن أو بأفضل منه على مدى ١٤٠٠ عام مضت؟ ولماذا عجز بنو البشر عن الإتيان "بسورَةٍ مِنْ مِثْلِه"؟

يجيب المسلمون عن هذا السؤال بالإشارة إلى أن المعايير الإنسانية

يسهل تجاوزها. فمن الشائع تجاوز الحواجز المستحيلة، وتحطيم الأرقام القياسية، وإحراز نجاح لم يكن ليخطر على بال أحد سابقاً. فقطع مسافة الميل خلال أربع دقائق قد تم فعلاً، كما تم الوصول إلى تجاوز سرعة الصوت. واستطاع الإنسان الوصول إلى سطح القمر، ويتمكن من شطر الذرّة، وتجميد الإلكترونات. ولكن لماذا لم يستطع أحد من البشر أن يكتب شيئاً يشبه القرآن بعد ١٤٠٠ عامٍ؟ لا مراء أن ذلك لا يعود لعدم توافر الوقت للتفكير بمثل ذلك.

أقرَّ الوليد بن المغيرة، وهو أحد الصناديد الذى عادى الإسلام طوال حياته، وكان شاعراً لامعاً، بما يلي: "والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى".[٤٠] فعندما يعترف أفضل الشعراء وألدّ الأعداء بتفوق الوحي فإن مثل هذه الآراء يجب أن تُحترم.

وفي الوقت الذي يصرّ فيه بعض الأعداء على أن محمداً لم يكن أكثر من شاعر فذّ، يشير المسلمون إلى أن إحدى السمات المميزة لكبار الفنانين أنه عندما يفرغون من أعمالهم، فإنهم دائماً ما يتذمرون بعدم رضاهم عن تلك الأعمال جراء اكتشافهم لمثلبة ما فيها. فهل يتوقع إنسان من الموسيقار بيتهوفن Beethoven الذي أكبّ على إنتاج روائعه

٤٠. *Manaahil Al-Irfaan fi Uluum Al-Qur'an* (Wells of the science of the Qur'an). 1988. Muhammad Abdul-At-Theem Az-Zarqaani, Dar Al-Kutub Al-llmee'a. Vol. 1. P.216.

الموسيقية بجهد عظيم كما هو مثبت أن يتحدى العالم بأن يأتي بقطعة موسيقية أفضل من موسيقاه؟ أو من مايكل أنجلو Michael Angelo – الذي حطم منحوتات تماثيله إرباً إرباً لأنه شعر بأنها لم تكن بالمستوى المطلوب – أن يتحدى العالم بأن يأتي بتمثال أفضل من تماثيله؟ إن مثل هذا التحدي الصارخ لا يمكن أن يصدر بمثل هذه الثقة إلا عن الواحد الأحد، الذي يأمر الخلق، ولا يأذن لأحد أبداً أن يجابه مثل هذا التحدي. وهكذا، وبعد مضي ألف وأربعمائة عام، كما لاحظ العديد من المؤلفين، يظل هذا التحدي قائماً. يقول البروفسور أ. ج. آربري A. J. Arberry: "لا أحد ينكر أن القرآن يحفل بأسلوب رائع، وله ميزاته الفردية الفريدة، فلغته فائقة الاصطلاحية، ولكنها في معظمها لغة سهلة ممتنعة، والأنغام والإيقاعات سمات لا تنفصم عن فصاحته المؤثرة، وهذه في الواقع، لا تضاهى". [٤١]

وبدورها تدلي الدكتورة لورا فاغليري Laura Vaglieri بدلوها قائلة:

إن معجزة الإسلام دون منازع هي القرآن الذي ينقل لنا بشكل ثابت ودونما انقطاع أخباراً يقينية مطلقة. وهذا الكتاب لا يمكن أن يُضاهى. فكل تعبير من تعبيراته شامل، ومع ذلك فحجمه مناسب، فهو لا بالطويل ولا بالقصير. كما أن أسلوبه أصلي. وليس هناك نظير لهذا الأسلوب في الأدب العربي في

---

٤١. Arberry, A. J. 1953. *The Holy Koran – An Introduction with Selections*. London: George Allen & Unurin Ltd. P28.

العصور السابقة له. والأثر الذي يحدثه في الروح الإنسانية يقع دون مساعدة عارضة بوساطة روعته الكامنة. ولآياته الفصاحة ذاتها في النص بكامله، وخاصة عندما تتناول موضوعات كالأوامر والنواهي التي لابد أن تؤثر في نغمته. فقصص الأنبياء، وأوصاف بداية العالم ونهايته، وإحصاء أسماء الله الحسنى وعرضها تتكرر ولكنها تتكرر بطريقة مؤثرة لكنها لا تضعف تأثيره. وينتقل النص من موضوع لآخر دون فقدان قوته. فالعمق والطلاوة، وهما صفتان غير متلازمتين عموماً، تتوافران هنا معاً، وكل صورة بلاغية تجد تطبيقاً كاملاً ... ونجد هناك مخازن شاسعة من المعرفة فوق طاقة أذكى البشر، وأعظم الفلاسفة وأقدر السياسيين.[٤٢]

ويلخص أ. غيلوم A. Guillaume الأمر على النحو التالي:

إن القرآن هو إحدى النصوص العالمية التي لا يمكن ترجمتها دون الإخلال بها. فللقرآن الكريم إيقاع متميز ونغمة تسحر الأسماع. فالكثير من العرب المسيحيين يتحدثون عن أسلوبه بإعجاب شديد ... ومعظم المختصين في العربية من غير أبنائها يعترفون بروعته ... وربما أكدنا أنه لا يوجد مثيل له في الأدب

---

٤٢. Vagliri, De Laura Veccia. pp.40-41

العربي، الواسع والخصب في كل من شعره ونثره الراقي". (٤٣)

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة عن لغة القرآن هي أن محمداً تلقى أول ماتلقى الوحي في سن الأربعين. وكان الناس يعرفون شخصيته، ومشيته، وطريقة حديثه، وسلوكه، وأخلاقه. وكانوا يعرفون حقاً كلامه. ومن الملاحظ عموماً أن العادات والسمات الشخصية لا تتغيران تغيراً ملحوظاً عقب سن الثلاثين. فيقول مثل صيني قديم، وهو مثل صحيح: "الإنسان كالحرير، يتعذر تغيير لونه بعد جفاف الأصباغ" [أي الطبع يغلب التطبع].

ومع بلوغ سن الأربعين تستقر شخصية معظم البشر في سمات راسخة صلدة. فمحمد لم يثبت وحسب أنه ليس بمؤلِّف للقرآن، وهو ما تشير إليه الآية التالية: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢٩: ٤٨)، بل إن مستوى لغة محمد كان يتميّز بأنه دون مستوى لغة القرآن. كما أن محمداً كان حريصاً كل الحرص لدى تدوين كلمات الوحي. ففي البداية منع صحابته من تدوين أحاديثه منعاً قاطعاً، وأمرهم بالقول: "لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه". (٤٤)

ولاحقاً عندما سمح محمد بتدوين الحديث، لم تختلط كلماته بكلمات

---

٤٣. Guillaume, Alfred. PP. 73-74

٤٤. رواه مسلم

الوحي قط، وليس هناك شك في حقيقة أن كلام محمد لم يقترب قط من فصاحة القرآن السماوية. وإلى اليوم بوسع كلّ منّا أن يتحقق هذا الفرق اللغوي بمقارنة كلّ كتاب من كتب الحديث بالقرآن الكريم. فأحاديث محمد دُونت في عشرات من مجلدات الحديث محافظة على لغة محمد في مصادر عدة تبصّر القارئ تبصيراً كبيراً بشخصية محمد وقدراته الأدبية. إلا أن النغم والإيقاع، وجوهر الرسالة التي تحرّك العواطف، والجمال الفريد للقرآن لا يمكن أن يوجد في شيء من كلام محمد. وكما تساءلت الدكتورة لورا فاغليري:

أنّى لهذا الكتاب العجيب أن يكون من وضع محمد، العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته سوى بيتين أو ثلاثة من الشعر، لا يوحي شيء منها بأدنى جودة شعرية، مثل:

"أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب".[٤٥]

ويستطرد البروفسور أ. ج. آربِري بالقول كما يلي:

نعرف حق المعرفة كيف كان محمد يتحدث في حياته اليومية العادية، فكلامه العادي محفوظ بوفرة. وعليه فإن من غير الصحيح القول، كما قال مارغليوث Margoliouth: "يصعب أن نجد حالة أخرى فيها تطابق تام بين العمل الأدبي وعقلية الرجل التي تمخضت عنه". وبقبولنا، ولدينا سبب وجيه لفعل

---

٤٥. Vagliri, De Laura Veccia. PP.40-41

ذلك، بأن أحاديث محمد المدوّنة في كتب الحديث أصلية، ولو افترضنا، كما فعل مارغليوث، بأن القرآن كان من بنات أفكار محمد، فمن المعقول القول بأنه يصعب أن نجد حالة أخرى يختلف فيها التعبير الأدبي لإنسان ما اختلافاً جذرياً عن كلامه العادي.[٤٦]

مانريد قوله هو أن الفرق بين لغة محمد ولغة القرآن يمكن تمييزه على الفور، إلا أن مشوهي الإسلام أطلقوا العنان لخيالهم لإنكار حقيقة أن القرآن وحي موحى. فالكثير من غير المسلمين، مثل مارغليوث المشار إليه أعلاه وهو واحد من مستشرقي جامعة أوكسفورد الذين قد ذهبوا بعيداً بحيث سمحوا لتحيزهم الديني أن يطغى على تصورهم العلمي، وهم بذلك يعبرون بنوايا مبيَّتة عن إنكارهم لما هو — في نظر من هم أقل تحيّزاً — الحقيقة بعينها. أما علماء العربية من غير المسلمين (من مثل أ. ج. آربِري الذي ذكرناه للتو)[٤٧] (م.ت.) سرعان مايقدّر البون الشاسع بين كلام محمد ومعجزات القرآن الأدبية. وبالنتيجة فإن هذا الفرق بين كلام محمد والمعجزة الأدبية للقرآن يقتضي الشرح. فإن لم يكن القرآن من بنات أفكار محمد، فما مصدره إذاً؟

---

٤٦ Arberry, A.J. The Holy Koran – An Introduction with Selections. pp. 31-32

٤٧. في الصفحة ذاتها من الاقتباس السابق (أي الصفحة ٣١)، كتب البروفيسور آربيري "أما بالنسبة للمؤمنين، فلن أخفي عنهم مالايمكن لهم أن يتخيلوه في يوم من الأيام، وهو أنني لست مسلماً ولايمكن أن أكون كذلك في يوم من الأيام".

لقد ذهب بعض الباحثين – في محاولتهم لتقديم شرح دون إعطاء القرآن ميزة الوحي – للقول بأن محمداً لابد أنه كان لديه معلمٌ علّمه تأليف القرآن، ويفترضون بذلك أن هذا هو سر الفرق. وربما كان الأمر كذلك. ولكن معاصري محمد أشاروا إلى أن صيغة القرآن كانت، وتبقى حتى يومنا هذا، غريبة كل الغرابة عن كلّ صيغة لغوية للشعر العربي.[٤٨] وفضلاً عن ذلك، فلو حدث أن كان لمحمد ذلك المعلم الحاذق، فمن يكون هذا المعلم أو المعلمة، وماذا عن مؤلفاته الأخرى؟ أين أعماله اللامعة الأخرى التي لاتقل روعة عن مثل هذا المؤلف أي القرآن؟ إن الحس العام يخبرنا بأن كلّ أمة تجل أدبها كما يجله العرب لابد أنها كانت حافظت على مثل هذا الإرث التي صدر عن ذلك المعلم المزعوم. ومع ذلك فمن المعروف أن مثل ذلك لم يوجد قط.

ولأجل توسيع المناقشة، نقول بأن القرآن الكريم خرق العديد من القواعد الأدبية التي كانت سائدة إن لم يكن معظمها أو كلها أيضاً. فمن جانب، كان الشعر يدور في غالب معظم أغراضه حول موضوعات ذات اهتمام عام – كالخمرة والنساء والغناء، وكان بعض الفحول منهم يخوض في بعض الموضوعات الخفية التي كانت تهمهم. وكان الشعر العربي في عصر محمد، كنظيره الغربي، يرفل في ملذات الجسد الرومانسية والشهوانية. إلا أن موضوعات كالتفوق القبلي، وفضائل الناس والحيوانات كريمي النسب والخصال الحميدة، ومساجلات القوة والحصافة، والأبطال والتاريخ

---

٤٨. Said Qutub, Fi Thilal Al-Qur'an

المحليَيْن كانت موضوعات مجّدها الشعر أيضاَ. وكما يمكن أن نتخيل، فإن الكثير من هذا الشعر كان يغالي في تمجيد الفضائل الشخصية ومناقب القبيلة والعشيرة وأبناء العمومة، على أنها سجايا تخص هذه القبيلة دون غيرها.[٤٩] (م.ت.)

لقد كسر القرآن هذا القالب، إذ حضّ على تجنب المبالغة، وعلى حصر الوصف في حدود ماهو واقعي، والانتقال بالموضوعات إلى مجالات القانون والتشريع، والأخلاق والقيم، والمسؤوليات الاجتماعية والمدنية، والمعتقدات والشعائر الدينية. إن الجمع بين موضوعات تبدو في ظاهرها جافة، والقيود الخالية من الوصف المنمّق يخفق في تلبية ما يفضي إلى مايعدّه الناس بالمكونات الأساسية لرائعة أدبية. ومع ذلك فإن الشعراء العرب وعلى مدار أربعة عشر قرناً دأبوا على وصف القرآن بأنه أبلغ تعبير للغة العربية وأشدها إثارة مما لم يشهد له العالم مثيلاً من قبل.

من الصعب تصديق ذلك. ولكن أليس هذا هو سر المعجزة؟ أليس هو بالواقع الخارق للطبيعة الذي يتحدى التوقعات المعقولة؟

وعلى الرغم من وجود تكرار في القرآن، لكنه ليس رتيباً. وعلى الرغم

---

٤٩. كان العرب يعتقدون أن للشعر من القوة والتأثير ماتسبب بإشعال حروب قامت على أساسه وانقضت بسببه. وفي هذه الحالات كم اتسعت دائرة الحروب الأدبية لتنتقل من حد الكلام إلى حد السيف. إن مثل هذه الضغائن الشعرية غالباً ماكان تنتهي على نحو نموذجي، كما بدأت، وهو تدخل شاعر حكيم ينظم للناس شعراً تلين له القلوب مذكراً إياهم بثكلاهم، وبالمستقبل القاتم الذي سوف يحل بهم إن هم استمروا بالحرب، وعن فضائل الصلح وحل الخلافات.

من نقله عبر أداة بشرية (محمد)، لكنه لا ينمّ عن تقلبات في المزاج والنبرة التي يتّصف الشعراء بها. وعلى الرغم من أنه أنزل على فترة ثلاثة وعشرين عاماً، لكنه لا يعكس تبدلاً في الأسلوب أو تطوراً في الآلية التي يتميّز بها كلّ عمل آخر كتب عبر مثل تلك المسافة من الزمن. وخروجاً على مألوف التغيرية البشرية وتحدياً لها، فإن القرآن ظل متسقاً في تعبيره، متفوقاً في فصاحته، من موضوع لآخر ومن البداية حتى النهاية.

كما أن من بين الفضائل العديدة التي تضاف إلى جمال القرآن الكريم المنقطع النظير أنه لم يُنزَّل وفقاً لتسلسل زمني، فمع تنزّل الآيات كان محمد يُؤمر بأن يضع كل آية في موضع ما ضمن إطار ماقد تم تنزيله حتى اللحظة. وغالباً ما كانت الآيات الجديدة توضع بين آيتين منزلتين سابقتين في موضعها الذي أقرّته السماء من النص الموحى به في اللوح المحفوظ.

وفي التوطئة التي كتبها البروفسور آربري لترجمة معاني القرآن الكريم، علّق على هذه العملية بالتالي:

> ... لقد تتبّعت الترتيب التقليدي بحثاً عما يدور حوله من أحاديث. فالسور نفسها ذات صبغة مركبة في الكثير من الحالات – وهو ما أدركه العلماء المسلمون منذ العصور الأولى – ويتخللها آيات أنزلت على محمد في فترات متباعدة...[٥٠].

---

٥٠. Arberry, A.J. *The Holy Koran – An Introduction with Selections.* p.25

ومرة أخرى، يشير المسلمون إلى أن منهجية القرآن ببساطة لا تتسق والمنهجية البشرية. فالناس يقصّون القصص ويروون الروايات التاريخية، ويحاولون ربط بعضها بالآخر. وسواء تفحصنا كتاباً في التاريخ أم الكتاب المقدس فإن النمط هو ذاته ... فهي سلسلة من القصص حيكت من البداية إلى النهاية في محاولة لتحقيق درجة من الاستمرارية. أما بناء القرآن بالتدريج وعبر فترة زمنية كما وقع حقاً فهو أمر يتجاوز مقدرة الإنسان ومنهجيته. وفضلاً عن ذلك، فلو أن محمداً كان ادعى الوحي، لما كان عليه أن يلجأ للتحريف الأدبي، فقد أثبت التاريخ وجود أكثر من مسيح دجال ممن أضل أمته بأقل من ذلك بكثير، ولحسن الحظ ولغاية ما فإننا نجد أن من هو مسيح دجّال يكون كسولاً. فلا يمكننا تصوّر مسيح دجّال ممن عمل بجد وتؤده.

ولكي نكون منصفين، فإن على من يعتقد أن بمقدوره الإتيان بثلاث آيات تضاهي آيات القرآن، فإن عليه أن يعيد ترتيبها ترتيباً عكسياً: عليه أولاً أن يبتدئ بكتابة السطر الأخير (دون تصور مسبق للسطرين الأولين)، ثم السطر الأول، ومن ثم السطر الثاني، أو أن يفعل شيئاً من هذا القبيل. ويتوجب عليه فعل ذلك على نحو بحيث تستطيع كل مرحلة من المراحل الثلاث أن تقف بمفردها من حيث المبنى والمعنى، وأن تحمل رسالة ذكية، وأن تحقق بلاغة أدبية لايمكن أن يضاهيها أحد. إضافة إلى ذلك، فإن تعاليم هذه الآيات يجب أن تنبئ بأمر قادم، أو أن تتناول شأناً راهناً، أو أن تعلّم حقيقة علمية لن يدرك معناها قبل ألف وأربعمائة عام

قادمة. ويتطلب الأمر كذلك عشر قراءات مختلفة بسبع لهجات متباينة في كل مرحلة من مراحل بناء النص. وكل واحدة منها متكاملة دلالياً، وكل واحدة تجسّد الخصائص المذكورة آنفاً. وإذا ما بدا هذا الأمر ضرباً من المحال، فإن القول الإسلامي يقول بذلك من منظور بشري ,أليس كذلك!!

ولكن القرآن دُوّن تماماً على هذا النحو عبر ثلاثة وعشرين عاماً، حيث كان الوحي ينقل عبر شفاه رجل أمي، ألا وهو محمد. فإذا كان بناء نص مثل سورة الكوثر على هذا النحو مستحيلاً، فكيف يمكن لمحمد أن يكتب كتاباً على هذا النحو من الدقة وهو رجل لايقرأ ولايكتب أصلاً؟ وإذا كان يفتقر إلى كتاب مرجعي يمكنه الاعتماد عليه، فأنّى له أن يملأ فراغات مثل هذا المشروع على مدار عقدين من السنين؟ فكل مرحلة من مراحل هذا العمل تحمل رسالة يمكن فهمها .. رسالة ذات واقعية وجمال لم يستطع أحد من البشر أن يجود بشيء يدانيها ولو كان ذلك ثلاث آيات وحسب. ليس هناك في القرآن أخطاء أو تناقضات أو انقطاع في انسيابيته. فهل يمكن لنا أن نتخيل أحداً من بني البشر ينجز كل ماسبق في كل مرحلة من مراحل الوحي التي تعد بالمئات (إن لم يكن الألوف)؟ فمعظم البشر لا يستطيعون تركيب مشروع من المشاريع التي يمكن للإنسان القيام بها بنفسه، دون أن يرتكب الأخطاء في كلّ قطعة يضعها أولاً سواء أكان رفاً أم مسماراً أم ماشابه ذلك على الرغم من وجود دليل التركيب بين يديه. وفي النهاية فإن الجهود البشرية لاتصل إلى الكمال إلا عبر

سلسلة من الأخطاء المصححة.

وعليه، هل يمكن لكتاب في مثل هذا التعقيد أن يكون كتبه رجل من البشر أو مجموعة من الرجال؟ يؤكد المسلمون أن وحي القرآن وفحواه يتحديان مقدرة الإنسان ومنهجيته. فلو كان ذلك من صنع البشر لواجهنا بعد بضع سنين — إن لم يكن بعد شهرين — تآمر أحداث تنفي كتابة آيات كان مخططاً لها، وإن خطة وضع هذه الآية في هذا الموضع أو ذلك سوف تكون قد دخلت عالم النسيان، وسوف يكون المخطط برمته قد تحلل بحيث صار ركاماً هامداً.

وإن لم يقع شيء من هذا على الإطلاق، فما كان لبشر أن يتنبأ أنه سوف يعيش من العمر مايكفي كي يكمل هذه المهمة. كما أن موتاً مبكراً لمؤلف في مثل هذه الحالة سوف يخلف عملاً مشوّهاً يعوزه الكثير من النصوص التي كان مخططاً لها وقد تركت دون إكمال.

فمنذ ألف وأربعمائة عام مضت كان لكلّ رجل يعيش في الصحراء وقد بلغ الأربعين من العمر، أن يتوقع أنه شارف على نهاية حياته، أو أن يكون قد أمضى الشطر الأعظم منها. أما أن يكون هذا الرجل قد توقع أنه سوف يعيش ثلاثاً وعشرين سنة أخرى في ظل ظروف من الاضطهاد والحروب ضد تحديات جسيمة فإن ذلك ضرب من الخيال، إن لم يكن الخيال عينه. والأمر الأكثر مجافاة للواقع هنا هو أن نتخيل أن أحداً ما كان بمقدوره التنبؤ بوقوع أحداث تنزّلت بها آيات قرآنية مستقبلية.

إن أول ما يتعلمه الفنان المخادع أنه لكي يكون كذوباً فلا بد له أن يكون ذَكُوراً. ولكن وجهة النظر الإسلامية هي أنه لم يعش إنسان في التاريخ قط ممن يتمتع بالذاكرة اللازمة لإتمام مهمة معقدة كتأليف القرآن. ومع ذلك، فهكذا أوحي القرآن: آية إثر آية ضُمّ بعضها إلى بعض البعض على مدار ثلاثة وعشرين عاماً بطريقة كانت في جميع أزمنتها ومراحل التنزيل فيها وحياً فصيحاً لا مثيل له في القوة والجزالة والجمال مايمكن به تغيير قلوب البشر وتحول وجهتهم.

أما السؤال حول من ألّف القرآن، ففي عقل المسلم أن سؤالاً كهذا لا يحتمل مرشحاً بشرياً. هناك من يوافق على أنه ليس بوسع إنسان أن يؤلف مثل هذا الكتاب، ولكن هناك من يؤكد أن الكتاب هو من عمل الشيطان. إن مثل هذه التوكيدات مخيبة للآمال في أفضل الأحوال. ففي الكتاب المقدس يُروى أن الكثير من اليهود الكفار زعموا الزعم نفسه بشأن عيسى، وهي أن أعمال عيسى لم تكن من عند الله، بل من إبليس، رئيس الشياطين (متى ١٢:٢٤، ومرقس ٣:٢٢ و لوقا ١١:١٥).

فمن جهة، تذوب قلوب المسيحيين لدى سماع قصص معجزات عيسى، متعجبين من إنكار كفّار اليهود للمعجزات الدالة على نبوءته. فالمسيحيون الذين يقرؤون هذه القصص من الكتاب المقدس يعتقدون أنهم لو كانوا أحياء عند تنزّلها لما أعرضوا عنها بل لاتّبعوها. ولكن نقول هل هم صادقون في ذلك؟ ففي المحصلة هؤلاء هم في الغالب المسيحيون أنفسهم الذين يَصِمون معجزات القرآن بأنها من عمل الشيطان. لقد أخذ

هؤلاء يشبهون إلى حد بعيد كفار اليهود إبّان عهد عيسى، وذلك لأنه على الرغم من عِظم الدليل (بما فيها المعجزات)، فإنهم لا يتبنون وحسب الأعذار المطولة للكفر بكتاب المسلمين المنزل، بل كثيراً ما يقدمون الزعم الانعكاسي نفسه – وهو أن القرآن كتاب من عمل "رئيس الشياطين".

ولكن حتى ذلك التحدي له جوابه، إذ يسارع المسلمون إلى الإشارة إلى أن تعاليم القرآن الكريم تحول هذه الاحتمالية، فالآية ٩٨ من السورة ١٦ (سورة النحل) ترشد المسلمين على النحو التالي: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾. والمنطق السليم يقضي بأن الشيطان ما كان ليؤلف كتاباً يأمر الإنسان بالاستعاذة بالله سبحانه فيه منه. وقد يطلق بعضهم العنان للذهاب بالخيال إلى أبعد من ذلك، إذ يؤكدون أن للشيطان مكائده الكبيرة، ويمكن أن يفعل ذلك. ولكن مثل هذا الزعم لا يمكن أن يصدر إلا عن مسيحي منافق، وذلك لأن الكتاب المقدس ينص على مايلي:

> «فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: "كُلُّ مَمْلَكَةٍ مُنْقَسِمَةٍ عَلَى ذَاتِهَا تُخْرَبُ وَكُلُّ مَدِينَةٍ أَوْ بَيْتٍ مُنْقَسِمٍ عَلَى ذَاتِهِ لاَ يَثْبُتُ. فَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُخْرِجُ الشَّيْطَانَ فَقَدِ انْقَسَمَ عَلَى ذَاتِهِ. فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَمْلَكَتُهُ» (متى ١٢: ٢٥-٢٦).

ويتردد صدى هذا التعليم نفسه في مرقس ٣:٢٣–٢٧ ، و لوقا ١٣:١٧. فإنكار هذه القضية هو ليس إنكاراً لعيسى فحسب، بل

ولمـؤلفي الأناجيـل الثلاثـة المشـار إليهـا أعـلاه. ولمـن يعـدّون أن الكتـاب المقدس هو كلام الله فإن ذلك هو إنكار لله نفسه. ما الدليل؟ الدليل هو أن الآية ٩٨ من سورة النحل ليست حجة إسلامية وحسب، بل هي في الحقيقة حجة إنجيلية.

وهكذا يطرح العالم الإسلامي التحدي التالي: إذا ما استُبْعد الإنسان والشيطان من كونهما مؤلفين للقرآن، فمن الذي يبقى إذاً؟

## ٥: الدليل الثالث ... علاقة الوحي بأحداث سابقة

**الماضي بلد أجنبي، فهم يسلكون هناك سبيلاً مغايراً.**

ل. پ. هارتلي L.P.Hartley ، من مقدمة لـ **الوسيط**

يتكرر العديد من قصص الكتاب المقدس في القرآن، ولكن بفروقات كبيرة. ومن التحديات المتكررة التوكيد على أن القرآن نسخ عن العهدين القديم والجديد. ولكن هذا الطرح تكتنفه العديد من الصعوبات، أولها أن محمداً كان أمياً، ولم يكن بوسعه قراءة كتب اليهود أو النصارى ولو حاول ذلك، وثانيها أن يهود الجزيرة العربية ونصاراها لم يكونوا قادرين على قراءة كتابيهم المقدسين ولو حاولوا فعل ذلك، لماذا؟ لأن الدليل يشير ببساطة إلى عدم وجود كتاب مقدس باللغة العربية في عصر محمد، ولا في العصور التالية.

إن عدم وجود كتاب مقدس في عصر محمد ما يزال يقضّ مضاجع الذين يرون أن محمداً نسخ قصصاً من الكتاب المقدس ضمَّنها القرآن. وعلى الرغم من أن اكتشاف نسخة من الكتاب المقدس باللغة العربية تعود إلى ماقبل القرن السابع الميلادي كان من شأنه إنْ وقع أن يدخل البهجة

إلى نفوس مثل هؤلاء الزاعمين، إلا أن مثل هذا البحث قد خيَّب آمالهم. ومع ذلك تعترف **موسوعة الدين والأخلاق** *Encyclopedia of Ethics and Religion*، وهي سلسلة من المجلدات الضخمة التي تعجّ بالافتراءات والسموم بحق الإسلام بأنه: "**لا يوجد دليل على أن الكتاب المقدس أو أجزاء منه قد ترجمت إلى العربية قبل الإسلام**".[٥١] أما **قاموس الكتاب المقدس** *Dictionary of the Bible* لـ هيستنج Hasting فيفيد أن أول ترجمة عربية للكتاب المقدس تعود إلى القرن العاشر،[٥٢] بينما ترى **الموسوعة اليهودية** *Encyclopedia Judaica* أن أول ترجمة عربية للعهد القديم إنما تعود إلى حُنين بن إسحاق (٨٠٠–٨٧٣ للميلاد) أو إلى سادية (الذي كان اسمه الحقيقي جوزيف غاوُن Joseph Gaon ٨٨٢–٩٤٢ ميلادية).[٥٣]

وهكذا يتساءل المرء عن حقيقة المصادر اليهودية والمسيحية التي كانت موجودة في عصر محمد. فإذا لم يكن هناك كتاب مقدس بالعربية فما الذي كان هناك؟ إن نسخ أمر لم يكن موجوداً مهمة صعبة، وهي لاشك أشد صعوبة عند الأمي.

---

٥١. Hasting, James.1913. *The Encyclopedia of Religion and Ethics*. Charles Scribner's Sons. Vol.X, p. 450

٥٢. Hastings, James (ed.) Revised edition by Frederick C. Grant and Chalres Scribner's Sons. p.105

٥٣. *Encyclopedia Judaica*. 1971. Jerusalem: Keter Publishing House Ltd. Vol 4, p. 863

إن وجود اليهود والنصارى في شبه الجزيرة العربية إبان عهد محمد أمر معروف تماماً، فقد كان لخديجة (زوج محمد الأولى) ابن عم طاعنٌ في السن، ألا وهو ورقة بن نوفل، الذي كان مسيحياً. كما أن محمداً قابل الراهب النسطوري بحيره في الطريق إلى الشام عندما كان شاباً. ولم يكن اتصاله بيهود مجتمعه، وفرصة تعلم دينهم بالأقل احتمالاً. وهكذا يمكن الادعاء بأن محمداً قد تعلم مبادئ اليهودية والمسيحية مشافهة. وبما أن اليهود والمسيحيين قد تناقلوا تعاليم روايات دينهم من شخص لآخر، فقد كان ممكناً أن ينقلوها إلى محمد. ويمكن القيام بمثل هذا الادعاء. كما يمكن لمثل هذا الادعاء أن يدحض.

إن مشكلة هذا الزعم لاتكمن في عدم توافر التراث اليهودي والمسيحي، بل كان متوافراً بالفعل، ولكن المشكلة تتعلق بطبيعة التعاليم اليهودية والمسيحية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية خلال عصر محمد. والسبب في ذلك هو أن تعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية لم تكن معتقداً لدى العرب في تلك الفترة. وفي **الموسوعة الكاثوليكية الجديدة** نقرأ التعليق التالي:

> من المؤسف أنه لا يمكن تصنيف اليهود العرب ولا المسيحيين العرب ضمن خير الممثلين لدينهم في ذلك الزمن. فاليهود كانوا يعيشون في عزلة ربما منذ منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد، على الرغم من أنهم كانوا ناجحين إلى حد ما في التبشير بدينهم، أما المسيحيون فقد كانوا في غالبيتهم من المهرطقين القائلين بوحدة

طبيعة المسيح .. بعيدين كل البعد عن مراكز العلم المسيحية[٥٤]

ويدلي بول وِغْنر Paul Wegner مؤلف كتاب "الرحلة من النصوص إلى الترجمات *The Journey from Texts to Translations* " بدلوه قائلاً:

لا يبدو أن الكتابَيْن المقدّسَيْن كانا موجودَيْن في نسخة باللغة العربية قبل عهد محمد (٥٧٠—٦٣٢) والذي لم يعرف قصص الإنجيل إلا عن طريق المشافهة، وعبر مصادر سريانية بشكل رئيس. وهذه المصادر السريانية كانت تتسم بالظاهرية Docetism (الاعتقاد بأن عيسى كانت له طبيعة إلهية فقط وأنه كان يبدو أنه متجسّد — وكذلك الاعتقاد بأن العالم مادي — مثله مثل جسد الإنسان — شر بفطرته)...[٥٥]

وهنا تكمن المشكلة، فالمقترح هو أن محمداً نسخ من مصادر يهودية ومسيحية على الرغم من حقيقة كونه أميّاً، وعلى الرغم من عدم وجود نسخ ورقية كي تقرأ، وعلى الرغم من أن المصادر اليهودية والمسيحية التي كانت متوافرة كانت مصادر "أضعف من يمثل المعتقد الديني لذلك المجتمع." بمعنى آخر، إن هذه المصادر كانت مصادر المهرطقين القائلين بوحدة طبيعة المسيح Monophysites، والظاهريين Docetism

---

٥٤. *New Catholic Encyclopedia.* Vol.9, p.1001.

٥٥. Wegner, Paul D. *The Journey from Text to Translation.* 1999. Grand Rapids: Baker Books. p. 250.

والنسطوريين Nestorians، فلماذا إذاً لم يستنسخ القرآن العقائد الخاصة بتلك الفرق المهرطقة؟ ولماذا يذم القرآن إشراك المسيح عيسى بالألوهية، بدلاً من المصادقة على العقيدة القائلة بوحدة طبيعة المسيح في اتحاد بين الطبيعتين الألوهية والبشرية على أنها طبيعة واحدة في شخص المسيح عيسى؟ ولماذا يصادق القرآن على أن المسيح عيسى إنما هو بشر، ولا يعتمد المفهوم الظاهري لعيسى بأنه كان وهماً؟ ولماذا ينبذ القرآن الادّعاء النسطوري القائل بوحدة الله (الأبن) مع عيسى (الإنسان)؟ فإذا كان القرآن قد نسخ من روايات شفوية، وكان اليهود والمسيحيون العرب ليسوا خير من يمثّل دياناتهم، فلماذا لا يجادل القرآن في هرطقاتهم إذاً؟ لماذا يشير القرآن إلى المعتقدات الصالحة للأرثوذوكسية اليهودية، وإلى الروايات التاريخية التي أجمع عليها كلا العهدين القديم والجديد، والمسائل السائدة لمسيحية القسطنطينية التثليثية، بدلاً من المفاهيم الغريبة غير الأرثوذكسية ليهود الجزيرة العربية ومسيحييها إبان عهد محمد؟

وعلى نحو مماثل، فإن علينا أن نتساءل لماذا يسجّل القرآن التاريخ تسجيلاً يختلف عن الطريقة التي فهم بها العرب ذلك التاريخ؟ إذ إننا نلحظ في القرآن تكراراً عديداً للمقولة القائلة إن القرآن كشف للعرب — بمن فيهم المسيحيون واليهود العرب — تفاصيل تاريخية لم تكن معروفة لديهم سابقاً. وإذا تتبعنا قصّة نوح عليه السلام في القرآن، فإننا نقرأ:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ

وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾
(القرآن الكريم ١١: ٤٩).

لكن التاريخ لا يشير إلى أن أحداً، سواءٌ أكان رحَّالة وثنياً، أم حبراً يهودياً، أم ناسكاً مسيحياً، أم مسلماً زعم يوماً أنه على علم بمثل تلك التفاصيل. ومرة أخرى نقول، إن استنساخ الروايات اليهودية والمسيحية التي لم تكن لتوجد أصلاً — سواء على الورق أم في الذاكرة — يعدّ أمراً مضنياً. فماذا يمكن أن يكون مصدر مثل تلك المعلومات إذا كانت مرجعيات تلك الديانتين تفتقد إلى الدليل أصلاً؟

إلا أن أهم نقطة هنا هي أن القرآن يصحح أخطاء الكتاب المقدس بدلاً من تكرارها. فما عسانا أن نظن بكتاب يقدم تصحيحات لأخطاء لم تكن معروفة في عهد محمد، بل كانت تعد من حقائق الإنجيل المسلّم بها؟ فنحن نتوقع من كتاب من صنع البشر أن يكون مصمماً كي يخاطب الجماهير وبالتالي أن يتوافق والرأي العام، لا أن يجابهه. أما ماهو متوقع من الوحي الحقيقي فهو تصحيح الزّيف مهما بدت مرارة الحقيقة، وهذا هو حال القرآن الكريم ... تصحيح عقائد كانت راسخة، وتصويب أخطاء لم يكن معترفاً بها.

وتتعلق أهم التصحيحات بعناصر العقيدة، كما ناقشنا في الجزء الأول من هذه السلسلة وهو كتاب **"من فقدوا الله"**. فالقرآن الكريم يتحدى المسيحيين ويأمرهم بالنظر في كتابهم، لأنهم سوف يجدون فيه أن عيسى لم

يقل قط أنه "ابن الله" (انظر **"من فقدوا الله"**). وقد نعجب: كيف استطاع محمد أن يعرف ذلك؟ فكما أسلفنا، لم يكن قادراً على قراءة كتبهم. وهم أيضاً لم يستطيعوا قراءة كتابهم المقدس .. إذ لم يكن بمقدورهم فعل ذلك حتى ظهرت ترجمة له بعد مضي مائتي عام. ونسأل من أين جاء محمد بمصادره إذاً؟ فأقصى ما كان يمكن أن يسمعه هو غيض من روايات شفوية كان يتناقلها بعض المسيحيين هنا وهناك. ولكن كيف كان يمكن له أن يعرف أنه سمع الروايات كافة بغثّها وثمينها؟ فمع عدم توافر نسخة من الكتاب المقدس كيف كان يمكن لمحمد أن يعرف أن عيسى لم يسمِّ نفسه قط "ابن الله" في أي موضع من العهد الجديد؟ إن الرّهان الرابح في ضوء ماكان قد تناهى إليه هو القول بالنقيض. فإلى يومنا هذا يندر أن تجد مسيحياً ممن يعلم أن عيسى لم يقل قط أنه "ابن الله" ولو في موضع واحد من الكتاب المقدس. فكيف عرف محمد بهذا إذاً؟

إننا إن نبحث عن أمثلة موضوعية لمثل هذه التصحيحات المثبتة فإننا سوف نجدها في الأدلة العلمية. كما يمكن لنا النظر في دلائل بسيطة أيضاً مثل سن عيسى عند بدء بعثته.

فوفقاً لما جاء في الكتاب المقدس: «وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً ... » (لوقا ٣: ٢٣). هكذا يقول الكتاب المقدس.

وهكذا يقول غالبية المسيحيين.

ولكن التاريخ يفيد أن عيسى كان أكبر من هذا بكثير – فالأرجح أنه

كان في السادسة والأربعين، ولكن في جميع الأحوال لم يكن تقل سنّه عن الثامنة والثلاثين من العمر.[٥٦]. ولكن من أين نحصل على هذه الأرقام؟

لقد ولد عيسى إبان عهد الملك هيرود العظيم Herod the Great ملك اليهود (الذي مات بُعَيْد خسوف قمري يعود تاريخه طبقاً لعلماء الفلك إلى ما بين ١٢–١٣ من آذار/مارس، السنة الرابعة قبل الميلاد)، وبدأت بعثته عقب سجن يوحنا المعمداني [النبي يحيى عليه السلام]. ولكن لماذا سجن يوحنا المعمداني؟ لتوبيخه أنتباس Antipas الابن الأكبر للملك هيرودس العظيم، الذي عرف أيضاً بهيرودس الحاكم (حاكم الجليل وبيريا) لزواجه من ابنة أخيه وامرأة أخيه. ومن الافتراضات المنصفة أنه ماكان يمكن لـ أنتيباس الاقتران بابنة أخيه ما لم يكن أخوه خارج الصورة بطريقة أو بأخرى، وإلا لكان وقع قدر من التنافس بين الأخ وأخيه. ويوثق جوزيفوس Josephus في كتابه **آثار العصور القديمة اليهودية** *Jewish Antiquities*: "أن أخ هيرودس العزيز فيليب Philip مات ... في السنة العشرين من حكم تيبيروس Tiberius ...". والتي تتوافق مع ٣٣–٣٤ ميلادية.[٥٧] ومسرحية مسلسلة هنا، ومعركة هناك، ورحلة لإحضار الأرملة الثكلى المشكوك في أمرها، وزواج، وتوبيخ شعبي، ثم يجد يوحنا المعمداني نفسه في السجن منتظراً ليراقص ربيبته اللعوب. وبالمحصلة فإن عيسى بدأ

---

٥٦ Fox, Robin Lane. 1991. *The Unauthorized Version: Truth and Fiction in the Bible*. Viking Press. P.34-28 .

٥٧ Whiston, William, A.M. 1998. *Josephus, The Complete Works*. Nashville: Thomas Nelson Publishers 18.4.6., p. 580.

بعثته في العام ٣٤ للميلاد أو ما بعده، عقب سجن يوحنا المعمداني، كما يؤيد ذلك إنجيلا مرقس ولوقا ... «وَبَعْدَ مَا أُسْلِمَ يُوحَنَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى الْجَلِيلِ يَكْرِزُ بِبِشَارَةِ مَلَكُوتِ» (مرقس ١: ١٤).

فكون الفترة ما بين ٤ق.م. إلى ٣٤م تساوي ٣٨ عاماً تؤكد أن عمر عيسى لم يكن يقل عن الثامنة والثلاثين عند بعثته.

ولو افترضنا أن عيسى لم يولد في اليوم الذي مات فيه الملك هيرودس العظيم، ولو سمحنا بفترة أكثر معقولية لزواج أنتباس من امرأة أخيه، لكان عيسى، على الأرجح، في الأربعين من عمره عند ابتداء بعثته. إن مثل هذه الافتراضات ليست غير معقولة، ومن أجل تبيان الأسباب فبوسع المرء تأمل التسلسل التالي للأحداث:

١. ولد المسيح عيسى في أيام هيرودُس العظيم (متّى ٢: ١).
٢. وبعد ميلاد عيسى جاء مجموعة من الحكماء "مجوس من المشرق" The Magi إلى أورشليم بعد أن رَأَوا نجمة تشير إلى ميلاد المعجزة (متى ٢: ١)، وتلك رحلة كبيرة. ففي حقبة تاريخية كانت أسرع وسيلة نقل فيها جمل لا يرغي، فمثل تلك الأمور لابد أنها كانت تستغرق وقتاً.
٣. أرسل هيرودس المجوس/الحكماء في رحلة استطلاع إلى بيت لحم (متّى ٢: ٨)، ... وتلك رحلة ثانية.
٤. عاد المجوس/الحكماء إلى كُوَرتهم (أي بلدانهم) دون أن يعرف

هيرودس بذلك (متّى ٢:١٢)، ... وتلك رحلة ثالثة.

٥. أوحى ملك إلى يوسف أن ينهض، ويفر من اضطهاد الملك هيرودس (متّى ٢:١٣).

٦. قام يوسف (متّى ٢:١٤) ... ولعل ذلك استغرق دقيقة أو نحو ذلك.

٧. وانصرف بأسرته إلى مصر إلى فترة غير محدودة (متّى ٢:١٤)، ... لعل ذلك استغرق زمناً أطول قليلاً. وهذه رحلة رابعة.

٨. اكتشف هيرودس الخدعة (متى ٢:١٦)، ... لعل ذلك استغرق بعض الوقت أيضاً. وهذه رحلة خامسة (قام بها الرسول).

٩. بما أن هيرودس كان يتملكه الحرص على منصبه لدرجة أنه أعدم زوجه المحبوبة مريام Mariamne وثلاثة من أبنائه في مناسبات منفصلة ظناً منه أنهم كانوا يهددون عرشه، فقد أرسل رجاله flunkies المستبدّين لقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وماحولها، من ابن عامين فما دون (متى ٢:١٦) ... لماذا سنتان فما دون؟ السبب هو "بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس/الحكماء" (متى ٢:١٦)، بعبارة أخرى كان المسيح عيسى لما يزل طفلاً آنذئذ.

١٠. بعد وقت غير محدد ... مات هيرودس (متّى ٢:١٩).

في ظل السناريو السابق، يحق لنا أن نتوقع بحق أن عيسى قد وُلِد قبل

وفاة الملك هيرودس العظيم بعامين على الأقل. بعبارة أخرى ولد عيسى في العام السادس ق.م. أو ماقبله. وعلى نحو مماثل، فإنه ليس من غير المعقول أن نتوقع أن الأحداث المحيطة بزواج أنتباس المشبوه قد تكشفت على نحو أبطأ بقليل من سرعة السفر آنذاك.

وهنا يتجلى على حين غرة معنى السؤال الوارد في الآية «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟» (يوحنا ٨: ٥٧). ومن المنطقي أن يتوقع المرء، أنه لو كان عيسى في الثلاثينات من عمره، فإن التحدي سيكون على النحو التالي "... ليس لك أربعون سنة بعد ...". ولكن الأمر ليس كذلك، والآن نحن نفهم السبب وراء ذلك.

إن توضيح صعوبة أخرى من صعوبات الكتاب المقدس ليس هو المراد هنا. فالفكرة التي ما زالت تستحوذ على العقول إلى يومنا هذا أن المسيحيين مايزالون يقرؤون الآية «وَلَمَّا ابْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلاَثِينَ سَنَةً ... » (لوقا ٣: ٢٣) ويؤكدون أن عيسى ابتدأ بعثته عندما كان في الثلاثين من عمره تقريباً. ولو سأل محمد مسيحيي عصره عن سن عيسى لدى ابتدائه النبوة لحظي بالجواب ذاته. والآن، ماذا يقول القرآن؟ تنص الآية (١١٠) من سورة المائدة على أن عيسى كلّم الناس في المهد وكهلاً: ﴿ ... تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً ... ﴾. وتصف كلمة "كهلاً"

الإنسان ما بين الثلاثين والخمسين من عمره[٥٨]. ولو كان الكتاب المقدس قد استُنسخ لتوقعنا تكرار الآية (لوقا ٣: ٢٣) من أن عيسى كان في حوالي الثلاثين من عمره عند بدء النبوءة. وبخلاف ذلك فإن القرآن يتفوق في دقته على الكتاب المقدس بهذا الشأن. فالقرآن هنا لايكرر آية الكتاب المقدس، بل يصححها.

وإليكم مثالاً آخر: إن لقب "فرعون" *pharaoh* كان يطلق على حكام مصر فقط مابين في الفترة ١٥٣٩-١٢٩٢ ق.م.، والفترة ٩٤٥-٧٣٠ ق. م.[٥٩] ودليل ذلك هو أن "المصطلح المصري أصبح لقب تبجيل للملك في عهد الأسرة الثامنة عشر ... وأي استخدام لـ "فرعون" كلقب للملوك السابقين لـ تحوتمس الثالث Thutmose III يعد مفارقة تاريخية".[٦٠] وقد عاش تحوتمس الثالث في الفترة مابين ١٤٩٠ – ١٤٣٦ قبل الميلاد.[٦١] ومن هنا فكلّ استخدام للقب "فرعون" قبل ١٤٩٠ ق. م. يعد بالتالي مفارقة تاريخية، أي "نسبة عرف أو حدث، إلخ.. إلى حقبة خاطئة".[٦٢]

---

٥٨. Wehr, Hans. *A Dictionary of Modern Written Arabic*. 3rd Printing. Beirut: Librairie Du Liban, London: Mac Donald& Evans Ltd. 1980.

٥٩. *Encyclopeadia Britannica*. CD-Rom.

٦٠. *The Encyclopeadia American International Edition*. 1998. Grolier Inc.Vol. 21, P. 848.

٦١. *The Encyciopeadia American International Edition*. Vol. 26, P. 714.

٦٢. Thompson, Della (editor). *The Oxford Dictionary of Current English* 1993. Second Edition. Oxford University Press. P26.

ولكن ماعلاقة هذه بكل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم؟

خلال حقبة النبي يوسف عليه السلام (حوالي ١٧٠٠ قبل الميلاد) حكم مصر سلالة ملكية مختلفة دامت لبعض الوقت، وهي سلالة الهكسوس Hyksos العربية الأصل، وقد استولت على الحكم في مصر في حوالي العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد واستمرت في الحكم حتى نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ولم يطلق لقب فرعون على أحد من ملوك سلالتهم قط. في منتصف حقبة سلالة الهكسوس هذه أي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد عاش نبي الله يوسف. لكن الكتاب المقدس يطلق على ملوك عهد يوسف في مصر لقب "فرعون" (انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣٩–٥٠)، وموسى (انظر الخروج ٢–١٨). ولكن مانعلمه عن التاريخ يتعارض مع استخدام هذا المصطلح إبّان حقبة يوسف. ولكن حسناً، لا بأس بواحد من بين اثنين، إذا كان ذاك معيار الدقة الذي يسعى وراءه الإنسان في كتاب الوحي.

والآن، ماذا يقول القرآن؟

يقر القرآن – وهو على حق – بمَلِك زمن موسى على أنه "فرعون"، ولكنه يشير إلى ملك مصر في عهد يوسف بـ .. "الملك" (انظر سورة يوسف في القرآن الكريم، وهي السورة ١٢). ومجدداً نجد القرآن هنا يصحح أخطاء الكتاب المقدس على أن يكررها، على الرغم من أن كلمة "فرعون" تتكرر في القرآن أكثر من سبعين مرّة، ولكنه في كل مرة يشير إلى ملك مصر خلال الفترة التاريخية التي كان لقب "فرعون" مستخدماً فعلاً.

وفي هذا السياق تبرز أهمية تفادي القرآن الواضح لاستخدام لقب "فرعون" في زمن يوسف.

وبمناسبة الحديث عن مصر يشير القرآن إلى أن فرعون أمر رجلاً يدعى "هامان" بصنع آجر بهدف البناء (سورة القصص: القرآن الكريم ٢٨: ٣٨). وكلمة "هامان" لقب من اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء، يُعتقد الآن أنها تعني "رئيس العمال في المحْتَجرات (مقالع الحجارة)".[٦٣] وبعبارة أخرى، فإنه في الزمان والمكان اللذين عمّ فيهما البناء لكتل حجرية ضخمة، كان "هامان" هو المشرف على إمدادات مواد البناء.

أما اللغة الهيروغليفية فكانت قد انقرضت قبل قرون من بعثة محمد، ولم يُرجع إليها إلا عندما اكتشف حجر روزتّا [حجر الرشيد] Rosetta Stone في العام ١٧٩٩ ميلادية. وإليكم ماحدث: فبعد موت ماركوس أنطونيوس Marcus Antoni [القائد الروماني المشهور مارك أنطوني] وما تلا ذلك من انتحار الملكة كليوباترا في العام ٣٠ قبل الميلاد، انتهى نظام السلالات الحاكمة المصرية، وتأسس على أنقاضه نظام الحكم الروماني حيث اصبحت اللاتينية لغة البلاد الرسمية، ونتيجة لذلك تلاشت اللغة الهيروغليفية خلال القرن التالي. ومع اكتشاف "حجر الرشيد" أعيد إحياء اللغة الهيروغليفية؛ إلا أن ذلك لم يكن بالأمر السهل أبداً، حيث استغرق

٦٣. Hermann, Rank. *Die Ägyptischen Personennamen (Dictionary of Personal Name of the New Kingdom)* Verzeichnis der Namen, Verlag Von J J August in Gluckstadt, Band I (1935); Band II (1952).

الأمر أكثر من عشرين عاماً، وتتطلب إلهاماً وتضافر جهود بعض أنبغ العقول في أوروبا. كل هذا يدفعنا للتساؤل: كيف أدرك مؤلف القرآن أن لقب الرجل المشرف على إمدادات البناء كان "هامان"؟ ففي ظل اندثار اللغة الهيروغليفية لمدة تزيد على خمسمائة عام، وعلى افتراض أن ماكان يؤول إليها اندثر كذلك، فما مصدر مثل هذه المعرفة بهذه الألقاب في أيام محمد؟

دعونا الآن نأخذ مثالاً أكثر وضوحاً.

لم يلقب المسيح أتباعه بـ "المسيحيين" البتة.

وفي الحقيقة فإن أتباعه لم يتبنّوا هذه التسمية إلا بعد مضي عدة سنوات من بعثته. ولكن بمجرد استخدامها، سرعان ماترسّخت هذه التسمية. فلو أن محمداً كان سأل مسيحيي عصره عمّا يدعون به أنفسهم لأجابوه بأنهم "مسيحيون. و "مسيحيون" تصف أتباع المسيح ('مِشياً *Messiah*' في العبرية، و'مسيح *Masih*' في العربية).

أليس هذا بالمعقول؟ بالتأكيد! فإلى يومنا هذا يعرّف مسيحيو الغرب أنفسهم بهذا الاسم، أي "المسيحيون". وعلى الشاكلة ذاتها، ما زال نظراؤهم من العرب النصارى يتسمّون بالاسم عينه .. "المسيحيون". بأي اسم إذاً كان يمكن لمحمد أن يعرف أتباع عيسى؟ الجواب بـ "المسيحيين". لماذا إذاً لم تذكر هذه اللفظة ولو مرة واحدة على الإطلاق في القرآن؟

إن القرآن يذكر المسيحيين مراراً وتكراراً، ولكن ليس بهذه التسمية بل

بـ "النصارى Nazarenes". ولكن مهلاً، كم عدد المسيحيين في العالم ممن يسمّون أنفسهم "نصارى" الآن؟ أظن أنه ليس بالعدد الكبير. لماذا إذا يستخدم القرآن مصطلح النصارى الإيماني الوارد في الكتاب وليس التسمية العربية الشائعة وهي "مسيحيون؟"

ويتساءل أحدنا من أنبأ محمداً أن المسيح نفسه لم يدْعُ المسيحيين بهذا الاسم قط على الرغم من أن جميع المسيحيين يفترض أنهم يدعون أنفسهم كذلك. ونجد في (أعمال الرسل ١١: ٢٦) أنه «دُعِيَ التَّلاَمِيذُ مَسِيحِيِّينَ فِي أَنْطَاكِيَةَ أَوَّلاً». بمعنى آخر، إن الكفار هم أول من أطلق مصطلح "مسيحي" على أتباع المسيح وذلك حوالى العام ٤٣ للميلاد، أي بعد عشرة أعوام من بدء نبوءته تقريباً.

وفضلاً عن ذلك، فإن هذا الاسم لم يكن مصطلحاً مؤدباً.

ويبدو وخلافاً للاعتقاد السائد، أن مصطلح "مسيحي" كان يفهم أنه مصطلح للتحقير. إنه الاسم الذي كان يطلقه الكفار على أتباع المسيح – حيث كان يعدّ لقباً شائناً، وكان يحلو استخدامه للمؤمنين الذين عرّفوا أنفسهم بأنهم من يتّبع هدي آخر الأنبياء اليهود. ومع ذلك فإن المسيحيين يفخرون اليوم بحمل التسمية ذاتها على الرغم من الحقيقة القائلة بأن "الوثنيين هم الذين استخدموه على نطاق واسع، ووفقاً لـ تاسّيتوس Tacitus فقد شاع استخدام هذا المصطلح إبّان فترة الاضطهاد النيروني

Neronian persecution (الحوليات ١٥: ٤٤)".[٦٤]

وبعبارة أخرى فإن مصطلح "مسيحي" هي تسمية ازدرائية كان أعداء المؤمنين يطلقونها عليهم. ومع ذلك فقد ثبت هذا اللقب على المسيحيين الذين قبلوه في نهاية المطاف لما عرف عنهم من تواضع مميّز.

حسناً، فقد عرفنا الآن. ولكننا نسأل كم عدد القرّاء الذين يعرفون هذه الحقيقة قبل أن يقرؤوها هنا؟ والأهم من ذلك، من أنبأ محمداً؟ من أنبأ محمداً بأن مصطلح "مسيحي" كان يستخدم بادئ ذي بدء تعبيراً عن الحطّ من قدر المرء، ولم يستخدمه المسيح قط؟ من أنبأ محمداً بأن هناك اسماً إنجيلياً لأتباع عيسى أكثر احتراماً وهو "النصارى؟" ونسأل، لماذا يكلّف محمدٌ نفسه عناء أن يسبح ضد هذا التيار الجارف من الرأي العام، ما لم يكن الأمر منوطاً بنقل ما يوحى إليه من كلمات ... كلمات صحح رأيه الخاص وآراء معظم سائر البشر؟

و بينما تتناول هذه المسائل آنفة الذكر تفاصيل ليست ذات شأن كبير في الدقة التاريخية، لكنها غاية في الأهمية ... إن هذه التفاصيل الدقيقة هي التي تمثل أسلاك الألغام التي يمكن لأقدام النبوة الزائفة أن تصطدم بها. فلا أحد يرتطم في أثناء سيره ببناء شاهق، بل بنتوءات الرصيف الصغيرة التي تبدو تافهة في أثناء سيره. وهذه المسائل التفصيلية الدقيقة هي التي

---

٦٤. Meagher, Paul Kevin OP, S.T.M., Thomas C. O'Brien, Sister Consuelo Maria Aherne, SSJ (editors). 1979. *Encyclopedic Dictionary of Religion*. Philadelphia: Corpus Publications. Vol 1, p.741.

يصححها القرآن بدقة فائقة بدلاً من رسم صورة جذابة على أخطاء قديمة من سوء الفهم الشعبي.

يقول الكتاب المقدس: « اَلأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ أَمِينٌ أَيْضاً فِي الْكَثِيرِ وَالظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ ظَالِمٌ أَيْضاً فِي الْكَثِيرِ» (لوقا ١٦: ١٠). وإذا ما طبقنا هذه الرسالة على الكتاب المقدس، تبيّن لنا عظم أكثر الأخطاء تفاهة (ومنها عدم الالتزام بالتفاصيل). ولو كانت الأخطاء أخطاء بسيطة كتلك التي تنجم عند النسخ، فإن علينا أن نقرع جرس الإنذار إلى الحقيقة القائلة بأن "من لايعدل في الصغائر لن يعدل في الكبائر". إن التفاصيل مهمة، لأننا على أساس التفاصيل يمكننا أن نميِّز مابين الأخطاء البشرية والعصمة الإلهية.

ويجْيءُ دور إرَم:

يشير القرآن الكريم إشارة عابرة إلى مدينة كانت تدعى إرَم (القرآن الكريم ٨٩: ٧). وقد غاب ذكر هذه المدينة عن التاريخ لما يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ولم تكتشف إلا مؤخراً. من ذا الذي عرف كيف يذكر "إرَم" في القرآن الكريم؟ فعلى مدى ألفي العام السابقة للوحي لم يكن هناك من دليل على وجود هذه المدينة.

تمر خارطة الطريق الأثرية لمدينة إرم بمدينة إيبْلا القديمة، كما ناقشها عدد ديسمبر ١٩٧٨ من مجلة ناشونال جيوغرافيك National Geographic. ويوجز المقال المعنونٌ "إيبْلا عظمة إمبراطورية مجهولة"

واحداً من أعظم الاكتشافات الأثرية في العهد الحالي .. اكتشاف مدينة إيبْلا ، شمال غربي سوريا.(٦٥) ويروي المقال عظمة اكتشاف إيبْلا على النحو التالي:

> في العام ١٩٧٥م حقق ماتييه Paolo Matthiae نصراً أثرياً باهراً. ففي ركام قصر يبدو أنه كان دُمر في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وقع هذا العالِم على أعظم سجلات الألفية الثالثة التي لم يكن قد أميط اللثام عنها من قبل. فقد اكتشف أكثر من خمسة عشر ألف لوح مسماري وقطعاً أخرى ... سجلات تجارية، ومعاهدات، ويوميات ... دُوِّنت بـ نحوٍ غامض وقديم ancient and ambigious syntax، لإمبراطورية سامية مجهولة، سيطرت ذات يوم على الكثير من أجزاء الشرق الأوسط، وكانت عاصمتها إيبْلا ... وقد وقع هذا الاكتشاف على الأوساط العلمية وقوع الصاعقة.(٦٦)

ما مدى ضخامة هذا الاكتشاف؟ لنقتبس ما قاله الدكتور إغْنِس ج. غِلْب Dr. Ignace J. Gelb: "كانت إيبْلا مملكة ذات بأس، وكان ينظر

---

٦٥. لمزيد من البحث يمكن الرجوع إلى:

*Atlantis of the Sands*, by Ranulph Frennes, *Ebla: A revelation in Archeology*, by Chaim Bermant and Michael Weitzman, and *Lost Civilisations*, by Bill Garris

(*) باولو ماتييه واحد من اثنين من علماء الآثار ممن كان يشرف على الحفر [المترجم].

٦٦. National Geographic. December, 1978. P.731-735

إليها تماماً كما ينظر إلى أقوى الدول في ذلك الوقت".[٦٧] ما مدى أهمية الألواح المسمارية؟ لنقتبس ما قاله الدكتور جيوفاني بِتّناتو Dr. Giovanni Pettinato: "إن كل النصوص الأخرى التابعة لتلك الفترة التي اكتشفت حتى ذلك التاريخ لا يبلغ مجموعها ربع ما اكتشف في إيبْلا".[٦٨]

إن هذه المجموعة العالمية الهائلة من الألواح المسمارية (ألواح طينية عليها كتابة إسفينية الشكل) تميط اللثام عن الغموض الذي غلّف التاريخ لكي تفصح عن صورة مناقضة للعديد من التخيلات السائدة تقليدياً. وتكشف هذه الألواح عن ثقافة ثرّة كانت تكلل مجتمعاً مزدهراً .. ثقافة ثرّة لدرجة أنه خلص خبراء الآثار للقول فيها بأن "إيبْلا كانت تنافس مصر وبلاد الرافدين كقوة رئيسة في العالم القديم".[٦٩]

ياللهول!

فماذا حدث بعد ذلك لتلك الثقافة العظيمة؟ أين ذهبت؟ .. لقد ذهبت إلى الأرض.

ففي حوالي العام ٢٣٠٠ قبل الميلاد هزم سرجون Sargon إيبْلا وسوّى الأرض بها. أما إحراق القصر، فقد أحال مكتبة إيبلا إلى تنوّر خبز الألواح الطينية فيها وأحالها إلى مكنونات خزفية. وتكشف طبقات الآثار

---

٦٧. المرجع السابق، ص. 735

٦٨. المرجع السابق

٦٩. المرجع السابق، ص. 731

أن إيبْلا نهضت من ركامها، ولكنها سرعان ما دُمرِّت مرة أخرى حوالي العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، على الأرجح على يد العموريين. وبعد أن أعيد إعمارها على الأنقاض من جديد "ازدهرت إيبْلا من جديد لفترة وجيزة، إلا أن نجم المدينة بدأ يخبو، ثم أخذت في الاضمحلال حوالي العام ١٨٠٠ قبل الميلاد، وأخيراً غابت عن التاريخ خلال مائتي العام التالية".[٧٠]

ولكن ما علاقة كل هذا بـ إِرَم؟ كانت إيبْلا ، كغيرها من القوى العالمية الرئيسة، تحتفظ بسجلات تاريخية لشعوب سابقة معروفة، وقوائم شاملة بحدود حضارية معروفة، وبيانات بكل المدن التي كانت تستقطع منها جزية وتجري معها معاملات تجارية. وقبل أن يكشف النقاب عنها، كانت هذه السجلات محفوظة في مكتبة القصر. وماذا نجد هناك؟ نجد ذكراً لمدن بيروت، ودمشق، وغزة، وسدوم, وعُمْرّة Gomorrah، من بين مدن عديدة! وماذا أيضاً؟ ذكر إِرَم، التي كانت مدينة مجهولة ورد ذكرها في القرآن في سورة الفجر.[٧١] وهكذا برهن التاريخ في العام ١٩٧٥ للميلاد على وجود إِرَم كما ورد ذكرها في القرآن الكريم منذ ١٤٠٠ عام خلت.

وماذا برهنت سجلات مكتبة إيبْلا أيضاً؟ .. تضمنت هذه السجلات ذكراً لمدينتي عاد Ad، وشَمُوطو Shamutu (التي يعتقد أنها مدينة ثمود) ..

---

٧٠. المرجع السابق، ص.. 748

٧١. المرجع السابق، ص.. 736

وهما حضارتان مندثرتان ذُكرهما القرآن[٧٢]. وفي الحقيقة فأن خمس آيات قرآنية قصيرة (القرآن لكريم ٨٩: ٦—١٠) تذكر أربع حضارات مندثرة — تم تحديدها جميعاً الآن تاريخياً ... وهي: إِرَم، وعاد، وشموطو، وقوم فرعون.

هل كان يمكن لمحمد أن يعرف إِرَم؟ وعاداً؟ من المؤكد غالباً أنه كان يعرف قوم فرعون، وعلى الأرجح كان يعرف عن شموطو [ثمود] كموقع في البناء إن لم يكن بالاسم؛ لأن آثار ثمود موجودة إلى يومنا هذا كموقع مشهور في مدائن صالح في المملكة العربية السعودية. أما عن إِرَم و عاد، فكيف له أن يعرف عن ثقافات بادت منذ آلاف السنين وقبل أن تشرق الشمس على أول يوم له في حضن أمه. هل كان لمحمد أن يعرف أسماء مدن اندثرت في زمان ومكان كانت فيهما أفضل وسيلة للحصول على المعلومات طريقاً منبسطة وجملاً سريعاً؟

إنه أمر محال.

فالأمريكي العادي لا يمكنه أن يعرف أسماء أول ثلاث مستوطنات في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد يخطئ في اختيار الإجابة الصحيحة لو قدمت له على هيئة سؤال متعدد الاختيارات. وتلك المستوطنات ليس أنها فقط معروفة تاريخياً بل لايتجاوز تاريخها بضعة قرون خلت. وهكذا نقول كيف تأتى لمحمد أن يعرف أسماء إِرَم، وعاد، وثمود؟ إن إدراجك لأسماء

---

[٧٢] Bermant, Chaim and Michael Weilzman. 1979. *Ebla: ARevelation in Archaeology*. Times Books. P.191 .

غامضة، أو غير معروفة في كتاب من تأليفك أمر ينطوي على مجازفة .. اللهمّ إلا إذا كنت إلهاً.

وذلك هو بيت القصيد حسبما يؤكد المسلمون.

وإذا ما حاول إنسان أن يرسم صورة ذهنية لنبي زائف، فإننا نميل لتخيّل شخص ما يصارع كي يكسب الثقة بين أتباعه. إن مدّعي النبوة لابد أن يرتكب حماقة إن هو خاض في حقائق، أو نبوءات، أو عقائد تخالف تلك التي تحظى بقبول عام سواء أكانت هذه صالحة أم غير ذلك. فلماذا يخوض محمد في ذكر أسماء حضارات مندثرة في وقت يمكن له فيه أن يقيّد تعليقاته لمجرد ذكر مدن معروفة كالناصرة؟ فلابد أن المسيحيين الذين كانوا من حوله قد ملؤوا سمعه بحكايات عن الناصرة، ومع ذلك فإن القرآن لم يأت على ذكر الناصرة، ولنا أن نسأل لماذا؟ فذكر الناصرة كان سيلقي صدى طيباً للغاية لدى المسيحيين من أهل وطنه، ولكن لو تم ذلك حقاً لتوجب علينا تخيّل مدى الضرر الذي كان سينجم جراء ذلك، اللهم إلا إذا كانت الناصرة غير موجودة. وفي واقع الحال ربما لم تكن موجودة.

ورد ذكر الناصرة في العهد الجديد ٢٩ مرة، لكن لا يمكن إثبات وجود مدينة أو بلدة في زمن عيسى بذلك الاسم. وهناك في الواقع دليل قوي بأن الناصرة لم تكن موجودة في عهد عيسى. وسواء أكانت الناصرة موجودة آنئذ أم لا، فليس الأمر بتلك الأهمية، لكن من المهم أن نلاحظ أنه كان لدى الرومان سجلات تجارية وضريبية شاملة لكل المدن في

فلسطين. إذ كان الرومان منهجيين في سجلاتهم حول هذا لأنهم لم يرغبوا في رَوْمنة الريف دون هدف بحثاً عن جيوب الفلاحين لانتزاع الضرائب منهم، ومع ذلك لم يرد ذكر الناصرة في تلك السجلات. فلم يرد ذكر الناصرة في واحد من السجلات الرومانية منذ ألفي عام. والناصرة " ... ليست من بين الأماكن المذكورة في يشوع (١٩:١)، كما لم يشر إليها جزوفس Josephus الذي يسمّي خمساً وأربعين مدينة في الجليل، ولم يشر لها التلمود الذي يسمي ثلاثاً وستين مدينة."[٧٣]

وفي الواقع فإن **الموسوعة اليهودية** تخبرنا أن ذكر الناصرة ورد في الكتاب المقدس، غير أن السجلات التاريخية لم تأت على ذكرها حتى القرن الثالث الميلادي.[٧٤] وعلينا في مثل هذه الحالة أن نتساءل أين يكمن الخلل أفي الكتاب المقدس أم في السجلات التاريخية، وهل كانت الناصرة موجودة زمن المسيح عيسى أم لا؟

يخمن بعض العلماء أن Nazareth "ناظريث" و "الناصرة" المعاصرة هما اسمان لمدينة واحدة، لكن لا أحد يجزم بذلك.

لماذا إذاً سُمّي المسيح عيسى بالناصري؟ تصعب الإجابة (عن هذا السؤال). وفي نهاية الأمر فإن السبب ليس بالمهم. إلا أن ما يجدر التنويه

---

٧٣ Kraeling, Emil G. Ph. D. 1952. *Rand McNally Bible Atlas*. Rand McNally & Co. P.358 .

٧٤ *Encyclopedia Judaica*, CD-ROM Edn. 1997. Judaica Multimedia (Israel) Ltd. "Nazareth" entry .

به هو أن كلمة "Nazarene" ناصري، هي الترجمة الإنجليزية للكلمة اليونانية "Nazoraios"، وكلاهما يبدو أنه مشتق من العبرية "Nozrim" التي بدورها مشتقة من "Nazarei-ha-Brit" الاسم العبري القديم الذي كانت تتلقب به جماعة القمران Qumran وهو "حُفَّاظ الميثاق Keepers of the Covenants".[٧٥] وإذا ما بدا الاستخلاص صعباً، فلعل الإنسان يتدبر بأن أصل كلمة "Tsar" المستخدمة في يومنا هذا مشتقة من "Kaisar"، المشتقة بدورها من "Caesar" "قيصر" ولا علاقة لها لا بلفافات الهمبرغر المبزّرة seeded hamburger rolls ولا أنواع سَلَطة الذوّاقة "الغورمية" gourmet salads. فالكلمات التي مضى عليها ألفا عام تتجعّد بمرور الوقت. وعوداً إلى "Nazarene"، فقد ورد التعليق التالي:

> خلافاً لافتراضات التعاليم اللاحقة، فليس لها علاقة البتة بنشأة عيسى المزعومة في الناصرة، وحيث يوحي الدليل (أو عدمه) فإنها لم تكن موجودة في عهد عيسى. وفي الواقع يبدو أن الحيرة الشديدة للمفسرين لدى مصادفتهم للمصطلح غير المألوف "Nazarean" هي التي دفعت بهم للخلوص إلى أن عائلة عيسى إنما انحدرت من الناصرة، حيث ظهرت عندها تلك

---

٧٥. Baigent, Michael and Richard Leigh. 1991. *The Dead Sea Scrolls Deception*. New York: Summit Books / Simon & Schuster Inc. P.174.

المدينة على الخريطة.[٧٦]

ابحث في فلسطين الآن، ستجد الناصرة في الجليل الأسفل (شمالي فلسطين). المشكلة هي أنه يبدو أن المدينة بهذا الاسم لم تكن موجودة في عهود الكتاب المقدس. ويبدو أن التاريخ يشير إلى أن مدينة كانت هناك تدعى بـ "الناصرة" تمثل الجهود المسيحية للتعويض عن خلل إنجيلي. ربما، ولكن الاحتمال الأكبر هو مايشبه الحالة مع المدينة الأمريكية "بيت لحم" Bethlehem في ولاية بنسلفانيا Pennsylvania وهي أن الآباء المؤسسين لمدينة الناصرة في فلسطين تبنّوا هذا الاسم الإنجيلي للناصرة لا لشيء سوى أنهم يحبّونه.

ثمة شيء واحد نستطيع قوله بكل ثقة وهو أن المسيح عيسى لم يولد في بيت لحم الأمريكية في ولاية بنسلفانيا، وبالمثل فإنه ليس هناك من سبب وجيه للافتراض بأن للمسيح علاقة بالمدينة الفلسطينية التي تُدعى بـ "الناصرة".

ومهما يكن فإن التلاعب بالاسماء الإنجيلية قد وقع، وإن هذه تشكّل نقطة أخرى من نقاط الدقة في القرآن. فالكتاب المقدس يذكر مكاناً يبدو أنه لم يكن موجوداً في حياة النبي عيسى، بينما لايفعل القرآن ذلك. إن تحاشي القرآن لمثل تكرار هذا الخطأ الذي لايعرفه إلا القليل في الكتاب المقدس ينبئنا بشيء هام عن القرآن ومؤلفه. فالناصرة هي تلك العملة

---

٧٦. المرجع السابق

الإنجيلية الشائعة التي كانت تروق للمسيحيين في عصر محمد، ومع ذلك فإننا لانجد لها ذكراً فى القرآن الكريم، هذا إذا افترضنا أن القرآن هو من صنع البشر.

عوداً إلى إرَم. فلئن يذكر إنسان ما وجود مدينة لم يكن لها سجلات خلال حياة محمد (ناهيك عما يمكن قوله في الأربعة عشر قرناً التالية) لهو أمر يدل على الشجاعة الكبيرة التي يتمتع بها ذلك الرجل. والأكثر جرأة منه من يقدر ليس فقط على ذكر مدينة واحدة فحسب بل ثلاث مدن مماثلة على التوالي... إنه لأمر بعيد الاحتمال، ولو فعل محمد ذلك لكان يتوجب عليه أن يكون أحمقا من الناحية التاريخية ومحظوظاً كذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن المسلمين يفترضون أن ربّنا العليم القدير يعلم أنه بعد مرور ألف وأربعمائة عام [من نزول الوحي] سوف تصبح إرَم، وعاد، وقوم ثمود أدلّة واقعة لعصرنا الحالي، ولكي تثبِّت إيمان الأجيال القادمة.

الآن فهمت لماذا يعتقد المسلمون أن إحدى معجزات القرآن هي أنه .. كتاب أبدي، صالح لكل زمان، على الرغم من أنه أوحي به منذ ١٤٠٠ عام تقريباً، وأن معجزاته ما فتئت تظهر إلى يومنا هذا.

## ٦: الدليل الرابع ... علاقة الوحي بأحداث معاصرة

**لولا أن الحقيقة تعلن دوماً وقائع مريرة، لغدت أكثر انتشاراً بين البشر.**

هنري هـ. هَسْكِنْز Henry H. Haskins

إن حقيقة نزول بعض نصوص القرآن في أوقات تناسب وقوع أحداث جرت يجب ألا يكون ذلك الأمر الخاص مثيراً للدهشة. بل إن المدهش حقاً ليس فيما تضمنه ذلك التنزيل، بل فيما لم يتضمنه.

فعلى سبيل المثال، عاش محمد بعد وفاة حبّه الأول خديجة، وهي السيدة التي كانت امرأته الوحيدة على مدار خمس وعشرين سنة، وكانت رفيقة حياته التي أمضى معها زهرة شبابه. توفيت بعد عامين طويلين مؤلمين عزل خلالهما مشركو مكة محمداً وأتباعه، واضطهدوهم، وأجاعوهم. رحلت امرأته الأولى التي بقي مخلصاً لها وحدها دون سواها طوال فترة زواجها وطوال فترة شبابه، ورحل معها كل سني الحب، والدعم، والرعاية، والحنان. رحلت الزوجة التي كانت أول من آمن بنبوته، والتي أنجبت له سبعة من أبنائه الثمانية. لقد كانت المخلصة التي كرست نفسها له لدرجة

أنها أنفقت ثروتها وضحت بعلاقاتها القبلية في سبيل تأييده ودعمه. بعد هذا كله .. غابت عنه.

يدندن الموسيقيون طوال حياتهم حول حبهم المفقود، وينقش الفنانون هيامهم على الرخام وعلى قماش القنّب، ويملأ المصوّرون ألبوماتهم بذكريات كبيرة، في حين يسكب الشعراء عواطفهم على الورق بمداد قوامه الحسرة والأسى. إلا أنه وخلافاً لما قد يتوقعه المرء، فإن اسم خديجة لم يرد في القرآن، ولو مرة واحدة. فالقرآن يشير إلى زوجات فرعون، ونوح، ولوط، إلا أن خديجة لم تذكر ولو ذكراً عابراً. لماذا؟ هل لأنها لم تكن محبوبة مثلاً؟ كلا! فعندما أصبح لمحمد العديد من الزوجات فيما بعد، عُرف عن أحبهن إليه أنها لم تَغَرْ من امرأة قط مثل غيرتها من خديجة وذلك لأن محمداً كان يذكر خديجة كثيراً بالحب والاحترام. وقد رد ذات مرة على تعليق لعائشة عن خديجة قائلاً:

"آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها، وحرم ولد غيرها".[٧٧]

ومع ذلك فهذه المرأة التي ملأت على محمد حياته وعقله لم تذكر في القرآن قط. وبالمناسبة فإن القرآن لم يذكر والد محمد (الذي توفي قبل ميلاده). ولا أمه (التي توفيت عندما كان طفلاً)، وكذلك لم يذكر زوجه

---

٧٧. مسند أحمد

خديجة، ولا أحد من أبنائه أو بناته ... ولم يتضمن الإشارة إليهم.

يزعم الكثير من المستشرقين أن القرآن ليس بالوحي الحقيقي بل من بنات أفكار محمد. ولكن ما يضعف هذا الزعم هو الحقيقة المذهلة، وهي أن المرأة الوحيدة المذكورة بالاسم في القرآن هي مريم وأنها امرأة من بني إسرائيل وأم لعيسى ... ويذكرها القرآن بإطراء. بل إن سورة كاملة في القرآن تحمل اسمها. وهنا يتساءل المسلم إن كان يمكن لهذا أن يكون نتاج عقل بشري. فالافتراض أن محمداً كان نبياً دعيّاً، والزعم بأنه كان على وعي بنساءٍ ملأن حياته ومخيلته – ومع ذلك يُقصيهن من الوحي الذي زعمه من أجل التركيز على امرأة إسرائيلية، وأم لنبي إسرائيلي – من شأن ذلك كله أن يصطدم بمسار التوقعات المعقولة.

شهد محمد في حياته وفاة أبنائه الأربعة. كما توفيت قبله جميع بناته إلا واحدة. وقتل عمه الذي كان يحب وهو حمزة في المعركة ومُثّل بجثته تمثيلاً مروعاً. كذلك تعرّض محمد وأتباعه للاعتداء والضرب والمهانة تعرّضاً منظماً كما قتل بعضهم في مناسبات مختلفة. وذات مرة ألقيت على ظهر محمد بينما هو ساجد في الصلاة فضلات جَمَل ذبيح ... وكان من شأن هذه الفضلات أن طرحته أرضاً إلى أن جاءت ابنته فاطمة وأزالتها عنه. وللجمال رائحة تزكم الأنوف وهي حية .. وعلينا أن نتخيّل رائحة أحشائها في تلك الشمس الاستوائية وهي ميتة. ثم إن علينا أن نتخيّل منظر أحشاء الجمل المتعفنة وسوائل جيفته المتحللة تسيل على جسم النبي ورأسه وهو ساجد، ونتخيّل أدوات الغسل البدائية التي كان يمكن اللجوء

إليها في زمن لم يكن فيه للصابون وجود بعد.

مثل هذه الأحداث لابد أنها آلمت ذاكرة محمد، ومع ذلك فإننا لانقع على ذكر لها في القرآن.

وفي المقابل، وفي نظرة أكثر إيجابية نقول إنه عُرف عن محمد اهتمامه الشديد بصحة الفم ورائحة النَّفَس. فقد كان يستاك قبل كل صلاة أي خمس مرات على الأقل يومياً، كما علَّم أصحابه تنظيف اللسان أيضاً، هذا قبل اكتشاف أن المصدر الرئيس للبَخَر هو اللسان وذلك بأكثر من ألف وثلاثمائة عام. كانت النظافة إحدى هواجس النبي، وهي ممارسة ارتبطت بصلاة المسلم. فهل ذكرت في القرآن؟ لم تذكر ولو مرة واحدة.

كما بيّن محمد أن لكل داء دواء. وسواءً أصحّ ذلك أم لم يصح بعد، فإن الأحاديث الثابتة تروي أن هذا ماكان يؤمن به إيماناً جازماً. إذاً، لماذا لا نجد القرآن مليئاً بصنوف العلاج؟ فالإشارة الوحيدة في القرآن إلى منتج ذي قيمة دوائية هي الإشارة إلى العسل:

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (القرآن الكريم ١٦ :٦٩).

وليس بوسع أحد أن يجادل في هذه المسألة، لاسيما شركات أدوية

احتقان الحلق ونزلات البرد والأنفلونزا.

إذاً فالقرآن مذهل من حيث إن مضمونه لا يعكس أفكار محمد وأفعاله، بل في الحقيقة أن القرآن يفعل نقيض ذلك تماماً في بعض الحالات، مصححاً أخطاء في حكم النبي على بعض الأمور.

فعلى سبيل المثال، تحدد العديد من النصوص القرآنية مسائل مرتبطة ارتباطاً مباشراً بمحمد وأصحابه، أو تلقن دروساً بشأن أحداث معاصرة. ومثل هذه النصوص كثيرة ومتعددة. فبدلاً من أن يوافق القرآن حكم محمد، تراه يحذّر من أخطاء بعض المؤمنين أحياناً ويصحح لمحمد نفسه أحياناً أخرى. ففي سورة عبس (السورة ٨٠) عاتب اللهُ محمداً لأنه أعرض عن مسلم أعمى أراد أن يسأله عن الإيمان، في الوقت الذي كان محمدٌ يخاطب قوماً كان يعتقد أنهم أكثر أهمية من هذا الأعمى. وكان الخطأ في الحكم مفهوماً، إلا أنه بالمحصلة كان خطأً قد وقع ولابد من تصويبه.

وفي مناسبة أخرى يعاتب الوحي محمداً لامتناعه عن تناول العسل (بعد أن تراءى له الاعتقاد بأنه يتسبب في البَخَر — القرآن الكريم ٦٦: ١)، وعاتبه لتوجيه دعيّه بأن يمسك عليه زوجه في الوقت الذي كان الطلاق لهما أفضل (القرآن الكريم ٣٣: ٣٧)، وعاتبه على استغفاره للمنافقين (الذين حرموا رحمة الله لإصرارهم على العناد — القرآن الكريم ٩: ٨٠). وقد بلغ العتاب على خطأ الحكم بشأن دعيّه زيد وزواجه غير السعيد بزينب درجةً من الإحراج حتى إن زوجه عائشة علّقت فيما بعد قائلة: "لو كان محمد مُخفياً شيئاً من الوحي لأخفى هذه الآية [الآية ٣٧

من سورة الأحزاب]". (٧٨)

وفي إحدى الحالات صُحِّح رأي محمد لأنه كان انتقامياً. (٧٩) (م.ت.) وفي مناسبة أخرى، صُحِّح بسبب لين فؤاده. (٨٠) (م.ت.) وعلى الرغم من أن مثل هذه الأخطاء كانت نادرة لكنها تؤكد أن محمداً لم يكن إلا بشراً. (٨١) (م.ت.) كما أن هذه الأخطاء تؤكد بالمثل على صدق محمد وذلك لأن أخطاءه كانت تستوجب تصويب الواحد الأحد لخليفته على الأرض وإلا عُدّت هذه الأخطاء جزءاً مما كان يوحى إليه. وخلافاً لكل نبي زائف كان

٧٨. رواه البخاري

٧٩. فعندما رأى محمد عمه المحبوب حمزة وقد قُتل في المعركة ومُثِّل بجثته تمثيلاً شنيعاً، أثيرت عواطفه حتى إنه توعد بأن يفعل الشيء ذاته في سبعين من خيرة فتيان أعدائه. فأنزل الله الآيات ١٢٦-١٢٨ من سورة النحل تنهى عن الإسراف بالقتل وتحض على الصبر وضبط النفس. وبعد ذلك بسنوات، فتحت مكة على يد المسلمين وقدمت المرأة التي أمرت بقتل حمزة على محمد [هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان وعفا عنها].

٧٩. وفداء مجموعة من الأسرى الذين كانوا رجالاً ممن جاهر سفيان]. وهند هذه لم تأمر بقتل حمزة وحسب، بل بقرت بطنه واستخرجت كبده ولاكته، ومع ذلك قَبِلها محمد وعفا عنها.

٨٠. وفداء مجموعة من الأسرى الذين كانوا رجالاً ممن جاهر بالعداوة لله وتم أسرهم في أثناء قتالهم للمسلمين. وهؤلاء كانوا يعدّون المسلمين أعداء لا لشيء إلا لأنهم كانوا يؤمنون بالله كما جاء في سورة الأنفال الاية ٦٧.

٨١. لابد من إثبات أمر في هذا الموقف وهو أن المسلمين السنّة حسّاسون تجاه حقيقة وهي أن محمداً بشر مثل سائر البشر وبالتالي فهو غير معصوم عن الأخطاء البشرية أو منزه عنها، ومن هنا فقد أساء بعض "المسلمين" تفسير هذه الحقيقة، وبالتالي فقد شككوا ببعض أقواله وأفعاله تبعاً لأمزجتهم الشخصية. إن مثل هؤلاء يأخذون من السنة النبوية مايريدون، ويتنصلون من الأخذ منها بما لاتهوى أنفسهم على نحو اصطفائي متذرعين بحجة مفادها أن حكم محمد فيما يتعلق ببعض المسائل كان حكماً غير صائب. ولكن العنصر الجوهري في العقيدة الإسلامية الذي دار حوله النقاش في هذا المجال هو أن الإسلام يعلّمنا أن ماجاء من أخطاء خلال حياة النبي قد تم تصحيحها لأن الله لايسمح لأقوال رسوله أو أفعاله أن يعتريها الخطأ. ومن هنا نقول إنه في حين كانت تقع بعض أخطاء الحكم النادرة التي تعبر عن إنسانية الرسول كونه من بني بشر، لكنه سرعان ماكان يأتي التصحيح المباشر الذي يعبر عن كمال الخالق، وهو التصحيح الذي أراد أن يبلغه عبر الوحي وعبر القدوة الحية لنبيّه.

من شأنه التستر على هفواته وأخطائه، فإن محمداً نقل الوحي الذي كان من شأنه أن يخلّد تلك الأخطاء ويخلّد معها عتاب الله له وتصويبه لتلك الأخطاء.

فها نحن أمام رجل يقول أن كل حرف جاء به هو من عند الله، بما فيه الآيات التي صححت أخطاءه وأمرته بالتوبة. إنه لأمر غريب جداً ويصعب شرحه لو قدّر لنا أن نتخيل أن القرآن كتبه نبي زائف. لأن أدعياء النبوة إما أنهم كاذبون أو مضلّلون، وكلا الصنفين من البشر يحاول دوماً بناء الثقة عند أتباعهم وذلك عن طريق تصوير أنفسهم أنهم قد بلغوا الكمال. إن هذه المعايير لا تنطبق على مؤلف القرآن. فإن لم يكن القرآن من صنع البشر، فمن الذي جاء به؟

## ٧: الدليل الخامس ... علاقة الوحي بأحداث لاحقة

**لا أدري ماذا يمكن للمستقبل أن يخبئ ولكنني أعرف من يعلم خباياه.**

رالف أبيرناثي Ralph Abernathy

علق ألبرت آينشتاين Albert Einstein تعليقاً حكيماً قائلاً مرة: "لا أفكر في المستقبل بتاتاً لأن المستقبل يأتينا في الحال". أما المشكلة فهي أنه عندما يأتي المستقبل فعلاً، فإنه غالباً مايكون نقيض التوقعات، وهنا تكمن صعوبة التنبؤ. إن الوحيد الذي يستطيع أن يعرف المستقبل بكل يقين هو ذاك القادر على تحديده. أما الآخرون الذين يحاولون اللعب بالتنبؤات فسرعان ماتتكشف محدودية قدرتهم البشرية غير المعصومة، وذلك لأن الأحداث المستقبلية سرعان ما تبرهن على أخطائهم إن لم يكن برهاناً كلياً فبرهان لبعض الوقت.

فصلاحية نبوءات الكتاب المقدس لا تعدّ مفاجأة لأولئك الذين يفترضون أن جُلَّ ماجاء فيه هو من عند الله. والأمر ينطبق على القرآن الكريم. وأما المشكلة فهي مع من يعد القرآن من صنع البشر أمام الدقة

المذهلة لتنبؤاته.

وعلى خلاف العديد من الكتب، بما فيها الكتاب المقدس، يؤكد المسلمون أن ليس هناك تنبؤاً واحداً محدداً مما ورد في القرآن يمكن مهاجمته من وجهة نظر تاريخية أو علمية. وفي الحقيقة فإن الذين سَعَوْا لتفنيد ماجاء في كتاب المسلمين المقدس مافتئوا يفعلون ذلك على مدار ألف وأربعمائة عام خلت سعياً منهم لاكتشاف حلقة ضعيفة في التنبؤات القرآنية. ولم يتحقق هدفهم هذا إلى اليوم، إذ لم يتمكنوا من اكتشاف خطأ فيه. ولهذا السبب نلاحظ أن الذين ينتقصون من قدر الدين الإسلامي يركّزون انتقاداتهم بشكل رئيس على مسائل عاطفية، كقولهم بأن الممارسات الإسلامية تبدو مقيتة في المجتمع الغربي. بمعنى آخر، يخبرنا هؤلاء عمّا يكرهونه في الإسلام، بدلاً من تركيزهم على الأدلة المقدمة على أنها تمثل تحدياً ربانياً. وفي الحقيقة فإن هذا يمثّل في أحسن حالاته منهجية استعلائية.

يتوجب علينا أن نتذكر هذه الظاهرة جيداً، لأنه في الحقيقة ليس هناك كتاب في التاريخ نجح في تنبؤاته نجاحاً تاماً سوى القرآن. اختر كتاباً سواء أكان هذا الكتاب لفيلسوف، أم لعرّاف، أم لمتنبئ، وسوف تجد بين ثناياه بضع نبوءات قد تحققت، ولكنك سوف تجد أن الكثير الكثير غيرها لم يتحقق. غير أننا لانجد هذا الأمر في حال القرآن الذي تحول دقة نبوءاته بينه وبين كلّ نقد عقلاني.

فعلى سبيل المثال، وفي وقت مبكر من تاريخ نزول القرآن، وبينما كان

المسلمون ما زالوا أقلية مضطهدة تعيش في مكة، نزلت آية (في سورة القمر) وعدت بانتصار المسلمين (في المعركة) على مشركي قريش (والذين كانوا يمثلون الأغلبية في مكة آنئذ):

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾

(القرآن الكريم ٥٤: ٤٣-٤٥).

وكان المسلمون آنذاك قلة من البشر، ضعفاء يضربهم المشركون وهم الأغلبية الساحقة ويقتلونهم قتلاً منتظماً. وبعد ذلك بخمس سنوات، عندما هاجر المسلمون إلى المدينة، وكانوا لا يزالون مستضعفين حتى إن قريشاً القبيلة الكبرى في مكة، استطاعت أن تصادر أراضيهم، وممتلكاتهم، وثروتهم، وتحتجز زوجاتهم، وتعذب وتقتل القلة من البؤساء الذين كانوا يفتقرون لحماية قبلية. ولم يكن المسلمون يشكلون قوة يعتد بها بعد، بل كانوا قلّة مستضعفة معرّضة للتطهير والإبادة. ومما كان يذيق قريشاً حلاوة قتل المسلمين وكأنه الشراب الذي يُسكب فوق حلوى الكنافة،[٨٢] (م.ت.) هو أن الآيات التي تأمر المسلمين بمقاومة الظلم لم تكن قد نزلت بعد. وفضلاً عن ذلك، ففي مجتمع كانت روابطه الأسرية من المتانة بحيث يصعب العصف بها، فإن مفهوم إعلان الفرد الحرب على قبيلته وأهله

---

[٨٢]. حلوى عربية تقليدية تتألف من طبقات من الدقيق الناعم والمكسرات وتوضع فوقه القشدة أو الجبنة المسالة، ويزيّن بحب الهال ويسكب فوقه الشراب الممزوج بالقرفة والقرنفل.

ببساطة غريباً على خيال أشد الموتورين اجتماعياً.

ومن هنا فإن كُنه هذه الآية بالنبوءة لم يدركه الكثيرون لدرجة أن عمر بن الخطاب (الذي أصبح فيما بعد الخليفة الثاني) تساءل عندما سمع الآية تتلى: "أي جمع هو الذي سنهزمه؟"[٨٣] فحتى عمر لم يدرك آنئذ أن آية الوحي تلك كانت في الحقيقة تتحدث عن المسلمين أنهم سوف يغلبون قريشاً القبيلة التي كان عمر ينتمي إليها. ولم يؤمر المسلمون بالقتال ضد التعجرف والاضطهاد إلا في وقت لاحق، ولم يكن عددهم كافياً لفعل ذلك إلا فيما بعد. ثم نزلت الآية التالية من سورة النور في وقت لاحق في مكة، قبل هجرة المسلمين إلى المدينة:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢٤: ٥٥).

وكما تنبأت سورة القمر (الآيات ٤٣–٤٥) أعلاه، فإن "الجمع"

---

[٨٣] Sa'eid Hawwa. 1990. *Ar-Rasool Sala Allhu Alayhi Wasallam*. Second Edition. Cairo: Dar As-Salaam Publishing. p.282-283.

الذي فاق عددهم عدد المسلمين بأربعة أضعاف ونيف، فرض عليهم القتال "وولوا الأدبار" في معركة بدر، حيث تمكن المسلمون من الانتصار عليهم وتكبيدهم خسائر فادحة. وبدلاً من قضاء قريش على المسلمين بمجزرة كما كان متوقعاً من قريش التي كانت تفوقهم عدداً وعدّة، فإننا نجد أعداد قتلى قريش تفوق أعداد موتى المسلمين بـ خمسة إلى واحد. وقد روي عن كلا الفريقين رؤيته لملائكة تقاتل في صفوف المسلمين مما دفع بقريش كي تولّي الأدبار.[٨٤] [٨٥]

وفي وقت لاحق وتحقيقاً لما تنبأت به سورة النور أحرز المسلمون انتصاراً حاسماً عندما استردوا مكة بسلام في العام الثامن بعد الهجرة.[٨٦](م.ت.) وتحقيقاً للنبوءة، فقد بدّل الله خوفهم وعدم استقرارهم أمناً وسلاماً، وذلك بسبب التمكين لهم في القوة والدّين.

أما السلام والأمن اللّذان وجدوهما في مكة فهما تحقيق للآية القائلة:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ

---

٨٤. Lings, Martin. 1990. *Muhammad, His Life Based on the Earliest Sources*. *The Islamic Text Society*. p.148

Al-Mubarakpuri, Safi-ur-Rahman. 1995. *Ar-Raheeq Al-Makhtum (The Sealed Nectar)*. Riyadh: Maktaba Dar-us-Salam. pp. 210.

٨٦. A.H. أي After Hijra "بعد الهجرة" وهو التقويم الإسلامي العائد إلى هجرة النبي من مكة إلى المدينة في شهر تموز من العام ٦٢٢ ميلادية.

رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢٨: ٥٧).[٨٧]

وكذلك للآية:

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَـٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢٩: ٦٧).[٨٨]

وكما تنبأ القرآن فإن مكة لم تبق "حرماً آمناً" إلى يومنا هذا وحسب، ولكن على الرغم من الأرض القاحلة والمناخ الصحراوي القاسي فإن وفرة محالّ المواد الغذائية والفواكه تشهد على هذا الوعد ... "يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا".

قد يبدو ذكر الثمرات والرزق في الوحي غريباً للوهلة الأولى، فما الغرض إذاً لمثل هذا الذكر؟ ولو وضعنا التكهنات جانباً، فإن الحقيقة أن مثل ذاك الذكر قد وقع حقاً، وعلى الرغم من الأرض البركانية القاحلة، والمناخ الصحرراوي القاسي، والعزلة الجغرافية، مافتئت مدينة مكة المكرمة تتمتع منذ ذلك الحين بوفرة من الرزق منقطعة النظير.

وفيما يتعلق بفتح مكة المذكور أعلاه، نزلت الآية التالية:

---

٨٧. MuhammadAl-Hilali and Muhammad Khan translation

٨٨. المرجع السابق

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ . وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا . فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ (القرآن الكريم ١١٠: ١-٣).

في أعقاب فتح مكة ودخولها في حظيرة الإسلام، بدأ الناس من القبائل والمجتمعات كافة في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية بالتوافد إلى مكة كي يقدموا الولاء لمحمد. ومثل هذا التاريخ من التحول الكلي الطوعي يعد تحدياً للأعراف الدينية. ومع ذلك، تنبأ به القرآن.

فقبل فتحهم لمكة واجه المسلمون ابتلاءات كبيرة، إذ حوصر الكثير منهم بين معارضة الكفار، وخيانة المنافقين بين صفوفهم. وأما في المدينة، فقد جوبه المسلمون بنقض قبائل اليهود من بني النضير لمعاهدتهم مع المسلمين، ولكنهم سرعان ما تم إجلاؤهم عن المدينة في غضون عشرة أيام. وتعهد عبد الله بن أُبيّ، رأس المنافقين في المدينة، بمساعدة بني النضير بجيش قوامه ألفا رجل، ووعد باللحاق باليهود إذا ما خرجوا من المدينة أو أُجلوا عنها. وكانت الأيام التالية لذلك فترة عصيبة بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يتواسون بالوحي:

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ

مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٥٩: ١١-١٢).

مع إجلاء بني النضير في غضون عشرة أيام وهي المهلة التي أعطيت لهم تبددت مخاوف المسلمين. وتصديقاً للنبوءة القرآنية فإن المنافقين لم يرافقوهم ولم يدافعوا عنهم. وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون لا يزالون مستضعفين وعرضة للمخاطر، فإن كلّ التنبؤات، كتلك المذكورة أعلاه، كان يمكن أن ينظر إليها بأنها إما بارقة أمل كبرى، أم ضرب من الجنون فيما لو كانت صادرة عن بشر.

وعلى مثل هذا يمكن قياس التنبؤ التالي، الذي كان يمكن النظر إليه بالمنظار عينه لو كان صادراً عن بشر أيضاً:

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (القرآن الكريم ٤٨: ١٦).

فلو قدر لنا أن نضع أنفسنا في مثل تلك الظروف، لأخذنا نتساءل

كيف يمكن لشعورنا أن يكون كمعتنقين جدد للإسلام فيما لو طلب إلينا الانضمام لقتال "قوم أولي بأس شديد"؟ من المؤكد أن وحي هذه الآية كان يمكن ان يُعدّ مثبطاً للهمم أو أن يكون طريقة خاصة جداً لبث روح الشجاعة في الأتباع إذا كان صادراً عن قائد بشري ما. ولكن القرآن جاء بالنبوءة، وبعد سنوات قليلة من وفاة محمد لم يقارع المسلمون أعظم إمبراطويتين على وجه الأرض حينئذ — وهما الرومانية والفارسية — وحسب بل هزموهما شر هزيمة، وهما الإمبراطوريتان اللتان كانتا "... أولي بأس شديد". هل يمكن لنا أن نتخيل أن محمداً كان حشد أحداثاً لتكون مصداقاً للوحي الذي كان ينقله لأتباعه؟ هل كان يمكن له أن يهاجم الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية لجعل ماجاء به من وحي حقيقة واقعة؟

كلا طبعاً، ذلك أن محمداً قضى قبل أن تتحقق هذه النبوءة. وعلى كلّ حال، من الذي كان من شأنه أن يتنبّأ لعُصْبة ما كان يمكن لها أن تهزم إحدى هاتين الإمبراطوريتين، فضلاً عن هزيمة كلتيهما؟

إن إحدى أكثر نبوءات القرآن الكريم المثيرة للاهتمام هي ماورد في السورة ١١١ من القرآن الكريم وهي سورة المسد، وهذه السورة تنص على أن أبا لهب (وهو أحد أعمام محمد) وامرأته هما من أهل النار. من الواضح تماماً الآن أنه لا أحد يستطيع أن يكون شاهداً على المصير النهائي لأبي لهب وامرأته، ولكن الإسلام يعلّمنا أن المسلمين جميعاً سوف يُنَجّون في نهاية المطاف من النار يوم القيامة. ولكن لماذا؟ لأن الإسلام يعلمنا أن الله

قد يعاقب المؤمنين على معاصيهم التي لم يتوبوا عنها وقد يغفر لهم، ولكنه في النهاية لابد أن ينجي المسلمين جميعاً من النار ويدخلهم الجنة وذلك مكافأة لإيمانهم. هذا مايؤمن المسلمون به والذي يعد أحد أركان عقيدتهم.

ولكن ماصلة هذا بنبوءة الآيات التي تتعلق بأبي لهب وامرأته؟ الجواب بسيط. لقد كان أبو لهب من ألدّ أعداء محمد، وكان يبغضه ويتمنى له الموت. وقد دفع به حقده أن يتتبع خطا محمد أينما حل في أزقة المدينة وهو يناقض قوله ويسفّه رأيه. ونسأل إذاً لماذا عندما أُنزلت سورة تقول إن أبا لهب لن يتوب، لم يقف الرجل نفسه ويعلن توبته على رؤوس الأشهاد؟ الجواب هو أن أبا لهب نذر نفسه لمعاداة محمد. وكل ما كان عليه وعلى امرأته فعله كي يصبحا مسلِمَيْن هو النطق بالشهادة، سواء أكان ذلك انطلاقاً من إخلاصهما أو نفاقهما، ولو فعلا ذلك معاً أو كلاً على حده، لكانا أوجدا نزاعاً كافياً إما لتشويه الدين أو لتدميره. وبعبارة أخرى، لو كان أبو لهب وامرأته أعلنا توبتيهما لوجب القول إما أن تكون سورة المسد خاطئة، أو أن القول بأن جميع المسلمين سوف يُغفر لهم وينعم عليهم بالجنة في نهاية المطاف وهذا أمر مبني على التناقض. وكلتا الحالتين من شأنها أن تفند مزاعم الوحي وهذا ماكان يصبو إليه المراقبون.

لماذا إذا لم يقدم أبو لهب أو امرأته أو كلاهما معاً على إعلان التوبة، أو ادّعائها؟ من المؤكد أنهما لم يكونا بحاجة للوقت للتفكير بها إطلاقاً.

نزلت سورة المسد لتنبئ بمصير أبي لهب ما بين السنة الثالثة والرابعة قبل

الهجرة (ق.هـ.). ومات أبو لهب في السنة الثانية بعد الهجرة.(٨٩) وماتت امرأته بعد ذلك بستة أعوام تقريباً.(٩٠) وهكذا كان أمام أبي لهب أكثر من خمس سنوات، وأمام امرأته عشر سنوات للدخول في الإسلام. ولا شك أنه كان هناك مسلمون يلحّون عليها للدخول في دين الله، ولاشك أن أعداء الإسلام من أصدقائهما كانوا يدفعون بهما إلى الاتجاه الآخر. علينا أن نتذكر منظومة هذين الزوجين الأخلاقية بما فيها الكذب، وتعذيب المؤمنين وقتلهم، ونسأل لماذا أحجما عن النفاق بعدم إعلان الإسلام رياءً؟

يرى بعض المسلمين أن أمراً واحداً هو الذي أمسكهما عن فعل ذلك، وهو أنه لم يؤذن لهما. فالواحد الأحد الذي يشرّع قوانين الحياة، والذي ينعم على بني البشر بالعقول والأبدان (التي لابد أن تُردّ إليه في نهاية الأمر)، والذي يقدر على فتح أفواه العباد وعقولهم وقلوبهم أو إغلاقها .. هو وحده من يقدر على المجيء بأقوى المزاعم وأيقن التنبؤات. لماذا؟ لأنه ليس فقط من يعلم المستقبل، بل من يقدّره. وإذا لم يشأ لبضع كلمات أن تخرج من بين شفتي أحد من خلقه فإنها من المؤكد لن تخرج وذلك إنفاذ لمشيئته. ويقول المسلم أنه ليس بوسع إنسان أن يقطع وعوداً كتلك الواردة في سورة المسد إلا الواحد الأحد الذي لن يسمح بحدوث

---

٨٩ Hammad. Ahmad Zaki. 1997. *Father of Flame. Commentary & Vocabulary Reference of Surah - al-Masad* . Bridgeview, Illinois: Quranic Literacy Institute. P.42.

٩٠. المرجع السابق

تناقض في كتابه.

إن مثال النبوءة أعلاه مؤثر تأثيراً مضاعفاً، ليس فقط بسبب جرأة القول فيه، بل أيضاً لتكرار المثال ... فسورة المدثّر (القرآن الكريم ٧٤: ١١—٢٦) تلعن عدوّاً آخر من أعداء محمد وهو الوليد بن المغيرة المخزومي.[٩١] فقد قاد هذا الرجل ائتلافاً من المعادين لمحمد ضد القرآن الكريم في محاولة منهم لنقده. إن قصة الصراع بين الإدراك الداخلي والاعتراف العام تمثّل أجمل تمثيل لتغلّب عواطف الاستكبار على التفكير العقلاني.

والقصة كانت كمايلي: سمع الوليد محمداً يتلو القرآن وبدا أنه قد رقّ له. وقرر أن تلك التلاوة لم تكن شعراً، ولا سحراً، ولا مسّاً من الجنون، بل لابد أن يكون كلام الله. وعندما سمع أبو جهل بهذا (وهو عدو آخر لمحمد) توجه إلى الوليد واتهمه بمحاولة التقرب من النبي، وقال إن قريشاً تتحدث عن تلك الإشاعة. فانزعج الوليد، نزولاً عند كبريائه، وأجاب: "قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، وأني لا أحتاج محمداً في شيء". قال أبو جهل: "فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له". فأجاب الوليد قائلاً: "وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني

---

٩١. Al-Hilali, Mohammad, Ph. and Dr Muhammad Muhsin Khan, M.D. *Interpretation of the Meaning of the Noble Qur'an in the English Language: A Summarized Version of Al- Tabari, Al- Qurtubi and Ibn Kathir with comments from Sahih Al- Bukhari. Surah 74, Ayah 11.*

ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه يعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته". قال أبو جهل: "لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه،" قال: "فدعني أفكر"، فلما عاد ليجتمع بقادة قريش لتقدير ما سيقوله في محمد، قال بعضهم إن محمداً ساحر، وقال آخرون كاهن، وقال غيرهم بل هو مجنون. قال الوليد: "كل ما قلتموه فيه أعلم أنه غير صحيح، لكن أقرب هذه الأوصاف أنه ساحر، لأن الساحر يفرق بين الابن وأبيه، والأخ وأخيه، والزوج وزوجه، والشخص وقبيلته".[٩٢]

وعلى هذا نقول إن هذا أيضاً هو أثر الوحي، فمن قبيل المصادفة أنه رُوي عن المسيح عيسى: «أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ أَقُولُ لَكُمْ! بَلِ انْقِسَاماً. لأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الآنَ خَمْسَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ مُنْقَسِمِينَ: ثَلاَثَةٌ عَلَى اثْنَيْنِ وَاثْنَانِ عَلَى ثَلاَثَةٍ. يَنْقَسِمُ الأَبُ عَلَى الاِبْنِ وَالاِبْنُ عَلَى الأَبِ وَالأُمُّ عَلَى الْبِنْتِ وَالْبِنْتُ عَلَى الأُمِّ وَالْحَمَاةُ عَلَى كَنَّتِهَا وَالْكَنَّةُ عَلَى حَمَاتِهَا» (لوقا ١٢:٥١—٥٣).

ربما خرجت عن الموضوع ولكن ماأردت القول هو أن الوليد أذعن لكبريائه، وعلى إثر ذلك نزلت هذه الآيات:

﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا . وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالاً

٩٢. *Tafseer Ibn Kathir*

مَّمۡدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا . ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ . كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَـٰتِنَا عَنِيدًا . سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا . إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ . فَقَالَ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ يُؤۡثَرُ . إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ . سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ (القرآن الكريم ٧٤: ١١–٢٦).

نزلت هذه الآيات قبل عشر سنوات تقريباً من وفاة من نزلت فيه وهو الوليد بن المغيرة المخزومي.(٩٣) وهكذا وللمرّة الثانية فإن جرأة النبوءة القرآنية تطرح نفسها للتحليل: إذ كيف استطاع مؤلف هذه الآيات أن يدرك المستقبل غير المنظور، وذلك أن الوليد لن يرجع عن غييه البتة وينطق بالشهادة؟ أو أن الوليد قد ينطق بالشهادة من قبيل النفاق، لا لشيء إلا لإبطال تعاليم الإسلام؟ وهل كان لنبي زائف أن يجازف بنبوّته المزعومة ويراهن على نبوءة محفوفة بالمخاطر وغير ضرورية مثل هذه النبوءة ؟

وللخوض في نبوءة أخرى من مثل هذه النبوءات بعيدة الاحتمال يتوجب علينا العودة للروم (أي الرومان The Romans)، والفرس ( The Persians)، ونسأل إن كان لنبي زائف أن يخاطر بسمعته على رمية أكبر

٩٣. Ibn Hisham, *As – Seerah An – Nabawiyyah* and Azzirikly, *Al – Aa'lam.*

مثل هذه:

نزلت الآيات ٢–٤ من سورة الروم في وقت انتصر فيه الفرس على الروم في القتال وذلك قبل أن ترد أنباء تلك المعركة إلى مكة. تنبأت هذه الآيات بانقلاب الموازين وانتصار روما على بلاد فارس في غضون سنوات من ثلاث إلى تسع. وكما يورد التاريخ، فقد احتفلت بلاد فارس بانتصارها على روما في معركة أنطاكية وذلك في العام ٦١٣ للميلاد، وعلى إثر ذلك هُزم البيزنطيون Byzantines في دمشق، وطردوا من أرمينيا Armenia، وسحقوا في مدينتهم الغالية على قلوبهم القدس.[٩٤] استولى الفرس بعدها على خلقدونية Chalcedon في العام ٦١٧ للميلاد، وفتحوا مصر في العام ٦١٩ ميلادية.[٩٥،٩٦] بدا الوضع وكأنما الساحة خلت للفرس وأن الرومان قد دحروا للأبد. ولكن روما سرعان ما بدأت باسترداد نفوذها العسكري بقيادة هرقل Hercules الذي شنّ حملته التاريخية ما بين الأعوام ٦٢٢–٦٢٧ ميلادية. فقد دحر الرومان القوات الفارسية على الأراضي الأرمينية في العام ٦٢٢ ميلادية، أي بعد ثلاث سنوات من هزيمتهم في مصر، وبعد تسع سنوات من هزيمتهم في أنطاكية. وبذلك

---

٩٤. Ostrogorsty, George. 1969. *History of the Byzantine State*. (Translated from the German by Joan Hussey) New Brunswick: Rutgers University Press. p.95.

٩٥. Sykes, Sir Percy Molesworth. 1951. *A History of Persia*. 3rd edition. Vol. 1. London: Macmillan & Co. Ltd. p.483.

٩٦. Ostrogorsty, George. p.95.

تكون قد انحصرت قائمة هزائم الفرس المذكورة أعلاه في فترة تتراوح ما بين ثلاث إلى تسع سنين.[٩٧]،[٩٨] ونص الآيات ٢–٤ من سورة الروم هو كالتالي:

﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ . فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٣٠: ٢-٤).[٩٩]

عجيب هو أمر التاريخ، لأنه مع دنو هذا الوقت، كانت الإمبراطورية الرومانية في طريقها إلى الانحلال (فالمؤرخون يؤرخون لتاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية الفترة ٣٩٥-٤٧٦ ميلادية). فقد اخضع الفسغوثيون Visigoths روما في العام ٤١٠ للميلاد، ثم اكتسحها الونداليون Vandals والآلانيون Alani في العام ٤٥٥ ميلادية، كما اجتاح أتيلا الهون Attila the Hun المنطقة بعد ذلك الوقت بقليل، وفي أواخر ذلك القرن أُطيح بآخر أباطرة روما وذلك قبل أن تبدأ الإمبراطورية بالانقسام. وهكذا، فلو أن إنساناً في بداية القرن السابع الميلادي تنبّأ بأن إمبراطورية آخذة بالتفكك مثل الإمبراطورية الرومانية سوف تنتصر على

---

٩٧. المرجع السابق، الصفحات 101-100

٩٨. Sykes, Sir Percy Molesworth. Vol. 1. pp.483-484

٩٩. MuhammadAl-Hilali and Muhammad Khan translation

الجيش الفارسي الذي كان يبدو أنه متفوق على الجيش الروماني لبدت نبوءته ضرباً من الحكم المتسرع. وهذا ماحدث بالفعل من قبل رجال كانوا ينكرون الوحي من أمثال أبي بن خلف.

والقصة مروية في العديد من روايات التاريخ العربي. ولم يكن العرب ينظرون إلى الصراع بأنه مقصور على الصراع بين بلاد فارس وروما، بل بصفته صراعاً بين الوثنية وأهل الكتاب. فقد كان العرب المشركون يعدّون الفرس – عبدة النار – إخوانهم في الوثنية؛ وأما المسلمون فكانوا يعدّون الرومان أهل كتاب من المسيحيين، أي ممن يتّبع الأنبياء وسلسلة الوحي وبالتالي ممن يعبد الله. وكان بعض العرب يعتقدون أن النصر في المعركة يعكس تفوّق إله المنتصر. ومن هنا فعندما انتصر الفرس على روما، فرح بذلك العرب الوثنيون وأقاموا الاحتفالات. وعقب ذلك نزلت الآيات المذكورة أعلاه تربط على أفئدة المؤمنين. وعندما علم أبو بكر الصديق (خليفة المسلمين الأول بعد النبي) راهن أحد المشركين (أبى إبن خلف ) على أن نصر الفرس سوف ينقلب إلى هزيمة وأن روما ستنتصر في غضون ثلاث إلى تسع سنين كما جاء به الوحي. وبعد مضي تسع سنوات كسب أبو بكر قطيعاً من الإبل، ودخل موسوعة الأدلة الإسلامية دليل آخر.[١٠٠]

إن مايزيّن هذا التنبؤ في هذه الآية هو السطر الأخير ﴿...وَيَوْمَئِذٍ

[١٠٠] *Tafseer Ibn Kathir, Musnad Ahmad, Sunan Tirmithee ans An-Nasa'ee .*

يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (أي المسلمون). في زمن محمد كان نقل أنباء مثل تلك الأحداث يستغرق أياماً وأسابيع، وأحياناً شهوراً عبر تلك الصحراء. فكيف إذاً تنبّأ القرآن بأن المسلمين سوف يفرحون في اليوم الذي هُزم فيه الفرس؟ ولكن ذلك هو ما حدث بالفعل وذلك لأن هزيمة الفرس وقعت بالضبط في اليوم الذي احتفل فيه المسلمون بنصرهم على الكافرين في معركة بدر. فهل هذه مصادفة دنيوية أم تدبير رباني؟

هذا يكفي فيما يتعلق بـ روما.

ولنتحول الآن إلى الآية التاسعة من سورة الحجر، وهذه الآية فيها وعد الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (القرآن الكريم ١٥: ٩). والبيان مذهل من جوانب عدة. الصعيد الأول يمكن القول ببساطة هو أن هذا الوعد قد تحقق حتى يومنا هذا .. فالقرآن الكريم الذي لدينا اليوم لم يتغير عن الوحي الأصلي قط.

وكما ناقشنا في كتابنا السابق **"من فقدوا الله"** فإن حجم هذه المعجزة يصبح جلياً إذا ما عقدنا مقارنة بين القرآن وكتب الديانات الأخرى جميعاً، لأنه وبخلاف القرآن، لم يبق كتاب سماوي واحد على نقائه الأصلي بما في ذلك العهدان القديم والجديد.

وفي حين نجد أن الوحي الذي جاء به موسى من عند الله قد حُفظ جزئياً على ماييدو، فإن كتاب عيسى قد فُقد برمته.

والصعيد الثاني ذو الأهمية هو أن نبوءة الآية التاسعة من سورة الحجر

الواردة أعلاه كان يمكن لها أن تكون ضرباً من الحماقة وعدم الأهمية لو كان محمدٌ كاذباً. فلم يكن ليكسب شيئاً في حياته من مثل تلك النبوءات، ومن المؤكد أنه كان سيخسر كل شيء لو غيّر مكان حرفٍ واحد أو نُسيه — ولكان ثلاثمائة ألف حرف ونيف في خطر.

وفي موضع آخر من القرآن نواجه آية نبوءة أخرى شديدة الوقع غريبة، وهي الآية ٨٢ من سورة المائدة:

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٥: ٨٢).

وإذا ما أخذنا نبوءة هذه الآية ضمن سياقها، فإن ما يميّزها هي أن ألفاً وأربعمائة عام من التاريخ قد أثبتت حقيقتها. ليس هذا وحسب، بل لأن محمداً عقد عدة معاهدات تعاون مع العديد من مختلف القبائل اليهودية أيضاً. وبالنتيجة فإن هذه الآية كانت من بين الآيات التي تعرضت لخطر عدم التحقق في نبوءتها خلال فترة حياة محمد، إلا أن الحال لم يكن كذلك. فعلى الرغم من التوقع المنطقي بأن يقف اليهود في صف المسلمين الذين كانت تزداد قوتهم يوماً بعد يوم، لكن العديد من القبائل

اليهودية نقضت عمداً شروط كل معاهدة كانت وقّعتها، وهو منحىً نشهده اليوم في دولة إسرائيل الصهيونية التي دأبت وعبر سجل تاريخها الطويل في الأمم المتحدة على خرق اتفاقات السلام الموقعة في فلسطين.

وإنا لنعجب كيف أعفى محمدٌ حرّاسه من مهمة حراسته. فبما أنه كان يعيش في جو من البغضاء والخيانة، فقد تعرّض لعدة محاولات لاغتياله. وفي مناسبات عدة أخرى تعرّض للضرب المبرح، وللخنق بعباءته، و للقذف بالحجارة حتى سال الدم من حذائه. وقد حاولت إحدى القبائل إسقاط صخرة عليه وحاولت أخرى تسميم طعامه. كما استل أشخاص مختلفون سيوفهم لقتله في أوقات وأماكن متباينة فضلاً عن قيامهم بذلك في ميدان المعركة. وفي واقعتين مختلفتين حاول اثنان من البدو أن يسرقوا منه سيفه (إحداهما حينما كان نائماً في الصحراء، والأخرى حينما كان جالساً عند بئر) في محاولة منهما لقتله وهو أعزل، إلا أن أحداً منهما لم يستطع فعل ذلك إذ سقط السيف من أيديهما ولم يقدرا على الحراك. وليلة هجرته إلى المدينة أرسلت كل قبيلة ممثلاً عنها لقتل محمد بجهد موحّد للمشاركة في الفعلة ليتفرق دمه في القبائل. وتطول قائمة الأمثلة. وعليه لم يكن من غير المنطقي أن يستخدم محمد حراساً عند نومه. ولكن بعد نزول الآية التالية نفض عنه حرّاسه:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (القرآن الكريم ٥: ٦٧).

وحالما سمع محمد بوعد الله هذا في العصمة الربانية من بطش الناس، بادر في الحال لإبلاغ حرّاسه بالقول: "أيها الناس دعوني فإن الله سبحانه قد عصمني".[١٠١] وهذا ما تم له بالفعل.

بعد صرف محمد لحرّاسة استمرت المحاولات لقتله، إلا أن تلك المحاولات باءت جميعاً بالفشل. وعندما صعدت روح محمد إلى بارئها في نهاية الأمر، صعدت بينما كان محمد في منزله وبين جدران بيته، ورأسه بين ذراعي زوجه عائشة، وذلك بعد أن ألّم به مرض قصير لكنه مُميت. ما القصد من وراء القصة هذه؟ ففي زمان ومكان يشعر المرء فيهما بأن العالم بأسره خرج للقضاء عليه، نرى محمداً يسرِّح حراسه لا لشيء إلا بناءً على وعد رباني، وقد تحقق له ذلك.

إن في غرابة المشهد من الحقيقة ما لايمكن إنكاره. فأدعياء النبوة أناس شديدو الارتياب بحق. فعندما تتزايد أعداد المحاولات لقتلهم، تراهم يكثرون من أعداد حراسهم ويصبحون أكثر توقاً لمعرفة من يحيطون بهم. أما أن يُسرّح المرء الحرس زمن الحرب مع وجود سلسلة من محاولات الاغتيال في الماضي، فإن ذلك لا يستقيم والعقل الدنيوي. فلو كان القرآن من بنات أفكار نبي كذّاب لتوقّعنا نقيض ذلك تماماً، ولتوقعنا هذا "النبي"

---

١٠١. رواه الترمذي والحاكم

يُصدر وحياً زائفاً يحضّ المؤمنين من خلاله على حمايته من أعدائه. ولكن الأمور لم تحدث بهذه الطريقة مع محمد متحدية بذلك مرة أخرى البشرية لتدبر مصدر القرآن ووحيه. وفضلاً عن ذلك، من ذا الذي يملك القوة كي ينجز مثل تلك الوعود الجريئة بحمايةٍ مدى الحياة؟ من المؤكد أنه ليس من البشر؟

الموضوع الأخير في هذا الفصل يتضمن قصة مألوفة من العهد القديم. فقد كان فرعون طاغية اضطهد أمة، وكان يقتل وفقاً لنزواته، ويذبح أبناء اليهود خشية تكاثر نسلهم. وكما يعرف الجميع، فبينما كان جنود فرعون يتقاسمون الأدوار لقتل الأطفال في القرية، قذف البحر السلّة التي كان فيها موسى الرضيع على ضفة نهر قصر فرعون. وهكذا فبينما كانت الصخور الكبيرة تُرفع عن جثث العبيد المشوهة وتكوّم في أكداس وفقاً لمرسوم ملكي، ترعرع الطفل في ذاك البيت الملكي ليضرب مثلاً للعالم في الورع والتقى وخشية الله.

يحتدم الحديث في القصر مرتين، وتقع فيه بضع إشارات ربانية يتم تجاهلها، ثم تمر البلاد بعدها بعدة فترات من الوباء والطاعون، لينهض موسى بعد ذلك ويخرج بقومه وفقاً لما أمر الرب به. والمراد هنا ليس الطريقة التي رُويت بها القصة، بل ما آلت إليه في النهاية، وذلك أن مجداف فرعون المتطور لم يصمد أمام الأمواج العاتية التي وقفت كجداري ماء أطبقا على فيه الذي كان يأمر بالسوء دونما هوادة.

في الواقع أن القصة مشهورة لدرجة يصعب فيها تخيل أنها لم تلامس

أسماع محمد. والانطباع العام هو أن فرعون دُفن تحت مليوني طن من مياه البحر ليصبح هو وأعوانه طعاماً لحيتانه ، ولكن –وعلى خلاف ذلك – فقد حُفظت جثة فرعون. إلا أن القرآن لا يسجل من هذه القصة سوى ما نصّه:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (القرآن الكريم ١٠: ٩٢).

ولم يُكتشف جسد "مرنبتاه" المحنّط Merneptah، خليفة رمسيس الثاني Rameses II، والذي يُعتقد أنه "فرعون الخروج" الوارد ذكره في سفر التكوين وفق الكتاب المقدس ووفق الأدلة الأثرية التي عُثر عليها في طابا Thebes بوادي الملوك سوى في العام ١٨٩٨. [١٠٢] والجسد معروض بجانب مومياءات ملكية متنوعة في متحف القاهرة. ومن هنا فبعد أكثر من ألف ومائتي عام على حياة محمد، يبدو أن الوعد القرآني بإنجاء جسد فرعون كي يكون عبرة للأجيال اللاحقة قد تحقق. ولكن أنّى لمحمد أن يتنبأ بمثل هذا الاكتشاف وأن يتجشم عناء الخوض في مثل هذه التفاصيل التي لم تكن لتبدو أنها ضرورية؟ اللهم إلا إذا كانت تلك الكلمات ليست بكلماته.

---

١٠٢. Bucaille, Maurice. p.239

# ٨: الدليل السادس ... وحي الغيب (أي ما لم يعهده النبي)

**ما من أحد يقترب من الكمال إلا خِلْسة ودون أن يدرك ذلك.**

وليَم هازلِت Wialliam Hazlitt، **خواطر ومقالات، "في الذوق"**

لعل العنوان الأنسب لهذا الفصل هو "الأدلة العلمية" Scientific Evidence. إلا أن مثل ذلك العنوان قد يصدم الجمهور الغربي بصفته عنواناً غريباً، لأنه من الواضح أنه كان ينظر دوماً إلى مجالي المعرفة العلمية والفكر الديني أنهما مجالان متباعدان. وغالباً ما يُضرب مثالان مشهوران لذلك، وهما حالتا غيوردانو برونو Giordano Bruno (الذي أدين بالهرطقة وأعدم حرقاً في العام ١٦٠٠ ميلادية)، وغاليليو Galileo (الذي لم ينج من العقاب في العام ١٦٣٣ ميلادية إلا بعد أن أصدر تراجعاً عن آرائه). وكلاهما اضُطهد على أرضية تأييد نظرية كوبرنكوس Copernicos "الهرطقية" لكن الصحيحة أن الشمس هي المركز Heliocentrism (أي النظرية القائلة بأن الشمس هي مركز مجموعة الكواكب المعروفة حالياً بالنظام الشمسي)، والرافضة لنظرية بطليموس Ptolemic theory

المعْتَمدة رسمياً – على الرغم من عدم صحتها – والقائلة بأن كوكب الأرض هو المركز Giocentrism. ومن هنا جاء التصور الغربي بأن مجالي التحليل العلمي الدقيق والفكر الديني يمثلان عنصرين متنافرين.

وفي الواقع، إذا ما أخذنا في الحسبان عدداً من تعاليم الكنيسة التي وقفت موقف الضد لما يعرف اليوم بالحقائق الجلية، فإنه لايمكن تصور مجالين أشد تنافراً من العلم والدّين. فقد أُسكتت أصوات الذين تجرّؤوا على معارضة تعاليم الكنسية تلك بألسنة النيران التي التهمت أجسادهم الضعيفة، فقد كانت الكنيسة تتوقع منهم الإذعان لتعاليمها في كل الأمور.

إن طول أمد الرعب والظلم والطغيان، والأهم من ذلك الاضطهاد، الذي مارسته الكنيسة أدى إلى إدانةٍ كان لها من القوة مايكفي كي تدفع في نهاية المطاف إلى الفصل بين الكنيسة والعلم والدولة. وكالعادة، كانت العملية دموية، وحدثت معاناة لم يحسب لها حساب في أثناء العملية. وقد تركت محصلة ذلك الجيل الحالي ينهج تقليداً وهو أن يظل بموجبه كل من الدين والعلم واجمين عن تدخل أحدهما في شؤون الآخر. وبالنسبة للكثيرين، كان ذلك أفضل نظام يمكن للمرء أن يتصوره.

أما في الإسلام فليس هناك مجال للفصل بين الدين والعلم. فالوحي الإسلامي وحي شامل ويؤثر في مختلف مناحي الحياة الإنسانية. والإسلام لا يقتصر على تحديد أركان الإيمان وأسس العبادة وحسب، بل يعرّف إرادة الخالق فيما يختص بالسياسة، والسلوك الشخصي، وبناء الأسرة والمجتمع، وبالاقتصاد، والقانون المدني والجنائي، والعديد من الجوانب

العملية الأخرى المتعلقة بالوجود الإنساني. ففي الإسلام نجد العلم والطبيعة يعززهما وحي يحض على التحري في سبيل المعرفة وينكر الانغلاق الفكري. والعديد من النصوص القرآنية الكريمة توجه الناس للتفكير وتنتقد أولئك الذين يخرقون قواعد المنطق التي وهبها الله لهم. فمن بين الأشياء التي حرّمها الله: ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (القرآن الكريم ٧: ٣٣)

لقد شهد العالم الإسلامي طفرة في المعرفة في العصور التي تلت عصر محمد، ويعود ذلك بقدر لا يستهان به إلى أن حاجات الدين حرّضت على الخوض في حقول المعرفة. فدين يفرض الصلاة في أوقات محددة من اليوم، والصيام في شهر معين من العام يتوقع بشكل طبيعي أن يحفِّز على التقدم في مجالات حساب الوقت والتقويم السنوي. وبالمثل، فإن ديناً يتطلب دفع نسب مئوية متفاوتة من الثروة وفقاً للنوع (مثل المنتجات الزراعية مقابل الذهب) كزكاة يتوقع منه أن يكون قد أدى إلى تقدم في طرائق التقدير والحساب (أي الأوزان، والمقاييس، والرياضيات).

إن أصول الأرقام العربية (بما فيها الصفر الذي أحدث ثورة في الرياضيات) تم إدخالها على الرياضيات الأوربية في القرن الثاني عشر الميلادي. حيث حلّ النظام العربي محل الأرقام الرومانية التي كانت تسبب بعض المشكلات، والتي لم تكن تحتوي على الصفر، والتي كانت مرهقة من حيث طريقة الكتابة. إن الأرقام العربية و تطور علم الجبر واللوغاريتمات إنما يعود بفضل اختراعه للمسلمين.

لقد حرم الإسلام رسم الأحياء، ولذا فقد وجّه العديد من الرسامين في العالم الإسلامي مهاراتهم نحو فنون الزخرفة العربية القائمة على الهندسة من بناء، وترصيع، ونسيج، ونجارة. وسواء أكان ذلك سبباً أم نتيجة، فقد أفاد حقلا الهندسة وعلم المثلثات من الإسهامات الهامة التي جاء المسلمون بها. فبفضلهم تم التوصّل إلى جداول جيب الزاوية وجيب التمام، وعُرفت المعادلات التكعيبية، وجذور المعادلات التربيعية، وتُوُسع في علم المثلثات الكروي، والتحليلي، والمستوي، وتم إحراز تقدم في الهندسة.

أُمِر المسلمون بنشر كلام الله، وهكذا وُلد جيل جديد من الرحالة والتجار. وفضلاً عن ذلك، فقد أبرز الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة في مكة الحاجة لتحديد دقيق للاتجاهات؛ وبالتالي برزت الحاجة لتحسين الملاحة ورسم الخرائط. فحدث تقدم في استخدام البوصلة المغناطيسية، وحساب خطوط العرض والطول، وتصميم خرائط النجوم، والإسطرلاب. كما أُنشئت المراصد وتطور علم الفلك، ووُضعت خرائط جغرافية بقيت لا تُضاهى عدة قرون.

ولما كان الإسلام يؤكد على التعلم ونقل المعرفة، فقد صارت معرفة القراءة والكتابة والورق من السلع الحيوية. فاختُرعت الحروف الكوفية وهي أساس ألفباء العربية الحديثة على ضفاف نهر الفرات. وعلى الرغم من أن الصينيين كانوا أوّل من اخترع صناعة الورق باستخدام شرنقة دودة الحرير، فإن المسلمين سرعان ما تبنوه وطوّروه وذلك باستخدام القطن، والخشب، والرقاع إضافة إلى الحرير.

وبالمثل تم إحراز تقدم في حقول الفيزياء المعدنية، والميكانيكية، والبصرية، والنظرية، والكيمياء العضوية وغير العضوية، والطب، والجغرافيا، وعلم النبات، والزراعة، والعديد من الحقول الأخرى. وتضمنت الإسهامات التقنية اختراع آلات مثل الجُزْع [محور العجلة]، والمِخْل [المرفاع]، والبكرة، والطاحونة الهوائية، والنواعير [الدولاب المائي]، والدولاب المسنَّن، وعمليات مثل التكليس (طريقة استخلاص المعادن من الخامات) والإنقاص، والتقطير، والتبلّر. وأحرز تقدم في نظريات مثل الجاذبية ومرونة الهواء. وشيدت المستشفيات، وأحرز تقدم كبير في ميدان الطب، بما في ذلك اختراع أدوية جديدة وأساليب جراحية، ومن الأمثلة البارزة على العمليات الجراحية التي طوّرها المسلمون ما بات يعرف اليوم بعملية الولادة القيصرية.

يقول جيرْد دايموند Jared Diamond : "في العصور الوسطى كان تدفق التكنولوجيا الأكبر هو من الإسلام إلى أوروبة وليس كما هو الحال اليوم من أوروبة إلى بلاد الإسلام. ولم يبدأ هذا التدفق العكسي إلا حوالي العام ١٥٠٠ للميلاد".[١٠٣]

إن ضخامة مثل هذا التقدم ومغزاه يدركه أكثر مايدركه العلماء كل في مجال تخصصه، لكن الرسالة الوجيزة وسهلة القراءة المعنونة **الإسلام والعلم**

١٠٣. Diamond, Jared. 1999. *Guns, Germs, and Steel*. W.W.Norton and Company, Inc. p.253.

Islam and Science[١٠٤] تمثل نقطة بداية طيبة للكثير من الراغبين في القيام بمزيد من البحث هاهنا.

ولكي لا يسيء القارئ الفهم، فلن نحاول هنا أن نستقصي مثل ذلك التاريخ في محاولة لإثبات صحة القرآن الكريم بناءً على "ثمار" الوحي تلك. بل إن الملاحظة البسيطة المطروحة هي أن الفصل بين الدين والدولة لم يكن أبداً أحد عناصر الدين الإسلامي. وفي الواقع فإنه خلال الفترة السابقة لعصر النهضة [الأوروبي]، كان المسلمون في الطليعة التقنية للحضارة، كما يلحظ فِكتور روبنسون Victor Robinson في كتاب **قصة الطب** The Story of Medicine:

> عند الغروب كان الظلام يخيِّم على أوروبة، أما قرطبة فكانت تشع بالمصابيح العامة. أوروبة كانت قذرة، أما قرطبة فشيدت ألف حمّام. كان يملأ أجواءِ أوروبة الهوامّ من الطير والحشرات، أما قرطبة فكانت تبدّل حلتها كل يوم. كانت أوروبة تغوص في الأوحال، أما شوارع قرطبة فكانت مرصوفة. كان لقصور أوروبة فتحات للدخان في السقف، أما فنون الزخرفة العربية في قرطبة فكانت رائعة. وفي حين لم تكن عِلْية القوم في أوروبة تستطيع كتابة اسمها، كان أطفال قرطبة يذهبون للمدارس. ولم يكن بوسع

---

[١٠٤]. الرسالة من تأليف شابير أحمد، وأنس عبد المنتقم، وعبد الستار وصدِّيق وهي من منشورات:
Islamic Cultural Workshop, P. O. Box 1932, Walnut, CA 91789; (909) 399-4708.

رهبان أوروبة قراءة الصلاة المعمودية، أما أساتذة قرطبة فأنشئووا مكتبة تضاهي مكتبة الإسكندرية.(١٠٥)

وعلى الرغم من أن هـ. ج. وِلْز H.G.Wells يُذكر أكثر مايُذكر بكتابه **آلة الزمن** *The Time Machine* إلى جانب عدد من الكتب الأخرى في الخيال العلمي، إلا أن أعماله حول التاريخ لاقت رواجاً كبيراً لفترة طويلة. ومن بين أشهر أعماله **الخطوط العريضة للتاريخ** *The Outline of History*. ومما جاء في هذا الكتاب مايلي:

استأنف العقل العربي، من زاوية جديدة، وبنشاط جديد، التطور المنهجي للمعرفة الإيجابية التي كان الإغريق قد بدؤوها وتخلو عنها. وإذا كان اليوناني [الإغريقي] هو أبو الطريقة العلمية في التعامل مع الواقع، أي بالصراحة المطلقة، وغاية البساطة في البيان والتفسير، والتوثيق الدقيق، والنقد الشامل، فإن العربي كان أباها بالتربية والتنشئة. إن العالم الحديث قد تلقى هبة النور والقوة بوساطة العرب وليس عن طريق اللاتينية ... وقبل قرن أو نحو ذلك من التقدم الغربي أُنْشئ في العالم الإسلامي عدد من المراكز في البصرة، والكوفة، وبغداد، والقاهرة، وقرطبة، وتطورت منها سلسلة من الجامعات الكبرى كانت في بداية الأمر مدارس دينية تقوم على المساجد. وشع نور هذه الجامعات بعيداً إلى ما

---

١٠٥. Robinson, Victor, M.D. 1943. *The Story of Medicine*, New York: The New Home Library. P.164

وراء العالم الإسلامي، واجتذب إليها الطلاب من كل حدب وصوب. وفي قرطبة على وجه التحديد، كان هناك عدد كبير من الطلاب المسيحيين. وكان أثر الفلسفة العربية الذي وصل عن طريق إسبانيا Spain في جامعات باريس Paris، وأكسفورد Oxford، وشمالي إيطاليا North Italy، وفي الفكر الأوربي الغربي عظيماً بحق.(١٠٦)

وللتأمل في معنى هذه المقولة، يجدر بنا إلقاء نظرة أخرى على مقال جيمس أ. متشِنّر James A. Michener المنشور في العام ١٩٥٤ بعنوان "الإسلام الديانة التي أُسيء فهمها"

Islam The Misunderstood Religion:

يصعب على الكثير من الغربيين أن يدركوا مدى التأثير العميق للعلماء المسلمين في حياتنا الفكرية في مجالات العلوم، والطب، والرياضيات، والجغرافيا، والفلسفة، وذلك لأنهم لم يقرؤوا عن تاريخ المسلمين سوى الكتب المزيفة، وأن هؤلاء كانوا كفاراً وهمجيين. فالصليبيون الذين غزوا الأرض المقدسة لقتال المسلمين عادوا إلى أوروبة بأفكار جديدة عن الحب، والشعر، والفروسية، وفنون الحرب، والحكم. وعُدِّل مفهومنا لما ينبغي أن تكون عليه الجامعة تعديلاً كبيراً على أيدي العلماء المسلمين الذين أتقنوا

---

١٠٦. Wells, H.G. Vol.2, pp.708-710

كتابة التاريخ وجلبوا لأوروبة الكثير من علوم اليونان.[١٠٧]

ومن مقولة الألماني هارتويغ هيرشفيلد Hartwig Hirschfeld الباحث الشهير في ثقافتي العرب واليهود نقتبس مايلي:

ويجب ألا ندهش عندما يُنظر إلى القرآن بأنه ينبوع العلوم. فالقرآن يقع أحياناً على كل موضوع يتصل بالسماء والأرض، والحياة البشرية، والتجارة، والمهن الأخرى، وهذا أدى بدوره إلى إصدار رسائل علمية عدة تشكل تعليقات على أجزاء من الكتاب الكريم. وبهذه الطريقة كان القرآن دافعاً لمناقشات كبرى، وإليه يعزى بطريقة غير مباشرة التطور الرائع لفروع المعرفة كافة في العالم الإسلامي.[١٠٨]

وتطول قائمة التعليقات المصادقة على ذلك، ولكن يجدر بنا أن نضمّن اقتباساً أخيراً وهو لـ لثاتشر وَشْوِل Thatcher and Schill حيث ثمّنه هـ. ج. وِلْز عالياً لدرجة أنه ضمّنه كتابه **التاريخ العام لأوروبة** *The General History of Europe* والذي يتمثل بمايلي:

إن أصل ما يسمى بالأرقام العربية غامض. ففي ظل ثيودورك العظيم Theodoric The Great، استخدم بوثيوس Boethius علامات معينة كانت تشبه جزئياً الأرقام التسعة التي

١٠٧. Michener, James A. p.74

١٠٨. Hirschfeld, Hartwig. p.9

نستخدمها اليوم. كما استخدم أحد تلامذة جِرْبَرت Gerbert علامات كانت ما تزال كعلاماتنا، إلا أن الصفر بقي مجهولاً حتى القرن الثاني عشر عندما اخترعه عالم رياضيات عربي اسمه محمد بن موسى، والذي كان أول من استخدم النظام العشري، وهو الذي حدد للأرقام قيمة موضعها. وفي الهندسة لم يضف العرب الكثير لما وضعه إقليدس Euclid، لكن الجبر هو من اختراعهم من الناحية الواقعية، كما وضعوا حساب المثلثات الكروية، واخترعوا جيب الزاوية، والمماس، وظل التمام. وفي الفيزياء اخترعوا البندول [الوقّاص] وألفوا في البصريات. وأحرزوا تقدماً في علم الفلك، وأقاموا عدة مراصد، وصنعوا العديد من الأدوات الفلكية التي ما زالت قيد الاستخدام. وحسبوا زاوية الدائرة الظاهرية لمسير الشمس، ومبادرة الاعتدالين أو تقدمها. ومما لا ريب فيه أن معرفتهم بالفلك كانت عظيمة.

في الطب خطوا خطوات كبيرة مقارنة بمؤلفات اليونان. فقد درسوا علم الوظائف، والصحة، وكانت مادتهم الطبية *material medica* هي المادة التي نستخدمها اليوم ذاتها. ومازال العديد من طرائق علاجهم مستخدماً بيننا. وفهم جرّاحوهم استخدام التخدير، وأجروا بعضاً من أعقد العمليات المعروفة. وفي الوقت الذي حرّمت فيه الكنيسة مزاولة الطب في أوروبة وتوقعت إحلال الشفاء بطقوس دينية يؤديها رجال الدين، كان لدى

العرب علوم حقيقية في الطب. وفي الكيمياء أرسوا قواعد متينة لها. فقد اكتشفوا العديد من المواد الجديدة مثل الكحول والبوتاس، ونترات الفضة، وكلوريد الزئبق، وحمض النتريك والكبريت ... وفي الصناعات بزّوا العالم من حيث تنوع التصميم وجماله وتمام الصنعة. واشتغلوا بالمعادن جميعاً — الذهب، والفضة، والنحاس، والبرونز، والحديد، والفولاذ. وفي صناعة النسيج لم يتفوّق عليهم أحد قط. فقد صنعوا أفخر الزجاج والفخار. كما خبروا أسرار الصباغة وقاموا بصناعة الورق. وكانت لديهم عدة عمليات للدباغة، وكان عملهم مشهوراً في أنحاء أوروبة كافة. كما صنعوا الأصباغ، والمستخلصات [الأَسَنْس essences]، والشراب. وصنعوا السكر من قصب السكر، وطوروا العديد من صناعات الخمور.[١٠٩](م.ت.)

وزاولوا الزراعة بطريقة علمية، وكان لديهم أنظمة الري الجيدة. وعرفوا قيمة السماد، وكيّفوا محاصيلهم وفقاً لجودة التربة. وتميزوا في مجال البستنة حيث كانوا يعرفون كيفية التطعيم، وكيفية

---

[١٠٩]. لابد من تبرئة المؤلفَيْن (ثاتشر وَشْوِل Thatcher and Schwill، كما اقتبسها هـ. جـ. وِلز Wells, H.G.) من كلّ تهمة بعدم الدقة في هذه المسألة. فحقيقة الأمر أنه منذ زمن الوحي حتى يومنا هذا، هناك مسلمون يصرّون طواعية على ارتكاب المحرمات. ومعظمهم تصرفوا على ذلك النحو فرادى، لكن الممارسات المنحرفة نمت لتشمل مجتمعات بأسرها وغالباً ما تكون على نطاق أوسع مما يود المسلمون الاعتراف به. ويوضح المثال الشائع لملاك تجارة الخمور أو مديريها مثل محلات بيع الخمور، والمطاعم أن ممارسات النفاق مازالت مستمرة حتى اليوم — علانية في البلدان غير المسلمة، وسراً في تلك البلاد القليلة التي تطبق الشريعة الإسلامية.

إنتاج أنواع جديدة من الفواكه والأزهار. وأدخلوا إلى أوروبة العديد من الأشجار والنباتات من الشرق، وألّفوا رسائل علمية في الزراعة.

ولا بد في هذا المجال من ذكر واحد من أهم الأمور ألا وهو صناعة الورق وذلك لأهميته في الحياة الفكرية لبني البشر. ويبدو أن العرب قد اكتسبوا هذه الصناعة من الصينيين عن طريق آسيا الوسطى، ثم أخذها الأوروبيون بدورهم عن العرب. وحتى ذلك الوقت كان لابد من كتابة الكتب على الرقاع أو الورق البردي. وبعد استيلاء العرب على مصر انقطع وصول ورق البردي إلى أوروبة. و إلى أن توافر الورق بكميات كبيرة، بقي فن الطباعة محدود الاستخدام وبقي نشر الصحف والتعليم العام بوساطة الكتب أمراً مستحيلاً. ولعل هذا كان العامل الأهم في التخلف النسبي لأوروبة خلال عصور الظلام الذي يحجم المؤرخون عن الاعتراف به ... [١١٠]

إن الدليل الذي يعدّه المسلمون داعماً لتأييد الأصل السماوي للقرآن الكريم يتضمن العديد من النصوص التي تشير إلى طبيعة الإنسان والكون الذي نعيش فيه. وبقي العديد من تلك الآيات أسراراً تحتاج إلى إثبات لما يزيدعلى ألف وأربعمائة عام، إلى أن ثبتت صحتها في ضوء المعرفة الحديثة.

---

[١١٠] Wells, H.G. Vol.2, pp.708-710.

ولكن كيف تختلف هذه النبوءات عن النبوءات الإنجيلية؟

بادئ ذي بدء علينا أن نسأل لماذا يصف الكتاب المقدس الله بأنه أنعم على الخلق بنوره قبل خلق النجوم بثلاثة أيام؟ (قارن سفر التكوين ١: ٣-٥) بـ (سفر التكوين ١: ١٤-١٩). إن الإمكانيات ضمن نطاق الأمر الرباني يفوق التصور البشري، إلا أنه من المقدمات المنطقية بشأن طبيعة الضوء أنه قبل أن يوجد الضوء لابد من وجود قدر من انبعاث الفوتونات. وبالمثل، لنا أن نسأل كيف حدث المساء والصباح (سفر التكوين ١: ٣-٥) قبل خلق الأرض بيومين (سفر التكوين ١: ٩-١٣)، وقبل خلق الأرض بثلاثة أيام (سفر التكوين ١: ١٤-١٩)؟ فكيف يمكن وجود مساءٍ وصباحٍ دون أفق تشرق الشمس منه وتغرب، ودون وجود شمس في المقام الأول؟

هناك المزيد، إذ يروي الكتاب المقدس أن الطيور قد خلقت في اليوم الخامس (سفر التكوين ١: ٢٠-٢٣)، قبل يوم من خلق البهائم على الأرض (سفر التكوين ١: ٢٤-٢٥). في حين أن سجلات المستحاثّات fossil record تشير إلى الترتيب المعاكس تماماً. وتمثل الأصول الواردة في الكتاب المقدس أساس التقويم اليهودي الذي يفترض أن عمر العالم ٥٧٦٨ عاماً (اعتباراً من العام ٢٠٠٠ للميلاد). ففي الوقت الذي يقدر فيه عمر النظام الشمسي بأربعة بلايين عام ونصف البليون، وأصل الإنسان على الأرض بمئات ملايين السنين فإن هذا التقدير لا يرتقي إلى مستوى الدليل العلمي.

والطوفان العالمي الذي يعود تاريخه إلى حوالي ثلاثمائة عام قبل عهد إبراهيم – وفق ماجاء في الكتاب المقدس – يقابل القرن الواحد والعشرين والثاني والعشرين قبل الميلاد. وهكذا فإن الفيضان كما يصفه الكتاب المقدس يطمس كلاً من الأسرة الحاكمة الثالثة في أور Ur ببابل والفترة المتوسطة الأولى قبل الأسرة الحاكمة الحادية عشرة في مصر، وهاتان كانتا حضارتين يشهد التاريخ أنهما كانتا متصلتين. وعليه فإن الفترة التي تنسب الروايات الإنجيلية الفيضان العالمي إليها تحتاج إلى مراجعة.

لكن لو نحيّنا كل ذلك جانباً، وافترضنا من قبيل المناقشة أن الكتاب المقدس هو عبارة عن تركيب من المكتبة العلمية و سجل فارمر السنوي Farmer's Almanac، يبقى لدينا التحدي القائل "وما المغزى من ذلك؟" يقرّ الإسلام أن كلاً من اليهودية والنصرانية تستمدان أصولهما من الوحي، ويشير إلى أن كلتا الديانتين كانتا تنتظران نبياً خاتماً، كما تشير الكتب المقدسة لهاتين الديانتين. وبذلك تكون المسألة ليست في تحديد أي دين من هذه الديانات الإبراهيمية يستمد أصوله من الوحي الرباني – لأنها جميعاً أديان منزّلة – بل أي دين من هذه الأديان كان آخر ما أنزل؟ وإذا كان هذا الدين ليس الدين الذي ارتضاه الله لعباده كي يتّبعوه، فلماذا أنزله إذاً؟

إذاً التحدي القائم أمام اليهود والمسيحيين هو أن يثبتوا عدم أهلية القرآن للمنافسة. ولكن وكما رأينا أن محاولات الإتيان بسورة واحدة من مثل سور القرآن باءت بالفشل، ويعتقد المسلمون أن كلّ محاولة لتحدي

القرآن سوف تؤول إلى المصير ذاته، وبخاصة بعد مضي ألف وأربعمائة سنة من المحاولات الفاشلة. لقد أصبح هذا أمراً مقضياً.

ولكن لابد من كلمة تحذير عند هذه المسألة، لأن الحماس الديني يؤدي بالكثيرين لتخطي حدود العقل دفاعاً عن موقفهم. فالعديد من النصوص القرآنية تتحدث عن أشياء لم نفهمها بعد، وعليه فإن مغزى هذه النصوص يبقى مرهوناً بالتأمل. وإن محاولة تحميلها أكثر مما تحتمل في الواقع، سواءٌ لتأييد القرآن أو لتفنيده، يبقى أمراً غير معقول. وأفضل ما يمكن قوله في مثل تلك الآيات إنها آيات تتحدث عن ألغاز، وبالتالي فإنه لايمكن النظر إليها لا على أنها أدلة علمية أو أمثلة من عدم الاتساق. ولعل مثل هذه النصوص يتم تفسيرها مع مرور الزمان والتقدم في المعرفة الإنسانية. وريثما يحدث ذلك، فإنه حتى التأمل يبقى أمراً غير مناسب. ومثال ذلك الآية الرابعة من سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

يشير بعض المسلمين إلى أن هذه الآية من سورة المعارج ربما تتعلق بنظرية إينشتاين النسبية الخاصة Einstein's Special Theory of Relativity. إن هذا قد يكون صحيحاً، ولكنه قد لا يكون صحيحاً أيضاً. ولو تابعنا فرضية إينشتاين لوجدنا أن مفهوم الزمن والحجم والكتلة طبقاً لهذه النظرية يتغيّر بين إطاري جمودٍ في الحركة نِسبيَّين فيما بينهما. أو لنقل، هو إدراك مراقب ثابت وآخر متحرك الزمن، والحجم، والكتلة على أنها مختلفة. وبالنظر إلى درجات السرعة التي يقطعها الإنسان في عصرنا

الحالي، فإن مثل هذه الفروق في التصور تكاد لا تذكر. إلا أننا لو غيَّرنا عربة فورد من طراز قديم إلى طراز تصل سرعته الواحد من المليون بحيث تقارب بذلك سرعة الضوء، فإن مثل هذه الفروق لابد أن تصبح كبيرة جداً. وعندها سيرى المبحر في الفضاء والمراقب الثابت وجهين مختلفين تماماً للعالم ذاته.

وفقاً لنظرية النسبية الخاصة، عندما تقترب السرعة من سرعة الضوء (٥.٨٨×١٠$^{١٢}$ ميلاً في السنة) يتباطأ تصور الزمن، ويقل الحجم، وتزداد الكتلة. ولو اختطف "مؤسس نظرية الكم في الفيزياء" ماكس بلانك Max Planck حزمة من كمياته النظرية، شدّ اللجام قليلاً، ثم صرخ من وراء كرْم عِنَب مارتا Martha، ثم انطلق بسرعة الضوء تقريباً، فإن المتوقع أن يسير منبّه الساعة في غرفة نومه ببطء غير متصور، وأن يبدو متناهياً في الصغر، وأن يحوي كتله ثقل غير محدودة. المفهوم صعب قليلاً بالنسبة لمعظم العقول، وعليه فلابد للعالم من شكر أُلبرت أينشتاين على تحويلات لورِنتس Lorentz – وهي معادلات رياضية يقاس بموجبها تصور الفرق في المكان والزمان من قبل مراقِبَيْن، أحدهما ثابت والثاني متحرك. وبخصوص الزمن (الوقت) فإن المعادلة هي كالتالي:

$$\underline{t}^{`}=(1-\underline{v}^2/\underline{c}^2)^{-1/2}(t-vx/\underline{c}^2)$$

حيث:

$\underline{v}$ = السرعة المقطوعة.

$\underline{c}$ = سرعة الضوء ( $5.88\times10^{12} mile / year$ ).

$\underline{x}$ = الموقع في الفضاء (محدداً بالمعادلة $\underline{x}^2 = \underline{c}^2 \underline{t}^2$ ).

$\underline{t}^{`}$ و $\underline{t}$ هما مفهوما الزمن والمختلفان.

استخدم الأرقام الواردة في الآية الرابعة من سورة المعارج في هذه المعادلة، حيث $\underline{t}^{`}$ تساوي ٥٠٠٠٠ سنة و $\underline{t}$ تساوي يوماً واحداً $2.7397\times10^{-3} years$ , و $\underline{v}$ تساوي باللغة العلمية "إجمالياً" أقل من سرعة الضوء بجزء من المليون من أدق الأشياء. الفرق ضئيل. وقيمة V قريبة من سرعة الضوء. في الواقع حتى إنه يتعذر الوصول إلى الفاصلة العشرية في سلسلة التسعات الناتجة من الكسر ( $\underline{v}/ \underline{c}$ ).

كيف يرتبط هذا بالقرآن الكريم؟ حسناً، فوفق القرآن والحديث خلق الإنسان من طين، وخلق الجان (الشياطين spirits) من نار، وخلقت الملائكة من نور. فهاهنا نص من القرآن الكريم لا يطرح وحسب التصورات المختلفة للزمن الذي عُرِّف لاحقاً بـ "تمدد الزمن" وفق نظرية النسبية، بل إن القيم المقدمة تصف الملائكة بأنها تتحرك بسرعة المادة التي ورد أنها خلقت منها وهي الضوء.

إن هذا التحليل جميل ورائع، وربّما يكون صحيحاً. لكن التأكيد بأن هذا هو ما تعنيه الآية السابقة بحق يعدّ من باب الإتيان بافتراضات جريئة.

ولعل الأفضل من ذلك بكثير هو ملاحظة الترابط المذهل، لكن دون تجاوز مناقشة نظرية "تمدد الوقت". وتكفي الحقيقة البسيطة بأن تصورات مختلفة للزمن ذكرت منذ ١٤٠٠ سنة خلت، وهو زمان كان أسرع حركة يمكن للإنسان أن يشاهدها بالعين المجردة هي انقضاض صقر أو رمية سهم. ويبدو أن السير بالتحليل أبعد من هذا هو من قبيل التخمين إلى حد غير معقول.

ولكن هذا هو بالضبط مايحاول مشوهو الإسلام عمله — وهو السير بأحقادهم وفق تصوراتهم المسبقة بحيث تخطف استنتاجاتهم غير المتزنة غصن الشجرة عن جذع المنطق، أي تشويه بعض آيات القرآن. فعلى سبيل المثال، زعم بعض مشوهي الإسلام أن الآية الرابعة من سورة المعارج تتناقض والآية الخامسة من سورة السجدة التي نصها: ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾ .

إن الزعم بأن هاتين الآيتين متناقضتان مثله كمثل اللجوء إلى وصفة طبية عفا عليها الدهر، وذلك لأن كلتا الآيتين تتحدثان عن موضوعين وظرفين مختلفين تمام الاختلاف. فالفهم العام بين المسلمين أن الآية الأولى منها [من سورة المعارج] تتحدث عن عروج الملائكة والروح إليه [سبحانه]، أما الثانية فتشير إلى يوم الحساب، اليوم الذي تصير فيه الأمور

كلها لله كي يحكم فيها.[١١١]

إن تحليل الأدلة العلمية إذاً يتطلب من المرء أن يظل موضوعياً، ولتحقيق هذه الغاية يتوجب على المحللين المسلمين ألاّ يتجاوزوا الحدود والدخول في مجال التكهن، ويتوجب على غير المسلمين ممن يحاولون تشويه الإسلام التخلي عن الطروحات الزائدة. وفضلاً عن ذلك، يتوجب على مشوشي الإسلام أن يدركوا أنهم عندما يظهرون نصاً قرآنياً يفتقر إلى برهان علمي فإن ذلك لا يبطل ذلك النص البتة، فقد بقي العديد من آيات القرآن الكريم لمدة ١٣٠٠ عام دون دليل علمي يدعمها ولم يتوافر مثل ذلك الدليل إلا نتيجة لنضج المعرفة العلمية في القرنين التاسع عشر والعشرين. فالافتقار إلى الدليل الداعم يساوي الافتقار إلى برهان، لا الافتقار إلى الحقيقة. فلكي نفنّد زعماً، فإنه يتوجب علينا أن نثبت مايمكن أن يكون حقيقة متناقضة، وأما خلاف ذلك فهو تحريض وتحيز، وهذا ما يخلو منه القرآن الكريم خلواً واضحاً. فنص واحد أو أكثر من مثل الآيات المقتبسة أعلاه من سفر التكوين من العهد القديم يثبت تناقضاً علمياً وعدم اتساق مع العالم الذي نعرفه اليوم، فضلاً عن تناقض هذه الآيات فيما بينها. إن كلا المشهدين يقترح وجود مؤلّف، وهذا المؤلف هو دون مرتبة الإلهي، ولكن خلو القرآن من مثل هذه التناقضات يقترح نقيض ذلك تماماً، أي وجود مؤلف من مرتبة الإلهي. وفي الواقع إن القرآن ذاته يطرح التحدي التالي:

---

[١١١]. رواه ابن عباس

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ . (القرآن الكريم ٤ : ٨٢).

وفي ظل المعلومات الثرّة التي يقدمها القرآن، فإن عدم وجود تناقض واحد من مثل تلك التناقضات لابد أن يُنظر إليه بأنه ذو مغزى.

إن القرآن لا يحاكي الكتاب المقدس في تحديد تواريخ أو تضارب في تسلسل الخلق. وإذا ماأخذنا بالاعتبار عدد مثل تلك الروايات الإنجيلية وأهميتها، فإن الزعم القائل بأن القرآن استُنسخ جزئياً من الكتب المقدسة السابقة يبدو أمراً مشكوكاً فيه. فلو كانت مجموعة الأناجيل رُتلت من بداية مجموعة الكتب المقدسة، لكان أول إنجيل سمع به محمد هو الفصول الأولى من سفر التكوين. وبما أن آيات الأسفار هذه لم تنقل إلى القرآن فإن هذا يدحض نظرية الاستنساخ تلك.

إن البحث في القرآن عن آيات تتعارض والأدلة الأثرية، أو التاريخية أو العلمية كتلك الموجودة في الكتاب المقدس هو أمر عديم الجدوى. ويرى المسلمون أنه لا يوجد في القرآن من مثل تلك التناقضات، لأن الزعم هو أن القرآن لا يتفق تماماً والعلوم فحسب، بل يتفق وحقول المعرفة الإنسانية كافة، وذلك كما يمكن أن نتوقع من كتاب من عند الله. ويبدأ هذا الزعم بالتجلي إذا ما تفحصنا قائمة الأدلة العلمية المقترحة من مؤلفين مختلفين. وبما أن المجال لايسمح لمناقشة كاملة لمثل هذه المزاعم في هذا الكتاب ، فلا بأس من مناقشة عينة صغيرة. أما من لديهم رغبات أقوى للاستزادة

منها فبوسعهم تفحص الكتابين التاليين: **الكتاب المقدس، والقرآن والعلم** *The Bible, The Qur'an and Science* للدكتور موريس بوكاي Maurice Bucaille، وكتاب **الكون كما يراه القرآن (اكتشافات علمية مؤكدة)** *The Universe Seen Through the Qur'an* لـ مير أنيس الدين Mir Anees-u-din الحاصل على درجة الماجستير والدكتوراه في العلوم، ورسائل متنوعة أصغر متوافرة في المكتبات الإسلامية. والكتاب التمهيدي القيم خصوصاً فيما يختص هذا الموضوع هو **دليل توضيحي موجز لفهم الإسلام**: *A Brief Illustrated Guide to Understanding Islam*. [١١٢] ولنأخذ الآن ثلة من هذه الأدلة العلمية:

## في الجيولوجيا

## Geology

**الجبال**: قد يتصور إنسان أن الجبل قد لايغدو لابن الصحراء (أو لشخص آخر) أكثر من مجرد معلم جمالي مانع فوق سطح البسيطة. وربما كانت مضارُّ الجبال أكثر من نفعها بالنسبة لأطقم القوافل، والمزارعين،

---

١١٢. متوافر على شبكة الانترنت على الموقع: Http://www.islam-brief-guide.org ويمكن الحصول عليه من The Islamic Foundation of America. P. O. Box 3415, Merrifield, VA 22116. USA. Tel: (703) 914-4982, e-mail: info@erols.com

والرعاة في عهد محمد. وكان التوقف للتأمل فيها يبدو أمراً غريباً، وأشد من ذلك غرابة أن لو اكتشف أحدهم ما هو جميل كي يقال فيها.

في يومنا هذا أيضاً فإن من يتأمل الجبال من البشر قليل، وباستثناء القيام ببعض الرحلات إليها وترويح النفس فإن فوائد الجبال تبدو بالنسبة لهم محدودة. فالقيام برحلة مسير إلى الجبال، أو الترويح عن النفس برياضة التزلج، أو الخلود إلى السكينة عبر اللجوء برحلة قصيرة إلى الجبل لم تكن تعني شيئاً البتة لبدوي مسافر عبر القفار، بل نقيض ذلك تماماً، إذ كان يتوجب عليه والحالة هذه أن يلتف حول الجبل كي يتابع مسيره وبالتالي إطالة أمد السفر وزيادة بعد المسافة. وإذا ماأراد هذا البدوي أن يحرث أرضه الجبلية فإن عليه تجشم عناء الدفع بمحراثه صعوداً، وإذا ماشردت إحدى دوابه هناك فكان عليه صعود الآكام والوهاد.

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما النفع المرتجى الذي كان يأمله البدوي من الجبل؟

ولم يدرك علم الجيولوجيا الحديث أهمية الجبال للعلم كما يعرفه بنو البشر إلا مؤخراً ... فالجبال لها جذور. ونستشهد بما قاله تاربُك Tarbuck و لُتجِنز Lutgenz: "إن وجود هذه الجذور قد أكدّته المعلومات الزلزالية والجاذبية."(١١٣)

---

١١٣. Tarbuck, Edward, Hand Fredrick K. Lutrens. 1982. *Earth Science*. 3rd ed. Columbus: Charles E. Merrill Publishing Company. p.157.

فقد يكون لجبل طوله ثلاثة أميال أو أربعة بنية جذرية من القشرة القارية عمقها ثلاثون أو أربعون ميلاً في الغلاف المحيط بالأرض.[١١٤] ويعمل جذع جذر الجبل هذا على مساندة وزن الجبل الذي يعلوه مُوجداً بذلك توازناً، أو بلغة الجيولوجيين، التضاغطية أو توازن القشرة الأرضية.[١١٥] ولا ترى عين الإنسان أكثر من شيء صغير غير مكتمل النمو نسبياً من الجبل، في حين يقع جذع طوله أربعون ميلاً من القشرة الأرضية مطموراً في طبقة أرضية بلاستيكية أعمق، أقرب ما يكون إلى رأس مسمار يطل خلسة على سطح قطعة من الخشب مركباً على جذع فولاذ لا يمكن تصوره. أو لنقل إنه يشبه الوتد. ومن المهم إذاً ملاحظة أن وصف الجبال في القرآن الكريم هو تماماً هكذا ... "أوتاداً": ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (القرآن الكريم ٧٨: ٦–٧). ونسأل: من أين جاءت تلك الملاحظة؟ هل جاءت من عقل ذاك البدوي؟ لا أظن ذلك.

كما أن الخبراء الجيولوجيين ذهبوا في السنوات الأخيرة الماضية إلى القول بأن الجبال تجعل القشرة الأرضية مستقرة لأنها ترتفع عالياً فوق نقاط

---

١١٤ Press, Frank and Ranymond Sirver. 1982. *Earth* 3rd ed. San Francisco: W. H. Freeman and Co. p.435. Calleux, Andre. 1968. *Anatomy of the Earth*. New York: McGraw – Hill Book Company. Translated by J. Moody Stuart. pp.222-218; Tarbuck, Edward J. and Frederick K. Lutgens. 1982. p.158.

١١٥. Cailleux, Andre. p.222

التصادم بين الألواح القارية. وبهذا فإنها تمثل لحاماً بين لوحين قاريين، وفي ظل غياب مثل ذلك اللحام، فإن الألواح المتصادمة من اليابسة سوف يعلو بعضها الآخر، مما ينجم عنه زلازل دورية وتغيرات لا مناص منها تحدث عرضياً عند خطوط التصدّع نتيجة للضغط المتراكم الذي يستدعي انبعاثاً دورياً. وحيث إن جميع الجبال تمثّل أوتاداً لمثل نقاط التصادم هذه، فإن الغياب الكلي للجبال من شأنه أن يخل بتوازن سطح الأرض.

ولم تتطور هذه المعرفة إلا بعد القيام بدراسة تكتونية الألواح tectonic plate(*) في أواخر القرن العشرين. والنتيجة المتصلة بالموضوع هي أنه دون تأثير الجبال المؤدي إلى استقرار قشرة الأرض، فإن سطح الأرض يكون في حالة زلزلة متكررة إن لم تكن مستمرة. ومثل هذه المعلومات تعد ثورية في مجال الجيولوجيا الحديثة، لكنها تدعونا لتذكر إيماءة وردت في وحي يعود تاريخه إلى ألف وأربعمائة عام خلت مسجلاً القول التالي: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (القرآن الكريم ١٦: ١٥).

## في خلق الكون

## Creation of the Universe

(*) التكتونية: عملية التشويه التي تغيِّر شكل قشرة الأرض محدثة القارّات والجبال. [المترجم].

**أصول الكون:** إن احد أكثر مبادئ علم الكونيات التي لايمارى فيها هو أن الكون برمّته، كما نعرفه اليوم، تشكّل من مزيج دخاني حار من الغازات ومواد الجزيئات Particulate matter.[١١٦] وما زال يلاحظ تكوّن النجوم في صميم السديم (الذي يفترض أنه إما أن يكون من بقايا السحابة الغبارية البدائية أو ما يحاكيها) وذلك حتى يومنا هذا. ويشير القرآن إلى ما يتعلق بهذا على النحو التالي:

﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ (القرآن الكريم ٤١: ١١).

إن وصف السماء بالدخان وصف غاية في الدقة للسحابة الغبارية البدائية. "فالدخان" وصف أفضل من "سحابة" في هذا السياق، وذلك لأن السحب عادة ما تستحضر صورة سديم بارد ثابت نسبياً، في حين يصف الدخان كتلة غازية حارة تدور في دوامة مفعمة بالجزيئات المعلّقة. وهذه هي الصورة الدقيقة التي يصادفها علماء الفضاء في وصفهم اليوم للمجرات التي هي قيد التشكُّل في الفضاء.

ويرد في الآية قوله تعالى ﴿... اِئْتِيَا...﴾، وهو تعليق رائع إذا ما أخذنا

---

١١٦. Weinberg, Steven, 1988. *The First Three Minutes. A Modern View of the Origin of the Universe*. Basic Books; Harper Collins Publishers. p.101-102.

بعين الاعتبار الخطوة الضرورية لاتحاد عناصر الجزيئيات في جزء مركزي من المادة المكثَّفة. ومن هذا الفتق لهذه الكتلة المركزية شديدة الكثافة نجم الانفجار الكبير Big Bang الذي أعقبه توسع الكون. وبعودة للقرآن مجدداً، نرى ذكراً لهذا فيه:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢١: ٣٠).

لم يتوصل إلى فهم أصول الكون، لاسيما مفهوم الأصل المشترك للسموات والأرض، إلا في القرن العشرين. ونظرية "الانفجار الكبير" كانت قد طُرحت أولاً في العام ١٩٢٠ ميلادية على يد كل من الكسندر فريدمان Alexander Friedmann و آبيه جورج لوماتر Abbé Georges Lemaître (وروّج لها لاحقاً جورج غامو George Gamow وزملائه) وهي النظرية التي حلت محل النظرية الخَلْقيّة Creationist Theoy. وهذه النقطة هي التي تثير الاهتمام هنا، فإذا كانت النظرية الخَلْقيّة هي كل ماعرفه الإنسان حتى العام ١٩٢٠، فياله من إنجاز خارق لبدوي أن يكون قد أدرك الانفجار الكبير قبل ذلك التاريخ بألف وثلاثمائة عام!

ولكن بالطبع لم يفعل هذا البدوي ذلك، وماكان له أن يفعل ذلك.

إن تعقيد المعرفة والتقنية تطلبا اشتقاق نظرية الانفجار الكبير (أو مايعرف الآن بالانفجار الكبير الحار Hot Big Bang حيث إنه قُدرت درجة الحرارة بعد بدء الانفجار بـ 0.0001 ثانية بحوالي $10^{12}$ كلفن) التي حيّرت العقول.

تطلب وضع نظرية الانفجار الكبير افتراضين رئيسين: أولهما أن نظرية آينشتاين العامة للنسبية قد حددت تحديداً دقيقاً التفاعل التجاذبي للمادة، والثاني مبدأ علم الكونيات بالغ الدقة الذي يقع خارج نطاق هذا الكتاب. يكفي القول بأن النظرية تم إثباتها عبر قياس مستويات الهيدروجين، والهيليوم، والليثيوم وتقديرها، إضافة إلى بقايا إشعاع الموجة الصغرى (التي لم تكتشف سوى في العام ١٩٦٥). إن أفكاراً مثل هذه كانت غائبة عن أرقى المؤسسات العلمية حتى أواخر القرن العشرين. وكل ما كان متوافراً في زمن محمد، بخلاف الوحي، كان محصوراً في نظرة متأملة للسماء ليلاً.

**الانجراف القاري**: في حوالي العام ١٨٠٠ ميلادية، لاحظ ألكسندر فون همبولدت Alexander von Humbold التطابق بين نتوء أمريكا الجنوبية وشبيهه في إفريقيا. وارتأى أن المساحات الواسعة من الأرض التي تحدّ الجانبين المتقابلين للمحيط الأطلسي كانتا ذات يوم متحدتين.

وبعد ذلك بحوالي خمسين عاماً، لاحظ أنتونيو سنايدر بلغريني Antonio Snider-Pellegrini التوافق بين اقتراح فون همبولدت وأدلة المستحاثات التي قدمت نباتات مستحاثة متطابقة في رواسب الفحم في

أمريكا الشمالية وأوروبة.

وبعد نصف قرن آخر، أي في العام ١٩١٢ ميلادية، طرح عالم الأرصاد الألماني ألفرد فِغِنَر Alfred Vegener مفهوم الانجراف القاري. قال فِغِنَر إن كل المساحات الواسعة من الأرض جميعاً كانت ذات يوم متحدة في قارة واحدة، وهي التي أطلق عليها اسم قارة بانغايا "Pangaea". وأفاد أن بانغايا انشطرت في الحقبة الترياسية Triastic period (من ٢٤٥ إلى ٢٠٨ ملايين عامٍ مضت مابين زيادة أو نقصان عطلة نهاية أسبوع طويلة). وتلا ذلك انفصال وانجراف مما نجم عنهما الوضع الحالي لليابسة في العالم (على الرغم من أن هذه المساحات ماتزال في انجراف اليوم وفقاً لبعض المقاييس الحديثة).

وفي العام ١٩٣٧ميلادية قام ألكسندر ل. دوتوا Alexander L. Du Toit بتشذيب نظرية فِغِنَر بحيث ضمنها كتلتين يابستين أصليتين: لوارسيا Laurasia في الشمال وغندوانا لاند Gondwanaland في الجنوب.

إن تطابق الرفوف القارية، والدليل على وجود تجلد مشترك، والمماثلة المشتركة في الصخور والبنى الجيولوجية، والسجلات الإحاثية Paleontologic records،[١١٧](م.ت.) ونظرية امتداد قاع البحر، وبقايا

---

١١٧. بالإضافة إلى الأدلة الواردة أعلاه فإن السجلات الإحاثية تظهر التطورات البحرية المبكرة على ساحل المحيط الأطلسي/الأطلنطي في أفريقيا وأمريكا الجنوبية اللتان تعودان إلى الحقبة الجوراسية والتي يعود تاريخها إلى 144-208 مليون سنة خلت والتي تدل على عدم وجود محيطات تفصل بين هذه القارات قبل ذلك الزمان.

مغناطيسية[١١٨](م.ت.) جميعها تدعم ما أصبح مقبولاً اليوم على أنه نظرية الانجراف القاري. إذاً ... تم تشخيص مايسمّى بـ الانجراف القاري في القرن العشرين، أي بعد مرور ألف وأربعمائة عام من نزول الآية التالية في القرآن الكريم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (القرآن الكريم ١٣: ٣).

# الأجسام السماوية

# Heavenly Bodies

**الشمس والقمر**: ... تصف الآية الخامسة من سورة يونس الشمس والقمر بكلمتين مختلفتين، كلتاهما تعني "النور" في اللغة العربية. إلا أن كلمة "ضياء"، تصف الشمس بأنها مصدر للنور، أما كلمة "نور" فتصف القمر بأنه يضيء من مصدر آخر. وفي معجم لِيْن Lane العربي – الإنجليزي نجد:

---

[١١٨]. أثارة المغناطيسية Remnant magnetisim: إن المواد عالية الإنفاذية المغناطيسية (كالحديد والنيكل) تتبلور وفقاً للظروف والأوضاع مع مجال الأرض المغناطيسي. وأما التحرر اللاحق من البلّورات، وإعادة التوجه وإعادة الترسب فيعطي سجلاً طبقياً عن كل توجه القارات المتغيِّر عبر الزمن.

"يقال إن "ضياء" أساسي أما "نور" فهو عَرَضي ..."[١١٩]

ويختلف الوصفان القرآني والإنجيلي في دقة التفاصيل (سفر التكوين ١٦:١ .. فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل) في حين يميّز الوصف القرآني بين نور الجسمين السماويين، بدلاً من المساواة بينهما.

**الأجسام السماوية:** ويصف القرآن الأفلاك المستديرة للأجسام السماوية، كما يصف الأفلاك المستديرة لليل وللنهار: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢١: ٣٣). وبالإضافة إلى ذلك فإن الآية الخامسة من سورة الزُّمر تصف تعاقب الليل والنهار بكلمة ""كُوّر" والتي تعني "يلف" أو "يحيط" وذلك كلف العمامة حول الرأس، (أو كما ذُكر في المعجم العربي – الإنجليزي: "لف الشيء في هيئة مستديرة")، فإنه يفهم من هذا أن وصف القرآن لا يتضمن الأفلاك المستديرة للكواكب والقمر وحسب، بل استدارة الأرض ذاتها. وعلاوة على ذلك فإن الآية الثامنة والثلاثين من سورة يس: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (القرآن الكريم ٣٦: ٣٨) تشير إلى أن النظام الشمسي برمّته

---

١١٩. Lane, Edward William. 1980. *An Arabic-English Lexicon Derived From the Best and Most Copious Eastern Sources*. Beirut, Lebanon: Librarie Du Liban. Book I, Part 8, p.2865. column 3.

يتحرك. وفي واقع الحال إن الأمر هو كذلك. فعلى الرغم من كون الشمس مركزاً ثابتاً مقارنة بمجموعة كواكب نظامنا الشمسي المحلي، لكنها تدور في الفضاء حول محور مجرّة درب التبّانة Milky Way Galaxy.

ونجد أنه في وقت كان فيه المستكشفون الغربيون يخشون من ارتياد الأفق خوفاً من السقوط منه، كانت الأوصاف القرآنية تسبق عصرها بقرون، إن لم نقل بآلاف السنين.

**الأفلاك الشمسية والأفلاك القمرية:** تنص الآية الأربعون من سورة يَس على: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (القرآن الكريم ٤٠ : ٣٦). وهذا الوصف لأفلاك منفصلة مستديرة غريب غرابة تامة. ولكن ما يتعارض والتوقعات حقاً هنا هو أنه لا ينبغي للشمس والقمر أن يدرك أحدهما الآخر لأن التصور الشائع لدى الإنسان القديم عندما يرى كسوف الشمس أن الشمس والقمر قد أدرك أحدهما الآخر. إلا أنه على الرغم من حدوث كسوف الشمس في حياة محمد، فإن هذه الآية تصحح خطأ مثل ذلك التفكير البدائي.

# علم وظائف الجسم

# Physiology

**نظرية الخلية:** إن الخلايا هي لبنات البناء لجميع الكائنات الحية، والعنصر الرئيس لمادة الخلية هو الماء، حيث يتراوح ما بين ٨٠–٨٥%. والحياة، كما يعرفها الإنسان، لا يمكن أن تستمر دون ماء، لأن الخلية الجافة خلية ميتة. وفي الوقت الذي لم تكن هذه الحقائق بارزة حتى اكتشاف نظرية الخلية في أوائل القرن التاسع عشر، يتضمن القرآن الكريم الآية التالية: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢١: ٣٠).

**تجدد الجلد:** تؤكد جميع الديانات الإبراهيمية أن هناك عذاب الجحيم. ولكن القرآن يتجاوز ذلك بخطوة مصرَحاً: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (القرآن الكريم ٤: ٥٦). لم يدرك الإنسان أن الأعضاء المختصة بتلقي الإحساس بالألم ودرجات الحرارة محصورة في الطبقة البشرية للجلد إلا عن طريق الفحص الكهربائي لوظائف الأعضاء، وعن طريق تسجيل مشاهدة ما بداخل الخلايا، بالإضافة إلى استعمال

الأساليب المجهرية المتطورة والمعقدة في الطب. إن هذه المعرفة حديثة، ومع ذلك ومنذ ألف وأربعمائة سنة خلت، في زمان ومكان كان البحث في علم وظائف الجسم لم يَرْقَ فيهما لمرحلة أبعد من التشريح، وصف الوحي أن العامل الرئيس في استمرار عذاب جهنم [لمن يدخل النار] هو تجديد جلودهم. وخير جواب للذين يتساءلون عمن لديه القوة لإنزال مثل هذا العذاب، والحكمة لمعرفة مثل هذه التفاصيل في زمن محمد هو: ﴿...إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

**فصوص الدماغ الأمامية:** تقع الفصوص الأمامية للدماغ في أقصى مقدمة جبهة الدماغ، وتدعى بالفصوص الأمامية لأنها تعلو الجبهة. فإذا ما ربّتنا على جبهتنا بأصابعنا، فإن أقرب جهة من الدماغ إلى الأصابع هي المنقطة ما قبل الأمامية للفصوص الأمامية، وهي منطقة الدماغ المختصة بالشخصية والسلوك. ويخبرنا العِلْم بالقول: " تحدث الدوافع، والتخطيط والمبادرة بالحركة في الجزء الأمامي من الفصوص الأمامية للمنطقة ما قبل الأمامية."[١٢٠] ومن المدهش إذاً أن نرى إشارة في القرآن مرتبطة بهذه الحقيقة، على النحو التالي: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ (القرآن الكريم ٩٦: ١٥-١٦).

---

١٢٠ Seeley, Rod R. Trent D. Steohens and Philip Tate. 1996. *Essentials of Anatomy and Physiology*. 2nd edition St. Louis. Mosby – Year Book. Inc. p. 211.

وعلى الرغم من أن كلمة "ناصية"، تترجم إلى الإنجليزية بكلمة "forelock"، فإنها تستحق وصفاً أطول وأدق بحيث يجب أن تكون مقدمة الرأس "fore[front]part of the head".(١٢١)

والآن، هناك القصة القائلة بأن رجلاً أراد أن يعرف أي أجزاء الجسم مسؤول عن التفكير، فقرر أنه إذا ماقام بالتفكير فإن أول جزء من جسمه يؤلمه من شدة التعب لابد أن يكون الجزء المسؤول عن التفكير. فجلس وبدأ يفكر ويفكر ويفكر. وبعد برهة أخذ يشعر بتباريح الكرسي الخشبي الصلب الذي كان يجلس عليه في أثناء تفكيره، والذي دفع بالرجل أن يركّز نتائجه على مصدر آلامه تلك.

إنها قصة مضحكة، وهي ليست للأطفال فقط.

إن مايهم القول هنا هو أنه قبل ألف وأربعمائة عام ما كان يمكن لبدوي أن يدرك أشياء لم بستطع الطب الحديث التوصّل إليها إلا في القرن الحالي. إن أمياً عربياً من الماضي ماكان له أن يتكلم بكلمات تتجاوز حدود عبارات من مثل: "عينان كاذبتان"، و "شفتان كاذبتان" و "قلب مخادع". إن من يعتقد أن بدوياً يرجع إلى اثني عشر قرناً خلت كان بمقدوره أن يحدد العضو من الجسد في المنطقة ما قبل الأمامية من الفصوص الأمامية للقشرة الدماغية والذي يرتبط بإظهار الآثام والأكاذيب لابد أن يكون متّهماً بامتلاكه أجندته الخاصّة به. فهذه أمور لم تكن تعد البتة

---

١٢١ Wehr, Hans

ثقافة عامة في تلك الأيام، وفي يومنا هذا أيضاً لايمكن أن تعد كذلك إلا في الأوساط العلمية.

**آليات عمل الجسم الداخلية:** قبل وصف ابن النفيس للدورة الدمورة بستمائة عام، وقبل ألف عام من نيل وليم هارفي William Harvey شرف السبق في كتابه المعنون: **تمارين تشريحية خاصة بحركة القلب والدم في الحيوانات** *Exercitation Anatomica de Motu et Sanguinis in Animalibus* في العام ١٦٢٨ ميلادية، ألمح القرآن الكريم إلى عمليات الهضم digestion، والامتصاص absorption، والدورة الدموية blood circulation، والإفراز excretion على النحو التالي:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ (**القرآن** الكريم ١٦: ٦٦).

إن علوم الدورة الدموية، وعمليات الهضم، والامتصاص المعوي، والإفراز الغددي بقيت ألغازاً إلى ما قبل بضعة قرون قليلة خلت. وإن مصادفة آية قرآنية واحدة في القرآن الكريم ترتبط مع كل واحدة من تلك العمليات يعد بحد ذاته مفارقة علمية معقدة.

# أجسام الماء

# Bodies of Water

يمجد القرآن الكريم الخالق بذكر بعض صفات خلقه الفريدة التي لم تخطر ببال أحد. ولنأخذ مثالاً على ذلك الآيتين التاليتين:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (القرآن الكريم ٢٥: ٥٣).

و ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (القرآن الكريم ٥٥: ١٩-٢١).

إن كلتا الآيتين تشيران إلى الحاجز الذي يفصل ماء النهر العذب عن ماء البحر المالح الذي يصب فيه. ومنطقة الماء قليلة الملوحة هذه معروفة لدى الجميع، وهي معروفة في يومنا هذا بطبيعة الحال. لكن يصعب التكهن فيما إذا كانت معروفة لدى محمد، ومع ذلك يمكننا اقتراح بعض الملاحظات. فبادئ ذي بدء، تعد الأنهار نادرة الوجود في الشرق الأوسط. كما أن معظم مياه الآبار في الشرق الأوسط مالحة، وبالتالي فإن المياه قليلة الملوحة وفق مقاييس الأمم المتطورة اليوم ربما كان يعد ماءً صالحاً

للشرب في زمن محمد.

وفي جميع الأحوال، إذا ما تأمل إنسان في يومنا هذا نهراً يصب في بحر فإنه يعلم إذا ما أعمل تفكيره أن أحد الجسمين المائيين لن يطغى ذات يوم على الآخر. أما لو كان الأمر منوطاً بإنسان القرن السابع كي يتحرّى في ماء المصب، فالأرجح أنه كان سوف يتوقع من قوة نهر كبير وحجمه كالنيل أو دجلة أو الفرات مثلاً أن يوسع هذا النهر أو ذاك من منطقة الماء قليل الملوحة بحيث تطغى في النهاية على ملوحة البحر برمته. بل إن طرح مثل هذه المسألة أصلاً كان سيبدو غريباً لسكان الصحراء الذين لم يكونوا ممن يركبون البحر أصلاً. ومع ذلك فما جاء به محمد هو الحق، فلو كان مشعوذاً لما كان عليه أن يثير موضوعات من مثل تلك الغرابة في المقام الأول. وعلى افتراض أنه كان يعلم الحقيقة (وفي الغالب أنه لم يكن يعرفها)، ما النفع الذي كان يرتجيه جراء ذكره لها؟

الاقتباس الثاني أعلاه قد يتعلق بحقيقة أن المحيطات والبحار تتفاوت في الملوحة salinity، والحرارة temperature، والكثافة density، وهي تلتقي عند حدود واضحة المعالم.(١٢٢) فعلى سبيل المثال، يلتقي البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي عند حدود مستقرة ومميزة، ويمتد البحر الأبيض المتوسط عدة مئات من الكيلومترات مستقطراً إلى حد بعيد ماءً ذا حرارة أعلى، وملوحة أعلى، وكثافة أدنى عند عتبة جبل طارق على عمق ١٠٠٠

١٢٢. Davis, Richard A. Jr. 1972. *Principles of Oceanography*. Reading, Massachusetts: Addison – Wesley Publishing Co. P 92-93.

متر.(١٢٣) والحدود مع المحيط الأطلسي الأكثر برودة، والأقل ملوحة والأكثر كثافة على نحو ثابت وحاد نسبياً على الرغم من التيارات العاتية، والموجات المستمرة، وحالات المد المنتظمة التي يتوقع منها أن تمزج هذين الجسمين المائيين، أو في الأقل أن تمزج بينهما عند ملتقاهما. فهل هذا مثال لـ "بَرْزَخٌ" الذي "لا يَبْغِيَان" المذكور في الآية السابقة؟ وإذا كان كذلك، فهو ملفت للنظر ليس فقط بحد ذاته، بل لأن المثال يتكرر عند حدود البحار والمحيطات الأخرى.

ثمة نقطة أخرى تتعلق بالبحار هي ذكر الأمواج الداخلية العميقة. وذكر مثل هذا قد يبدو غريباً للوهلة الأولى، وله ما يبرره، لأن هذا الاكتشاف في واقع الأمر اكتشاف حديث.

ونعلم من علم المحيطات الحديث أن الأمواج العميقة الداخلية: "توجد عند سطح بيني بين الطبقات المائية ذات الكثافات المختلفة."(١٢٤) وتسلك الأمواج الداخلية سلوك الموجات السطحية تماماً، وقد تتكسر. إلا إنه بخلاف الأمواج السطحية لا يمكن رؤيتها أو دراستها دون أجهزة متطورة، ومن المؤكد أن هذا لم يكن بصنيع أهل صحراء كانت مجرد السباحة بالنسبة لهم مهارة غريبة.

---

١٢٣ Kuenen, Philip H. 1960. *Marine Geology*, New York: John Wiley & Son, Inc. p.43 .

١٢٤ Gross, M. Grant. 1993. *Oceanography, a View of Earth*. 4th ed. Englewood Cliffs: Prentice – Hall, Inc. p. 223.

ومـن المشـوّق الرسـم التخطيطـي الـذي اختـاره م. غرانـت غْـرُسّ M. Grant Gross لكتابـه **علــم المحيطــات، نظــرة علــى الأرض** *Oceanography, a View of the Earth* الـذي يوضـح رسمـه التخطيطي مستويي أمواج، أحدهما عند السطح، والآخر داخلي، عند السطح البيني بين الماء العميق شديد الكثافة، والطبقة السطحية الأقل كثافة.[١٢٥] وماهو ممتع هنا هو أن هذا الرسم التوضيحي الممتع يتفق تماماً والآية القرآنية:

﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾. (القرآن الكريم ٢٤: ٤٠).[١٢٦]

فهذا النص لايصف وحسب طبقات الأمواج السطحية والعميقة، بل يشير أيضاً إلى ﴿... ظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ..﴾ ظلمات لايكاد المرء يرى معها شيئاً آخر. إن مسألة غياب النور على عمق ١٠٠٠ متر في المحيط هو معرفة حديثة، ولا يمكن التوصل إليها إلا باستخدام أجهزة خاصة، لأن من عادة صدر الإنسان أن ينفجر داخلياً عند مثل تلك

---

١٢٥. المرجع السابق، ص 224

١٢٦. Muhammad Al-Hilali and Muhammad Khan translation

الأعماق.(١٢٧) ويتطلب التعرف على كلّ ظلام ذي مغزى غوصاً على عمق ينيف على الخمسين متراً، ولكن الغوص على عمق يزيد على الخمسة عشر متراً دون التزود بأجهزة، لايمكن أن يقوم به إلا أندر القدرات البشرية، وهذا طبعاً بين أقوام يجيدون السباحة في المقام الأول.

## الغلاف الجوي

## The Atmosphere

**دوار الارتفاعات**: إن دُوار الجبال، أو ضيق التنفس بسبب الارتفاع لم يحدد طبياً إلا مؤخراً وذلك في العام ١٩٣٧ميلادية، وفي الغالب لم يكن معروفاً قبل عقود القرن التاسع عشر.(١٢٨) وهناك عدة أسباب لهذا، إلا أن السبب الأهم هو دُوار الجبال يتطلب التسلق على ارتفاع عمودي يبلغ ثمانية آلاف قدم أو أكثر. وقبل القرن العشرين كان يجري تسلق مماثل للجبال ولكن ذلك لم يكن تسلقاً سريعاً البتة.

وفي الواقع لم يكن هناك من بواعث لسكان الأراضي المنخفضة أن يتسلقوا الجبال وخصوصاً تلك التي يتجاوز ارتفاعها العمودي ثمانية آلاف قدم، كما أن التسلقات الترويحية على افتراض أنها كانت مجهولة في الشرق

---

١٢٧. Elder, Danny; and John Pernetta. 1991. *Oceans*. London: Mitchell Beazley Publishers. P.27

١٢٨. *Encyclopedia Britannica*. CD – Rom. Under "Altitude Sickness".

الأوسط حيث كان القوم يضنون بأنفسهم لمجرد الحفاظ على البقاء فوق أرض جدباء قاسية. وقبل التوصل إلى طرق المواصلات الحديثة كيَّف سكان الجبال أنفسهم على ندرة مثل ذاك الجو الذي يعيشون فيه. أما الذين كانوا يسعون وراء مناطق أكثر ارتفاعاً في عملية رعي ماشيتهم فقد مرّوا بتحول بطيء من ارتفاع إلى آخر بحيث تعودت أجسامهم على التكيُّف.

وعلى العموم، فإنه قبل مائتي عام خلت كان دُوار الجبال غير معروف على الإطلاق حتى لدى الأمم المتطورة. وأما في الشرق الأوسط فإن القمم الجبلية التي يزيد ارتفاعها على الـ ٨-١٠٠٠٠ قدم قليلة ومبعثرة، وبالتالي فإن احتمالية أن يكون عربي قد خَبِر دُوار الجبال قبل اختراع المحرك السريع الاشتعال أمراً شبه معدوم. ومع ذلك فقد ورد في القرآن إشارة لضيق التنفس الذين يكابده الذي يقدمون على المغامرة بالصعود إلى ارتفاعات شاهقة في الآية التالية:

﴿ ... يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ ﴾. (القرآن الكريم ٦: ١٢٥).

**الأرصاد:** لم يصف علماء الأرصاد تشكل السُّحب الركامية المولدة للمطر إلا حديثاً. وباختصار فقد تبين أن السحب الركامية الصغيرة تهاجر ملتحماً بعضها ببعض؛ ويتولد تيار هوائي صاعد لدى ازدياد حجم

السحابة، مما ينجم عنه كتلة من البخار تنمو عمودياً كالركام.[(١٢٩)،(١٣٠)] وعندما تتمدد السحابة عمودياً بالقدر الكافي، تؤدي برودة الغلاف الجوي الأعلى إلى التكثف الذي يهطل مطراً.

وفي حين احتاج علماء الأرصاد للتصوير بالأقمار الاصطناعية، والطائرات، ومناطيد الطقس، والحواسيب للتحليل، وأجهزة أخرى دقيقة لتحديد ما سلف ذكره، فقد سبق القرآن ذلك بالقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ...﴾ (القرآن الكريم ٢٤: ٤٣).

"جِبَالٍ" من كتل سحاب "فِيهَا بَرَدٍ"؟ أليس هذا مثيراً للاهتمام؟ يصف القرآن السحب المولدة للمطر بأنها ركام، أما تلك المولّدة للبَرَد فتوصف بأنها كالجبال. وفي الواقع أن مثل ذلك الوصف دقيق لأن الطبقات العليا لاتتعرض لأحوال الغلاف الجوي الذي يولد البَرَد من جراء التكثف والتجمد إلا عندما تطل السحب الركامية كالجبال عند جذور

١٢٩. Anthes, Richard A. John J. Cahir, Alistair B. Fraser, and Hans A. Panofsky. 1981. *The Atmosphere*. 3rd ed. Colummbus: Charles E Merrill Publishing Co. P268-269.

١٣٠. Miller, Albert and Jack C. Thompson. 1975. *Elements of Meteorology*. 2nd ed. Columbus: Charles E, Merrill Publishing Co. p.141.

علوية تتراوح ما بين ٣-٤٠٠٠ قدم وسقف ارتفاعه ما بين ٢٥-٣٠٠٠٠ قدم.[١٣١] ونقول من جديد إن هذا يعد معرفة حديثة للجميع، ولكن المسلمين عرفوه من قبل.

**دورة المطر**: قد يبدو لمعظم الناس أن دورة المطر لا تحتاج إلى إعمال فكر كبير، لكن من جديد على المرء أن يخرج من قوقعة صمت القرن الواحد والعشرين ليستمع لما كان يردده الناس قبل ألف عام أو قبل مائتي عام فيما يختص الأمر ذاته.

اقترح رينية ديكارت René Descarte، فيلسوف القرن التاسع عشر الشهير أن مياه البحر تسرّبت عبر قنوات تحت الأرض إلى مخازن أسفل قمم الجبال ... أي ما يشبه برج مياه طبيعي. وكتب أثناسيس كيرتشر Athanasius Kircher في كتابه **عالم تحت سطح الأرض** (١٦٦٤) *Mundus subterraneus* أن مياه البحر اندفعت نتيجة قوة التيارات إلى صدوع تحت الأرض، وأخيراً إلى منافذ عند الينابيع. حتى إن بعضهم تبنى المفهوم القائل بوجود بحر عظيم تحت الأرض متصل بالمحيطات، ويزود الماء بوساطة الينابيع والأنهار، وهو ما أورده جون وُدورد John Woodward في *An Essay Toward a Natural History of the Earth and Terrestrial Bodies* **نحو تاريخ طبيعي للأرض والأجسام الأرضية** ١٦٩٥ ميلادية.

---

١٣١. المرجع السابق، ص 141

إلا أن برنارد بليسي Bernard Palissy كان أول من اقترح أن المصدر الوحيد لماء الينابيع والأنهار هو هطل المطر (كما جاء في كتاب **مقالات رائعة** *Discours Admirables*، العام ١٥٨٠ ميلادية). وكانت أولى التجارب التي أجريت لتدعيم فرضيته وقد أجريت في حوض نهر السين Seine عند نهاية القرن السابع عشر تقريباً.[١٣٢]

ومما يثير الدهشة أنه لا أهل جبل ويليل في هاواي Mount Waialeale, Hawaii (على الرغم من وجود أعلى معدل عالمي لهطول الأمطار سنوياً عندهم إذ يبلغ ١١.٧٠٠ملم سنوياً) ولا بدو الصحراء (على الرغم من حاجتهم الماسة للأمطار) قد تمكنوا من فهم دورة الأمطار بأنفسهم. ولكن نصّاً قرآنياً واحداً قدّم حقيقة الأمر قبل أن تنتشر مثل تلك الآراء أو تُختبر بألف عام ونيف:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (القرآن الكريم ٣٩: ٢١).

---

١٣٢. *Encyclopaedia Britannica*. CD-Rom.

# التشريح وعلم الأجنة

# Anatomy and Embroyology

إن التوافق بين الحقائق القرآنية وعلم الأجنة embryology دقيق ومذهل للحد الذي دفع بالعديد من الباحثين لتأليف كتب حول هذا الموضوع. وعليه فإن تضمين ملخص كامل في ثنايا هذا الفصل يعدّ غير كاف. إلا أنه يمكن أن نوجز بعض السمات الأكثر بروزاً حول هذا الموضوع مع الإشارة إلى بعض الكتب الأكثر شمولاً إذا ما رغب القارئ في التعمق في هذا الجانب.

**الحَمْل**: إن مفهوم أن الحمل ينتج حصيلة اختلاط سائل الأبوين لم يكن معروفاً في العالم الغربي حتى اقترحه بيير لوي مورو دمبرتوي Pierre-Louis Moreau في كتابه **نظام الطبيعة** *Systèm de la Nature* في العام ١٧٥١ ميلادية. فقبل هذا الاقتراح، استُمِدّت المفاهيم السائدة عن الحمل جذورها من اقتراح أرسطو Aristotle في القرن الرابع قبل الميلاد وهو أن الجنين يتخلق من تجلط أو تخثر دم الطمث بوساطة "أبخرة" المني التي تعمل كمادة محفزة. ولعل مثل هذه الآراء الشهيرة قد شقت طريقها إلى أفكار أحد مؤلفي الكتاب المقدس على الأقل، حيث ورد في سفر أيوب (١٠:١٠): "ألم تُصِبَّني كاللبن وخثرتني كالجبن". وعندما اكتشف أنتوني فان ليونوك Antonie van Leeuwenhoek الحييات المنوية spermatozoa باستخدام المجهر، أثبتت تجارب لزارو سبلنزاني Lazzaro

Spallanzani أن هذه الحبيبات لا تعدو كونها طفيليات في السائل المنوي.

وكان هناك أولاً نظرية التخلق التلقائي spontaneous generation ثم تلتها نظرية ماقبل التشكُّل pre-formation (والتي تقترح أن جنيناً قزماً متشكلاً مسبقاً يعيش على هيئة إنسان مصغّر في رأس النطفة) (جان سومردام Jan Swammerdam ١٦٣٧—١٦٨٠ميلادية) أو في البويضة (دي غراف De Graaf ١٦٤١—١٦٩٣). ثم أفسحت هاتان النظريتان المجال أمام نظرية اختلاط سائل الأبوين في القرن الثامن عشر، ثم خسرت هذه النظرية المعركة في نهاية المطاف إثر التجارب التي أجراها دريش Driesch قبيل مطلع القرن العشرين. ولكن، وعلى مدار الإثني عشر قرناً الماضية كان عامة المسلمين يدركون ما ورد في القرآن الكريم:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ... ﴾ (القرآن الكريم ٤٩: ١٣).

وكذلك قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ... ﴾ (القرآن الكريم ٧٦: ٢).

وقد سجل ابن حجر العسقلاني في القرن الرابع عشر هذا الصراع بين الآراء الخاطئة لعلماء التشريح في زمانه والتنزيل الحكيم قائلاً:

بأن الكثير من علماء التشريح ذهبوا إلى أن مني الرجل ليس له أثر في خلق الطفل. وذهبوا إلى أن أثره يقتصر على تخثير

الطمث الذي يخلق منه الإنسان. وتتعارض الأحاديث النبوية مع ما يقولون. فسائل الذكر يسهم في الواقع بالقدر ذاته الذي يسهم فيه سائل المرأة في تكوين الجنين[١٣٣].

ومثال على واحد من مثل تلك التعاليم هو عندما سئل النبي مرة: "يا محمد مِمَّ يخلق الإنسان؟" فأجابه النبي: "مِنْ كُلٍّ يخلق من نطفة الرجل، ومن نطفة المرأة".[١٣٤]

وفي حديث منفصل جاء عن محمد قوله: "ما من كل الماء يكون الولد وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه".[١٣٥] وفي الواقع فإن هذا لم يكن معروفاً في دنيا العلم إلى أن قام هيرتوغ Hertwig بتوصيف تلقيح النطفة للبويضة وذلك في العام ١٨٧٥ ميلادية.

**تطور الجنين:** ويتخلق الجنين بمراحله المختلفة في قلعة مرنة لكيس نخطيٍّ مشيمي معلّق في رحم عضلي محصّن هو الآخر ضمن جدار بطني منتفخ. ويبدو أن هذه الطبقات الثلاث هي التي تشير إليها الآية: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ... ﴾ (سورة الزمر:٦).

١٣٣. *Fath Albari Sharh Sahih AlBukhari*. Ibn Hajar AlAsqalani. Bab Alqadar. Cairo: AlMakkaba Assalafiyyah. Vol. II. P.480.

١٣٤. **مسند أحمد.**

١٣٥. رواه مسلم.

إن مفهوم الجنين البشري عبر تطور مراحله لم يُسجّل في أدبيات العلم قبل القرن الخامس عشر. ووفقاً لنظريتي ماقبل التشكُّل والتخلق التلقائي كان الطفل يخلق كاملاً [لا عبر مراحل]، وكان ينمو نمواً تناسبياً. إذاً، فمراحل تطور الجنين لم تتم مناقشتها [في الغرب] حتى القرن الخامس عشر، ولم يستطع العلماء أن يحددوا مراحل تطور أجنة الصيصان إلا في القرن السابع عشر وذلك بفضل اختراع فان ليونهوك Van Leeuwenhoek للمجهر، أما تحديد مراحل تطور الأجنة البشرية فكان لا بد أن ينتظر حتى القرن العشرين، وذلك حين تحدث عنه ستريتر Streeter. ومع بلوغ القرن العشرين كان قد مضى ثلاثة عشر قرناً على ورود مراحل تطور الجنين في القرآن محققا بذلك سبقاً يُندي جبين عالم الأجنة رمبلستلتسكن Rumplestilskin. مامدى دقة الوصف القرآني لذلك؟ إليك النص كي تحكم بنفسك:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (القرآن الكريم ٢٣: ١٣–١٤).

من وجهة النظر العلمية، كل ما تدور حوله الآيتان اللتان تصفان المراحل الأولية من تشكل الجنين هو من المعارف العلمية للقرن العشرين،

وهـذه المراحـل هـي هيئـة القطـرة في المرحلـة الأولى وهـي النطفـة (تكـوّن اللاقحة(*) المشكّلة من اتحاد النطفة بالبويضة)، والالتصاق المحكم "النُّطْفَةَ عَلَقَةً" (أي كيس الخلية الناجم عن انقسام اللاقحة والذي يشبه خثارة دم تحت المجهر)، "...فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ" (الرحم). ثم تتطور اللاقحة إلى زغب مشيمي يغزو جدار الرحم، مؤدياً بذلك إلى الالتصاق بجدار الرحم بعد ذلك؛ لأن الزغب المشيمي يصبح محاطاً بالجوبات السخدية المجهرية (أي بحيرات) مـن الـدم. وفي هـذه المرحلـة يكـون الـدم راكـداً ولـيس هنـاك ممـر شـرياني — وريـدي للتبـادل، لأن كـيس الجرثومـة يكـون صـغيراً لدرجـة لا يستطيع معها امتصاص الغذاء من نزّ المغذيات من بحيرات الدم الدقيقة. ومن هنا يظهر كيس تحت المجهر وهو علقة دم دقيقة. إن الكلمة العربية "علقـة" (الـتي تـترجم بـ "clot" في الآيـة أعـلاه) تصـف في الواقـع ثـلاث خصال: الأولى أنها علقة من الدم، والثانية أنها على هيئة العلقة، والثالثة خاصية التعلق أو الالتصـاق.(١٣٦) وفي الواقـع فـإن هـذه الحـالات الـثلاث تنطبق على هيئة الجنين في مرحلة التطور هذه، أي العلقة، شكلاً ووظيفية. ونقول مجدداً إن هذه المعرفة العلمية هي من معارف القرن العشرين، ولكن الوصف الربآني سبقها بألف وأربعمائة عام خلت.

وفيما يختص بهذه النصوص القرآنية التي تتعلق بالتطور البشري يقول الدكتور كيث ل. مور Keith L. Moore، في كتابه حول علم الأجنة

---

(*) اللاقحة: خلية تنشأ من اندماج مشيجين [المترجم].

١٣٦. Lane, Edward William. Book I, Part 5. P 2134, column 3

بعنوان **الإنسان المتطور** *The Developing Human* بأنه: "ذُهل بدقة العبارات التي نزلت في القرن السابع الميلادي قبل أن يتأسس علم الأجنة."(١٣٧) ويشير الدكتور مور إلى أن كلمة "مضغة" الموصوفة في الآية ١٤ من سورة المؤمنون تعني "قطعة ممضوغة" a chewed lump، ويربط هذا بحقيقة أن التسلسل المنحني للفلقات القِطعية في مرحلة التطور هذه تشبه كثيراً التسلسل المنحني لآثار الأسنان عندما تعض على قالب ما.(١٣٨)(م.ت.)

وفضلاً عن ذلك، فإن النص القرآني المذكور أعلاه ﴿... فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ...﴾ يتوافق تماماً مع التطور التسلسلي للهيكل الغضروفي [العمود الفقري] وذلك قبل تخلُّق العضلات.

وقد تشير الآية ﴿... ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ...﴾ إلى تحوّل الجنين في الأسبوع الثامن من التطور من جنين غير واضح المعالم إلى جنين يحمل

---

١٣٧. Moore, Keith L. 1983. *The Developing Human, Clinically Oriented Embryology, With Islamic Additions*. 3rd ed. Jeddah: Dar Al-Qiblah with permission of W. B. Saunders Co. Foreword.

١٣٨. يميل العديد من الناس للنيل من مكانة الدكتور كيث مور Keith L.Moore في مجال التنمية البشرية، ولكن القائمة التالية بمؤهلاته واستحقاقاته تؤكد أن إقصاء واحد من أبرز العلماء في مجال التشريح وعلوم الأجنة ليس أمراً سهلاً. فهو أستاذ شرف فخري في التشريح وعلوم بيولوجيا الخلية في جامعة تورونتو Toronto، وكان قد شغل منصب نائب عميد في كلية الطب، كما كان رئيس قسم علوم التشريح لمدة ثمانية أعوام. وفي العام ١٩٨٤ تلقى جائزة J.C.B. (وهي واحدة من أرقى الجوائز في علوم التشريح في كندا). كما كان مديراً سابقاً لمؤسسة تعرف باسم "المؤسسة الأمريكية – الكندية لأخصائيي علوم التشريح ومجلس اتحاد علوم البيولوجيا". ولقد ترجم كتابه "الإنسان المتطور *The Developing Human*" إلى ثماني لغات، وتحمل الطبعة الثالثة منه (١٩٨٣) الإضافات الإسلامية.

سمات إنسانية مميزة. ولعل الآية الخامسة من سورة الحج: ﴿... ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ...﴾ تشير إلى حقيقة أن بعض الأنسجة في هذه المرحلة يمكن تميزها في حين لا يمكن تمييز بعضها الآخر.

ويطول تحليل الدكتور كيث مور لدرجة يتعذر معها مناقشته مناقشة وافية في ثنايا كتاب غير مكرّس لهذا الغرض.[١٣٩](م.ت.) ولكن من الناحية العلمية لم يكن أحد في الغرب يعلم شيئاً مما سبق ذكره قبل اختراع المجهر في القرن السابع عشر على يد فان ليوهوك Van Leeuwenhoek وذلك لتعذر رؤية مثل تلك الأشياء بالعين المجرّدة.

## متفرقات

## Miscellany

**العسل**: وفقاً لما جاء في القرآن فإن العسل ﴿... فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ...﴾ (القرآن الكريم ١٦: ٦٩). والمنافع الدوائية للعسل اليوم معروفة ومتنوعة لدرجة يتعذر تعدادها في هذا المقام.

وكون العسل غنياً بمضادات الأكسدة، والفيتامينات، والمعادن، فإن له

---

[١٣٩]. مرجع رائع آخر هو *Human Development As Revealed in the Holy Quran and Hadith* للدكتور محمد علي البار Muhammad Ali Albar متوفر في العديد من مكتبات البيع الإسلامية.

خصائص ملطفة مطهِّرة مضادة للميكروبات، وللفطريات، ويستخدم في معالجة الجروح والتمزقات ويساعد على الشفاء السريع لآلام الحنجرة.

وإن النقطة المثيرة للاهتمام هي أنه أُثر عن محمد قوله: "ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء".[١٤٠] وسواء أصح ذلك أم لا، فإن ذلك ما آمن به محمد، وعليه فإن المرء يتوقع وهو على حق أن يجد كتاب طبخ للعلاج في القرآن هذا لو كان محمد هو المؤلف. إلا أن هذا ليس هو الحال، فذكر العلاج الطبي غائب غياباً واضحاً عن القرآن.

ولكننا نجد المزيد في تعاليم محمد بهذا الصدد.

فصحيح البخاري وهو واحد من أكثر الكتب المرجعية احتراما وتوثيقاً لمجموعات الحديث، فيحتوي على ما لا يقل عن ثمانية وخمسين باباً في فصل الطب. فالطب على مايبدو كان كثيراً مايشغل بال محمد. وتظل المسألة أنه على الرغم من انشغال محمد وأزواجه وبناته المتكرر بموضوع الطب، فإن القرآن لا يعكس اهتمام محمد بهذا الصدد. وبخلاف ذلك تماماً، فإن الإشارة القرآنية الوحيدة لمادة شفاء هي الإشارة إلى العسل، ولا أظن أحداً يختلف حول هذه النقطة.

**بصمات الأصابع**: قدّمت المجلة العلمية البريطانية المسمّاة "**الطبيعة**"

١٤٠. Al- Bukhari, Muhammad Ibn Ismaiel; translated by Dr Muhammad Muhsin Khan. 1997. Sahih Al-Bukhari. Riyadh: Darussalam. Vol. 7, *hadith* No. 5678,.p. 326.

"Nature" ملاحظات حول الحالة الفريدة لبصمات الأصابع في العام ١٨٨٠ ميلادية. بعد ذلك اقترح السير فرانسس غالتن Sir Francis Galton تصنيفاً لنظام البصمات وهو الذي تم في إثره تطوير نظام البصمات ونشره وتبنّيه من قبل شرطة الـ سكتلاند يارد Scotland Yard البريطانية في مطلع القرن العشرين ١٩٠٠. ومنذ ذلك الحين تم تبنّي نظام غالتن – هنري Galton-Henry لتصنيف البصمات في أنحاء العالم كافة.

ولكن لماذا كان هذا الأمر هاماً؟ ببساطة لأنه في حين لم تعرف الحالة الفريدة لبصمات الأصابع حتى القرن التاسع عشر، كان القرآن الكريم قد أشار إلى حقيقتها قبل ذلك باثني عشر قرناً. فالآيات ٣-٤ من سورة القيامة تشير إلى يوم القيامة وتؤكد على قدرة الله على بعث البشر وإرجاع جميع الأعضاء حتى أناملهم إلى الحالة التي كانت عليها: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ (القرآن الكريم ٧٥: ٣-٤).

ونتحول الآن إلى موضوع لايفهمه الكثير من البشر:

فخلال آيات القرآن يشير الله إلى نفسه بـ "رب المشرق والمغرب". فالقارئ العام قد تدهشه حقيقة أن الله لايشير في موضع واحد من القرآن إلى ذاته الإلهيه بـ "رب الشمال والجنوب".

ربما علينا أن نفكر في هذا مراراً وتكراراً وذلك لأن الكتب المنزّلة تؤكد

جميعاً على كمال الخالق وقدراته اللامحدودة. فليس هناك من كتاب قط، سواء أكان ذلك العهد القديم، أم العهد الجديد، أم القرآن الكريم، يضع قيوداً على قدرة الله. وهذا ينطبق كذلك على الوصف السابق من أن الله "رب المشرق والمغرب".

ولنفكر في هذه المقولة. فلو قيل لنا بأن نتجه شمالاً حتى نصل إلى أقصى الشمال، فإننا سوف نصل إلى القطب الشمالي ونقف، وذلك لأننا إن أردنا بعد ذلك مواصلة المسير فسوف نتجه جنوباً. ونقيض هذا صحيح، لأن التقدم خطوة إضافية بعد القطب الجنوبي يعنى التوجه شمالاً. فالشمال له حدٌّ أعلى وللجنوب حدُّه الأدنى.

ولكن ماذا عن الشرق والغرب؟ فلو قيل لنا أن نسافر شرقاً (أو غرباً) ونتابع المسير حتى النهاية في كلّ من الاتجاهين، فإننا سوف نبقى في حالة دوران حول الكرة الأرضية حتى يأتينا الأجل، أو إلى الأبد. وهذا هو بيت القصيد، فإننا إن نصف الله بأنه "رب الشمال والجنوب" فإننا بذلك نضع حدوداً على قدرة الله، في حين أن الوصف "رب المشرق والمغرب" يتضمن اللامحدودية.

ومن هنا تأتي أهمية وصف القرآن لله بـ "رب المشرق والمغرب" وليس بـ "رب الشمال والجنوب". فهل يمكن لنا أن نظن أن هذا كان من قبيل المصادفة؟ ربما "كلا" وذلك لسبب بسيط.

ففي الآية الرابعة والأربعين من سورة البقرة أمر الله المسلمين بالتوجه

في صلاتهم من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة، وقبل ذلك بآيتين أخبر الله المؤمنين بالإجابة عن الاعتراضات على مثل هذا التحوّل في وجهة الصلاة، فقال: ﴿ ... قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ... ﴾ (القرآن الكريم ٢: ١٤٢).

وهنا تكمن المشكلة، فهذه الآيات أُنزلت عندما كان المسلمون يعيشون في المدينة المنورة فيما يُعرف اليوم بـ المملكة العربية السعودية. وفي المدينة، فإن تغيير اتجاه الصلاة من القدس إلى مكة يعني التحوّل بوجهة الصلاة من الشمال والشمال الغربي إلى الجنوب والجنوب الغربي. ومع ذلك، ما التعليمات التي تلقّاها المسلمون للإجابة عن الاعتراضات التي يمكن أن تنجم حول هذا التحوّل؟ كانت الإجابة هي بالقول: ﴿... لِلَّه الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ فلو كان ثمة موضع يقال فيه "لله الشمال والجنوب" لكان يجب أن يكون في هذا الموضع. ولكن، مالذي كان يمكن أن يقوله الإنسان العادي؟ كان يمكنه أن يقول "بدِّل الاتجاه من الشمال للجنوب، لأن لله الشمال والجنوب". ولكن مالذي يقوله القرآن؟ يقول القرآن ﴿... لِلَّه الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾. من الواضح أن ثمة رسالة أعمق هاهنا، وهي بلا شك رسالة تدل على لامحدودية قدرة الله وجوهره.

ثمة نقطة أخيرة في هذا الموضع: فخلال حياة محمد كان القطبان الشمالي والجنوبي ومحور دوران الأرض غير معروفين بعد. وبسبب ذلك فإنه لم يتم البرهان على كروية الأرض لعدة قرون تالية، إن لم نقل ألف عام. وعاش العرب في منطقة محدودة من العالم حيث اتجاهات البوصلة التي

ذكرت للتو لم تكن لتوحي بأي معنى ضمني. ولذلك ولو رغب العرب في التعبير عن سلطان الله وفق ماذكرناه، لما كان بمقدورهم فعل ذلك. بل يمكن لنا أن نتخيّل أنه لو أراد أذكى البدو في ذلك الزمان وأشدهم ثقافة أن يعبّر عن سلطان الله وجبروته لما كان بوسعه أن يزيد على القول بأن الله هو رب الشمال والجنوب والشرق والغرب ومابين ذلك. إن حقيقة غياب وصفَي الشمال والجنوب عن القرآن الكريم في هذا السياق يبرهن على قدسية أصل هذا الوحي، وبالتالي فهو على خلاف مايمكن أن يصدر عن قول البشر.

# ٩: ملخص الأدلة

**إن الحقائق أشياء عنيدة، ومهما كانت أهواؤنا، أم ميولنا، أو ماتمليه علينا عواطفنا، فإنها لاتستطيع تغيير حالة الحقائق والبراهين.**

John Adams جون آدمز .

يقول القرآن إن ما جاء فيه هو كلام الله، وبالتالي هو معصوم عن الخطأ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (القرآن الكريم ٤١:٤٢).

ويزعم أناس من غير المسلمين أن القرآن كان من تأليف محمد. ولكن وكما يقول الدكتور موريس بوكاي: "من السهل طرح فرضية أن محمداً كان مفكراً بارعاً على افتراض أنه تخيّل بمفرده ماكان على العلم الحديث اكتشافه بعد مضي قرون عدة. إلا أنه بفعل ذلك ينسى الناس ببساطة شديدة ذكر نواح أخرى مما تفتقت عنه تلك العبقريات من تعليل فلسفي،

ألا وهي الأخطاء الفادحة التي تكتنف مؤلفاتهم."[١٤١]

ليس هناك "أخطاء فادحة" في القرآن. ليس هذا وحسب، بل يبدو أن القرآن يخلو حتى من أدقّ الأخطاء. وهذا النقاء ملفت للنظر إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنه يطرح مثل هذا الفيض من المعلومات. ولاشك أن العديد من المقولات الموجودة في القرآن لابد أنها بدت أموراً غريبة جداً في زمن محمد، بل وغير مفهومة، ووربما غير ضرورية للوحي في ظل مستوى التاريخ والعلم آنذئذ. فإذا ما ارتأى بعضهم أن محمداً كان محتالاً، فإن علينا أن نتساءل لماذا طرح محمد مثل ذلك العدد الكبير من التنبؤات بأحداث مستقبلية، وحقائق علمية لم يتم التوصل إلى إثباتها إلا بعد قرون عدة، إن لم يكن بعد ألف عام. وكيف تمكن من فعل ذلك على النحو الصحيح، ودون أدنى خطأ؟

ونقول بعبارة الدكتور موريس بوكاي: "كيف تأتّى لرجل قبل ألف وأربعمائة عام أن يصحّح أوصافاً موجودة للحدّ الذي أزال معه معلومات غير صحيحة علمياً، وبمبادرة منه أدلى بعبارات لم يتحقق منها العلم إلا في يومنا هذا؟ إن فرضية الاحتيال هذه لا يمكن الدفاع عنها بتاتاً."[١٤٢]

في معرض الدفاع عن النفس، غالباً ما يطرح غير المسلمين جدليات من قبيل "كتابنا ضد كتابكم"، زاعمين أن القرآن إن كان يناقض العهدين

---

١٤١. Bucaille, Maurice, p.162.

١٤٢. المرجع السابق، ص 148.

القديم والجديد فإنه لايمكن أن يكون وحياً منزّلاً. ولكن هذه الجدلية لا تصلح إلا إذا كان الكتابان على القدر ذاته من المصداقية، فضلاً عن هذا الخيار – خيار أي كتاب أكثر موثوقية – لابد أن يُتْرَك الخيار فيه إلى حكم القارئ.

كما يطرح غير المسلمين جدليات مبنية على أسس العادات والتقاليد ولكن هذه الموضوعات ليس لها علاقة بتحليل الدين. وهناك موضوعات أخرى مثل تعدد الزوجات، وحجاب المرأة، ووظيفة الفرد في الأسرة، وتحريم أنواع معينة من الطعام، فهذه الموضوعات تبقى غريبة عن أسلوب الحياة الغربية، وبالتالي فهي ليست نقاط برهنة بقدر ماهي نقاط تفضيل ومن الخطر أن تُعد أساساً للتقويم، لأنه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢: ٢١٦). وبعبارة أخرى قد يكون التفضيل الشخصي للمرء في الحياة مضلاً.

وعلى الرغم من الجدليات الفلسفية كافة ، فإن التحدي القرآني يظل قائماً للإتيان بخطأ واحد فيه، أو الإتيان بسورة مكوّنة من عشر كلمات في ثلاث آيات خير مما جاء فيه. وبما أن أحداً لم يستطع أن يستجيب لهذه التحديات، فإن هذا القرآن يستحق التبجيل.

إن الخبير بالإحصاء أو إن كلّ فرد ممن يتعامل بالرهان سوف يقدر

حقيقة أن العديد من النبوءات التي جاء بها القرآن الكريم كان من شأنها أن تكون رهانات خاسرة في زمن الوحي. فنبوءات مثل تلك التي ورد ذكرها، كنبوءة انتصار الروم على الفرس، ومصير أبي لهب وامرأته، وقصة الوليد بن المغيرة تقع جميعها ضمن هذه الفئة التي لم يكن لأحد أن يعلم بها. إن غرابة تحقيق مثل تلك النبوءات يعد أمر عظيماً، ولكن ولو أعطيت كل نبوءة احتمالية التحقق بنسبة ٥٠%، فإن مجرد تعداد مثل تلك النبوءات لايصل إلا إلى نسبة ضئيلة من الناحية الفلكية لكي يكون صحيحاً في كل مرة.

فعلى سبيل المثال، إن احتمال حدوث اثنين من مثل تلك النبوءات كل واحدة منها لها درجة احتمالية بـ خمسين بالمائة، فإن احتمالية أن تكون الاثنتان صحيحتين يصبح واحداً من أربع. وبشكل أساسي هناك ثلاث مركبّات للأخطاء (النبوءة الأولى صحيحة والثانية خاطئة، أو الأولى خاطئة والثانية صحيحة، أو إن كلتا النبوءتين خطأ)، وإن هناك فرصة واحدة فقط لتكون كلتا النبوءتين صحيحتين، أي فرصة واحدة من بين أربع فرص. أما فرصة أن تكون ثلاث من مثل تلك النبوءات جميعاً فهي واحدة من ثماني. وتنقسم الاحتمالات بالتساوي مرة أخرى مع كل نبوءة إضافية. وأما احتمالية صحة **كل** نبوءة فتبقى ضئيلة إن لم تكن معدومة. وهناك ما يزيد على الستين دليلاً من مثل هذه الأدلة مما ذكرتُ في الفصول السابقة، وهذه لا تمثل سوى جزء يسير من المجموع الكلي للأدلة التي ساقها علماء مسلمون. ومع ذلك، فلو خُصِّص لكل واحد من الأدلة

الستين احتمالية متحفظة تصل إلى ٥٠٪، فإن احتمال صحة الأدلة الستين جميعاً على أساس المصادفة الصرفة سوف يكون (١/٢).[٦٠] وهو ما يعني أقل من فرصة واحدة في ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠، أي واحد في الكوينتيليون quintillion. وحقيقة أن ديناً شائعاً يحيط بوحيٍ تكون فيه إمكانية الصحة والتصادفية في متناهي الصغر لهو أمر لا يبعث على الدهشة فحسب، ولكن مايبعث على الاستغراب حقاً هو إنكار هذا العدد الكبير من الناس لمثل هذه الأدلة.

وعلى الرغم من جميع الأدلة المذكورة آنفاً، يشكو العديد من الغربيين من أن القرآن لا يستلهمهم بالطريقة ذاتها التي يستلهمهم بها الكتاب المقدس.

ولكن يجب علينا أن نتذكر أنه لم تُنْصف واحدة من ترجمات القرآن اللغة العربية. ولهذا السبب، يجب علينا أن نحترم آراء الذين تعلموا اللغة العربية وأجادوها. ويعلق بعض هؤلاء على ذلك بالقول:

> "يتفق كل من تعرف على القرآن باللغة العربية على الثناء على جمال هذا الكتاب الديني؛ فجلال أسلوبه هو من الرفعة بحيث يتعذر على ترجمته إلى كلّ من اللغات الأوروبية أن تمكننا من تذوقه"[١٤٣]

---

١٤٣. Montel, Edward. 1929. *Traduction Francaise du Couran*. Paris. Introduction. P.53

"الحقيقة هي أنني لا أجد كلّ مؤلّف متفهم ينكر روعة القرآن الذي يُنظر إليه نظرة إجلال بصفته معياراً للغة العربية وفصاحتها ..."[١٤٤]

"للقرآن في حُلَّته العربية الأصلية جمال أخّاذ وسحر خاص. فهو قد سُبِك بأسلوب محكم وبليغ، وأما جُمَلَه [آياته] التي غالباً ماتكون مقفّاة، فتمتلك من القوّة التعبيرية والطاقة المتفجرة ما يتعذر على الترجمة الحرفية الإيفاء بها".[١٤٥]

ومن هنا فقد ييأس الكثير من الغربيين من عدم القدرة على التمكن من تذوق فصاحة القرآن كما نزل باللسان العربي. ويضاف إلى هذه الصعوبة فيض من الترجمات الرديئة المتوافرة مجّاناً في المكتبات الغربية. ومن بين أكثر الترجمات احتراماً ترجمة عبد الله يوسف علي Abdullah Yusuf Ali: **ترجمة معاني القرآن الكريم** The Holy Qur'an، و ترجمة **صحيح العالمية للقرآن الكريم** Saheeh International, the Holy Qur'an، والترجمة المشتركة لمحمد الهلالي Muhmmad Al-Hilali ومحمد خان Muhammad Khan **القرآن المجيد** The Noble Qur'an، وترجمة مارمادوك بكتال Marmaduke Pickthal **القرآن العظيم** The

---

١٤٤. Stubbe, Dr Henry, M. A. 1975. *An account of the Rise and Progress of Mohomedanism, with the life of Mahomet*. Lahore: Oxford and Cambridge Press. p.158.

١٤٥. Naish, John, M. A. 1937. *The wisdom of the Qur'an*. Oxford. Preface, p.8.

Glorious Qur'an. وهناك ترجمات أخرى تحظى بالتقدير، إلا أنه يجب تجنب ترجمات ألكسندر روس Alexander Ross، وجورج سيل George Sale، والقس جـ. م. رودول Rev. J.M.Rodwell، وإدورد هنري بالمر Edward Henry Palmer، وريتشارد بِلّ Richard Bell.

إن مايتبقى هو أن يقرأ الناس القرآن بفهم مفاده أن خصائص التأثير العاطفي في النص العربي قد ذابت في حنايا الترجمة. أمَاَ وقد قلنا بذلك، فلابد من القول بأن الرسالة والرسول صنوان لايفترقان. كما أن هناك العديد ممن قال بأنه قرأ هذا الكتاب المقدس وفهمه على أكمل وجه بعد أن درس حياة الرجل الذي جاء به من عند الله.

# القسم الثاني: الرُّسل



**كل القطط رمادية اللون في الظلام.**

مَثَلٌ فييتنامي.

ولطالما أن الأمر يتعلق بالرسل، فلنسلط الضوء عليهم.

ليس جميع الأنبياء سواء. فبعضهم تلقى الوحي، وبعضهم ادّعى تلقيه الإلهام الإلهي، وهاتان المجموعتان ليستا بالضرورة تبادليتين ضمناً. فعلى سبيل المثال، قال المسيح عيسى بأنه تلقى الوحي وبالتالي فهو نبي طبقاً للمجموعة الأولى، وأما بولس Paul فينتمي للمجموعة الثانية. كان قول المسيح قولاً ملموساً، وأما زعم بولس فكان صوفياً.

وإذا كان علينا أن نثق، فبمن نثق؟

وفي تاريخ الأديان ثمة حقيقة واحدة تتجلى وهي أن اليهودية، والنصرانية، والإسلام بنيت في الأساس على رسالة جوهرية متسقة محكمة. فخلال الفترة التي نشأت فيها كل من هذه الديانات دعت جميعاً إلى وحدة الخالق، وإلى إنسانية أنبيائه، وإلى مجموعة من القوانين التي تظهر

فروق طفيفة جداً بين وحيٍ وآخر.[١٤٦](م.ت.)

ولكن والحق يقال سرعان ماغزت الصوفية هذه الديانات في حينها وأفسدت العقائد عمّا كانت عليه إبّان فترة نشأة كل من هذه الأديان موجدة بذلك مِشكالاً kaleidoscope من الفرق الضالّة. وفي مركز كل من هذه الفرق الضالّة كان يوجد دوماً "نبي ملهم".

ومن هنا أذعنت اليهودية الأرثوذوكسية Orthodox Judaism إذعاناً كبيراً لليهودية الإصلاحية Reform Judaism الأكثر إباحية والأقل صرامة. كما خسر التوحيد والالتزام الصارم بشريعة العهد القديم اللذان ميّزا المسيحية في فترة نشأتها أمام عقيدة التثليث الفاسدة ومفهوم التبرير وهو النجاة بمجرد الإيمان الذي جاء به بولس. وبالمثل فقد تعرّض الإسلام للتشويه من قِبل الحركات "الإصلاحية" و"التحديثية" و"الصوفية" العديدة التي حاولت إعادة صياغة الشريعة الإسلامية. وعلى رأس كل واحدة من هذه الفرق الضالة يتربع رجل أو امرأة أو مجموعة يغوون أتباعهم عن طريق تقديم رخص دينية مشفوعة شفاعة أنموذجية مع وعد بالخلاص الذي سوف يتحقق لهم دون أي جهد يذكر. فبعض الناس يختار اتباع الكتاب وماجاء به النبيّون، في حين نرى آخرين يثقون بتعاليم قادة صوفيين "ملهمين".

---

١٤٦. لابد أن نذكر أن من ألغى ناموس العهد القديم كان بولس وليس عيسى المسيح. فتعاليم المسيح تقول: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ» (إنجيل متّى ٥: ١٧). ولمناقشة أوسع انظر كتابنا: "**من فقدوا الله**".

إن حقيقة كون تعاليم هؤلاء القادة "الملهمين" تتناقض تناقضاً صارخاً وتعاليم الأنبياء الحقيقيين لم تمض دون ملاحظة. فلا أحد من بين هؤلاء يمتلك حقيقة أن الأنبياء الحقيقيين رفضوا أن يقولبوا الوحي بما يتناسب وأهواء أتباعه. فلو كانت التقوى حفلة، لتقاطر الجميع لحضورها، ولكنها ليست كذلك. وعلى حين يعيش المشعوذون (وأذنابهم) في الغالب عيشة رغد ورفاهية، نرى كيف كابد الأنبياء الحقيقيون (وأتباعهم) شظف العيش والاضطهاد، ولكنهم كانوا يملكون البرهان على العناية الربّانية التي كانت ترعاهم. لقد كان الفرج قريباً، ولكنه كان يأتي دائماً بعد فترة من البلاء.

ومثال ذلك، ثبات نبي الله يوسف على إيمانه على الرغم من تعرضه للاستعباد ومن ثم السجن، وكانت مكافأة الله له أن منّ عليه بالحرية ومنحه المنصب الرفيع. كما كافأ الله نبيه أيوب بسبب صبره على البلاء أن أعاد إليه الصحة والمال والجاه. كما خلص الله نوحاً من القوم الكافرين ومن الطوفان. كما رفع الله مكانة موسى ليصبح قائداً لليهود مكافأة له على صبره ومعاناته معهم. وتطول القائمة و لكن يبقى النمط متسقاً. فقد يعيش أدعياء النبوة حالة من رغد العيش في هذه الحياة الدنيا غافلين تماماً عمّا سوف يحيق بهم من عذاب أليم في الدار الآخرة. وأما الأنبياء الحقيقيون فهم الذين يبرهنون على إخلاصهم بتحملهم المِحَن التي يتعرّضون لها، ولكن العاقبة سوف تكون لهم في نهاية الأمر.

وقد يسأل بعضنا: "ولكن ماذا عن المسيح عيسى؟ ماذا عن صلبه ومعاناته؟ وماذا عن آلامه؟" ونجيب بالقول حسناً إذا كان المسيح عيسى

لم يُصلب فهذا يعني أن الله أنقذه من الصلب، وبالتالي **لم تكن هناك آلام**. وإذا كان الأمر كذلك (كما سبق وأن بيّنا بالأدلة في كتابنا السابق "**من فقدوا الله**")، فإن الله أنقذ عيسى برفعه له من هذه الحياة الدنيوية، وسوف يعيده إلى الأرض قبيل يوم القيامة ويمكّنه من الموقع القيادي الذي ارتضاه له.

ميزة أخرى من مميزات الأنبياء الحقيقيين هي أنهم بعثوا جميعاً لكي يصححوا زيغ البشر وضلالهم عن الكتب المقدسة التي أوحي بها من قبل. فعبر تاريخ الوحي اعتنق بعض الناس التعاليم، وزيّف آخرون الرسالة، وأما بعضهم الآخر فقد جحد بها جحوداً تاماً. إن تباين الطوائف الدينية هو النتيجة المباشرة لمجموع النزعات في الطبيعة البشرية، أما الاتجاهات الدينية فإنها لاتتغيَّر كثيراً على مايبدو.

يعد الكثير من الناس أنفسهم قادرين على التفريق بين الأنبياء الحقيقيين والأنبياء المزيَّفين، وبين الوحي النقي الطاهر والوحي الفاسد الباطل. ولكن الحقيقة المؤلمة هي أنه كان هناك لكل نبي أناس ممن يعدّونه مضلَّلاً، وكان هناك لكل ثرثار مضلل أناس ممن يعدّونه نبياً مرسلاً. ولحسن الحظ، فإن ثمة مؤشرات تكشف زعم كل مدّع للنبوة من النبي الصادق. وهذه المؤشرات هي مانحتاج لفحصه.

# ١: من آدم حتى موسى

**الرجل الشجاع يعدل ألف رجل.**

آندرو جاكسون Andrew Kackson.

تصف اليهودية والنصرانية والإسلام سلسلة النبوة من آدم إلى موسى، وتعترف جميعاً بأن كل نبي كان يقف – إلى حد ما – وحيداً في ميدان الاستقامة والتقى في زمانه. فكتب اليهود والمسيحيين المقدسة، كما القرآن الكريم، تورد جميعها أسماء الأنبياء التالية أسماؤهم: آدم Adam، ونوح Noah، ولوط Lot، وإبراهيم Abraham، وإسماعيل Ishmael، وإسحاق Isaac، ويعقوب Jacob، ويوسف Joseph، وهارون Aaron، وموسى Moses، وداؤود David، وسليمان Solomon، وأيوب Job، وذو الكفل Ezekiel، ويونس Jonah، وإلياس Elias، وإليسع Elisha [عليهم السلام].

وفي الوقت الذي نجد فيه إجماع في كل من العهدين القديم والجديد والقرآن الكريم على الاعتراف بهؤلاء الأنبياء جميعاً، نجد أنها تختلف في تفاصيل حياتهم. فمثلاً تؤكد الكتب المقدسة الثلاثة هذه أن قوم لوط قد هلكوا عقاباً لهم لأنهم كانوا يأتون الذّكران من العالمين، وتقر هذه الكتب

بأن يونس قد سار في الاتجاهين على جانبي الماء الزلقين جنوب مُنْخُل حوت. كما تنص جميعاً على أن داؤود قد ترك انطباعاً أولاً (وأخيراً) في نفس جالوت.

ولكن هناك فروق كبيرة بين هذه الكتب أيضاً.

فالإسلام يشير إلى أن الله قد غفر لآدم وحواء ذنبهما لأكلهما من الشجرة الملعونة، موصداً بذلك الباب أمام مفهوم الخطيئة الأصلية. وعلى نقيض صارخ من التوصيف الوارد في العهد القديم، فإن القرآن الكريم لا ينسب للوط الزنى بالمحارم، ولـ نوح السُّكر، ولـ يونس الوقوع في الفاحشة، ولـ داؤود القتل. بل إن الإسلام يؤكد أن حياة الأنبياء تمثل السلوك القويم الذي أرسلوا لتبليغه وليس النقيض من ذلك.

كما يرد في القرآن الكريم ذكر النبي هود الذي أرسل لقوم عاد (كما في سورة الأعراف: ٦٥)، و النبي صالح الذي أرسل لقوم ثمود (سورة الأعراف: ٧٣) وأنبياء آخرين دون ذكر أسمائهم.

وبينما نستطيع أن نؤسس لاستمرارية في سلسلة الأنبياء الأساسيين، يبقى نمط النبوة محيّراً إلى حد ما في الديانتين اليهودية والنصرانية. ولاشك أن ثمة اتفاق، كما يبدو، بشأن أصل الجنس البشري: فقد كان لآدم زوجه، وأنجبا أطفالاً، ومنهما انبثق الجنس المعروف بالجنس البشري. وقد أرسى ابنا آدم تقليد التنافس بين الإخوة إلى حد كبير، في الوقت الذي كانا يمثلان فيه قطبي السلوك المتضادين في التقى والفساد. ومنذ ذلك

الحين والناس يقتل بعضهم بعضاً.

ثم تلا ذلك سلسلة من الأنبياء المعروفين في تتابع زمني محدد، وأنبياء آخرون غير معروفين تفرّعوا كأغصان من نسل النبوّة الرئيس. ولكن لماذا؟ وما الهدف من كل هذا؟

من المؤكد أن بعض الأنبياء قد ساروا على خطا غيرهم، كما هو الحال في سلسلة الأنبياء التي كانت تترى على مايبدو على عصاة اليهود. لكن ماذا عن تلك الثقافات التي نشأت، وازدهرت ثم اندثرت دون أن يكون لديها موسى أو عيسى كي يقود الدفة إلى بر الأمان؟ مالذي حصل **لهؤلاء** القوم؟ إن المصدر الوحيد للإجابة عن مثل هذه التساؤلات ضمن حدود التعاليم اليهودية – المسيحية لا يتجاوز حدود التخمين.

وفي المقابل ينبئنا الإسلام أن ليس هناك من قوم عبر التاريخ إلا كان فيهم من يقودهم للخير، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ (القرآن الكريم ٣٥: ٢٤).

وفي فترة من التاريخ، أنعم الله على الإنسان بنعمة اللغة المكتوبة، فدوِّنت الرسالات اللاحقة في نسخ مكتوبة. فقد أنزلت الصحف Sheets على إبراهيم، وأنزل الزبور Psalms على داؤود، والتوراة Torah على موسى، والإنجيل Gospel على عيسى، والقرآن Qur'an على محمد.

ومع بزوغ فجر التدوين تمتع كل وحي باستمرارية أقوى وانتشار أكبر، مما قلّص من الحاجة إلى البشر للتذكير به. إلا أن الكتب المقدسة الأولى تعرّضت للتلاعب والتحريف (كما ناقشنا في **"من فقدوا الله"**)، الأمر الذي جعل كل تحريف لكتاب سماوي يستدعي إنزال وحي جديد لإعادة الأمور إلى نصابها. ففي المحصلة النهائية ما الحاجة لنبي آخر إذا كانت الكتب المقدسة السابقة منزّهة عن النقد؟

فبسبب التحريف الذي طرأ على كتب العهد القديم المقدسة كانت هناك الحاجة إلى عيسى المسيح لكي يعيد النقاء إلى الوحي. غير أن هذا النقاء الذي جاء به المسيح لم يدم طويلاً، والدليل على ذلك هو الكم الهائل من التزوير الذي تشهده ثنايا العهد الجديد. ومن هنا كانت الحاجة الماسة لنبي خاتم –كما تنبأ به أصلاً العهدان القديم والجديد – وبالتالي إلى وحي خاتم تحرسه العناية الإلهية.

من هذا النبي الخاتم؟ وما الوحي الذي أنزل عليه؟ أما النبي فهو محمد، وأما الوحي فهو القرآن كما جاء في رسالة الإسلام. ولكي نفهم هذا الزعم فإنه يترتب علينا أولاً أن نفحص حياة كل من موسى وعيسى ورسالتيهما أولاً.

# ٢: موسى

**إن الذي يقول الحق يجب عليه أن يضع إحدى قدميه في ركاب خيله.**

مَثَل هندي

من كان موسى صاحب العهد القديم؟ إنه "حصان طروادة" البشري في بيت فرعون، والقوي الذي اختار المنفى طواعية بعد قتله لرجل شرير، إنه الشريف ذو الأمانة العائد إلى أرض جريمته دونما خوف من العواقب تلبية لأمر ربه وخالقه. إنه النبي الذي يقارع المحن سواء نجمت هذه المحن عن مجموعة اللاجئين الذين ثاروا على الرق وتحرروا من العبودية بإذن الله، أم من سواهم — ذلك كان موسى الإنسان. كان نبياً نبذه غالبية قومه، والذين تحدّوه مراراً وتكراراً وهو الذي أُرسل لإنقاذهم، وهو النبي الذي جاهد حتى النهاية كي يغرس مفهوماً عاماً للخشية والتقى بقوم لطالما جاهروا بمعصية الله وأمره.

ومع ذلك لم يملّ.

فقد هبط من علياء البلاط الملكي السامي إلى أدنى مركز مغمور لا لشيء إلا ليُمنح نعمة تلقي الوحي بعد أن آمن به الناس بفضل المعجزات التي أيده الله بها. ويبدو أنه قد نجح في تبليغ الوحي، وذلك لأنه — وكما

هو معروف — رحل عن هذه الدنيا وقد نفّذ ما أمره الله به. ومن بين أتباعه بقيت قلة قليلة متمسكة بأهداب شريعة العهد القديم، في حين زاغ عنها الغالبية العظمى. إلا أن أغرب مافي هذا الدّين أن تجد الوحي الذي نزل على موسى يعاتب أكثر مايعاتب اليهود أنفسهم لبغيهم، ومع ذلك يبدو أن الرسالة الوحيدة التي مافتئ الكثير منهم يرددها هي مفهوم أنهم شعب الله المختار، في الوقت الذي أضحى فيه أهمية الإخلاص للأوامر الربانية أمراً ثانوياً في أذهان الكثيرين منهم لدرجة أنها اختزلت لدرجة مفهوم النخبوية العرقية التبسيطي. يقع هذا على الرغم من العدد الكبير لآيات العهد القديم التي تنتقد اليهود وتلعنهم.

فعلى سبيل المثال، فقد واجه موسى بعض المشكلات العويصة لأجل حمله رسالة الوحي التي أنيط بها. وعلى الرغم من ذلك، لم يتمكن من أن يتغيب ولو لمدة أربعين يوماً لمناجاة خالقه دون أن يرتد أتباعه إلى الوثنية. فعلى الرغم من أنهم قد شاهدوا المعجزات ... حيث ساروا بين جدارين من الماء، وظلّلهم عمود سحاب خلال النهار، ودفئوا ليلاً بعمود من نار، وأنزلت عليهم المن والسلوى، وشربوا من الصخرة التي انفجرت منها اثنتا عشرة عيناً، كل هذا بفضل الله ... فعندما غاب موسى عن الصورة ليناجي الواحد الأحد الذي نجّاهم وحماهم جميعاً، شرعوا في صنع صنم لا يضر ولا ينفع عبارة عن عجل مسبوك! (نحميا ٩—٩:١٨).

فماذا كان جواب الله؟ كان الجواب النصح لموسى:

«قَال الرَّبُّ لِي: قُمِ انْزِل عَاجِلاً مِنْ هُنَا لأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ

الذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ مِصْرَ. زَاغُوا سَرِيعاً عَنِ \الطَّرِيقِ التِي أَوْصَيْتُهُمْ. صَنَعُوا لأَنْفُسِهِمْ تِمْثَالاً مَسْبُوكاً. وَقَال الرَّبُّ لِي: رَأَيْتُ هَذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلبُ الرَّقَبَةِ(*) أُتْرُكْنِي فَأُبِيدَهُمْ وَأَمْحُوَ اسْمَهُمْ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ وَأَجْعَلكَ شَعْباً أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ مِنْهُمْ» (التثنية ٩:١٢—١٤).

ويواصل العهد القديم تعداد عصيان اليهود للوصايا (مثال ذلك: التثنية ٩:٢٢—٢٤)، وعنادهم وشرّيريتهم (مثال ذلك: التثنية ٩:٢٧)، ونقضهم المواثيق التي كان من شأنها إغضاب الله (مثال ذلك: التثنية ٣١: ١٦-٢١) والتي أوجزها موسى أبلغ إيجاز قائلاً:

«خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَاةِ هَذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِداً عَليْكُمْ. لأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمُ الصُّلبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمُ اليَوْمَ قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ فَكَمْ بِالحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي! اِجْمَعُوا إِليَّ كُل شُيُوخِ أَسْبَاطِكُمْ وَعُرَفَاءَكُمْ لأَنْطِقَ فِي مَسَامِعِهِمْ بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ وَأُشْهِدَ عَليْهِمِ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ. لأَنِّي عَارِفٌ أَنَّكُمْ بَعْدَ مَوْتِي تَفْسِدُونَ وَتَزِيغُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ وَيُصِيبُكُمُ الشَّرُّ فِي آخِرِ الأَيَّامِ لأَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ حَتَّى تُغِيظُوهُ بِأَعْمَالِ أَيْدِيكُمْ» (التثنية ٣١: ٢٦-٢٩).

---

(*) صلب الرقبة هي ترجمة للمركّب الإنجليزي 'stiff–necked' والمعنى المجازي هو عنيد أو متكبر [المترجم].

وانظر أيضاً (التثنية ٣٢: ٢١) حيث ورد قول الله:

«هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلهاً أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْباً بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ» (التثنية ٣٢:٢١—٢٢).

وقد تتسم الجملة الأخيرة المتعلقة «... بما ليس شعباً ... أمة غبية» بأهمية خاصة لأنه لم تكن هناك مجموعة من البشر في أرض الإسرائيليين أشد انقساماً منهم سوى الإسماعيليين، أي العرب. مجموعة أميّة وجاهلة، إن جاز التعبير، متباينة ومتشرذمة من قاطني الصحراء في الجاهلية .. لم تكن بالأمة لدرجة أن أحداً ممن مرّ بهم كالإسكندر الكبير، أو الإمبراطورية الفارسية، أو الإمبراطورية الرومانية، أو المصريين لم يكترث بهم البتة. لماذا؟ لأنه لم تكن هناك أمة عربية لكي تحارب أو تهزم. لقد كانوا على درجة من الانقسام والتشرذم، والفرقة، وعدم التنظيم، والقبلية بحيث لم يكن لديهم هوية وطنية يمكن مخاطبتهم بها، كما لم يكونوا صيداً ثميناً مما يجدر مطاردته.

إلا أنه عقب نزول القرآن الكريم، توحّد هؤلاء الناس لأول مرة في التاريخ، ونهضوا ليشيدوا أعظم المؤسسات الفكرية في زمنهم، واتسعت حدودهم بحيث امتدت من إسبانيا إلى تخوم الصين، مؤسسين في فترة قصيرة لم تتجاوز الخمسة والعشرين عاماً إمبراطورية بسطت سيادتها على ممالك وبلدان أكثر من تلك التي بسطت عليها الإمبراطورية الرومانية خلال ثمانمائة عام. كما أخضعوا اليهود بما سبق وأن قيل «... بما ليس شعباً ... أمة غبية».

وقد أنبأهم الله بعذاب عظيم:

«أَجْمَعُ عَلَيْهِمْ شُرُوراً وَأُنْفِدُ سِهَامِي فِيهِمْ. إِذْ هُمْ خَاوُونَ مِنْ جُوعٍ وَمَنْهُوكُونَ مِنْ حُمَّى وَدَاءٍ سَامٍّ. أُرْسِلُ فِيهِمْ أَنْيَابَ الْوُحُوشِ مَعَ حُمَةِ زَوَاحِفِ \الأَرْضِ. مِنْ خَارِجٍ السَّيْفُ يُثْكِلُ وَمِنْ دَاخِلِ الخُدُورِ الرُّعْبَةُ. الفَتَى مَعَ \الفَتَاةِ وَالرَّضِيعُ مَعَ \الأَشْيَبِ ... لِيَ النَّقْمَةُ وَالجَزَاءُ. فِي وَقْتٍ تَزِلُّ أَقْدَامُهُمْ. إِنَّ يَوْمَ هَلاَكِهِمْ قَرِيبٌ وَالمهَيَّئَاتُ لهُمْ مُسْرِعَةٌ» (التثنية ٣٢:٢٣—٣٥).

لكن على الرغم من العقاب، والتأديب، واللعن، والإدانة المتكررة من الله فكم نصادف يهوداً يتأملون في مغزى مثل جميع عبارات التقريع تلك، في مقابل التباهي بترديد عبارة "الشعب المختار"؟ إن الخطأ هو مما يؤسف له، وذلك لأنه يعمي أعين الكثيرين عن بشرى العهد القديم بثلاثة أنبياء يجيئون من بعد. وقد أدرك اليهود في زمن المسيح هذه النبوءة، وهذا هو السبب الذي دفع بالفريسيين Pharisees للتدقيق في هوية يوحنا المعمداني كما ورد في يوحنا (١:١٩—٢١):

«وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: "مَنْ أَنْتَ؟" فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ. فَسَأَلُوهُ: "إِذاً مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟" فَقَالَ: "لَسْتُ أَنَا". "أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟" فَأَجَابَ: "لاَ"».

وبعد إجابة يوحنا المعمداني عن أسئلة الفريسيين بعبارات مبهمة، أصر هؤلاء على التحقق منه قائلين له: « فَسَأَلُوهُ: "فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ

لَسْتَ الْمَسِيحَ وَلاَ إِيلِيَّا وَلاَ النَّبِيَّ؟"» (يوحنا ١:٢٥).

نلاحظ أنه لم يتكرر هنا ذكر المسيح، وإيليا و"النبي" صراحة مرة واحدة بل مرتين. وفقاً للكتاب المقدس لم يكن يوحنا المعمداني هو المسيح، كما أنكر يوحنا المعمداني أيضاً أنه إيليا (على الرغم من أن المسيح عيسى قد عرّفه بوصفه إيليا في إنجيل متّى ١٧:١١—١٣). ولو طرحنا هذه التناقضات جانباً فإن السؤال الحقيقي هو من الرسول الثالث هذا. من "النبي"؟

وطالما كان أحبار اليهود في عهد يوحنا المعمداني يترقبون أن يبعث ثلاثة من الرسل، فمن حق المرء أن يتوقع أن يحوي العهد القديم دليلاً على ذلك؛ لأنه أنّى للفريسيين أن يعلموا بقرب مجيء ثلاثة ضيوف مؤيدين من عند الله من غير المصدر ذلك؟ ويغصّ العهد القديم بنبوءات وأوصاف لرسل مبشر بهم يأتون من بعد. وتلك النصوص التي تدعم بشارات عن بعثة يوحنا المعمداني، والمسيح عيسى مشهورة. إلا أنه لا يمكن التكهن بأن عدة نصوص لا تنطبق ببساطة على وصف المسيح عيسى، أو يوحنا المعمداني، كما يُتوقع إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن اليهود كانوا يترقبون نبياً ثالثاً. ومن ضمن هذه النبوءات فصل إشعيا (٤٢). والنبي الواردة أوصافه في إشعيا (٤٢) يشار إليه مرتين بأنه رسول للأميين (إشعيا ٤٢:١ و ٤٢:٦)، بخلاف المسيح الذي كان نبيّاً لعرق معين، لم يُرسل «... إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥:٢٤).

وفوق ذلك، وبالتوافق مع متنبّئين آخرين في العهد القديم من الذين

قالوا عن نبي من نسل إسماعيل (سفر التكوين١٧: ٢٠، و ٢١: ١٣، و ٢١: ١٨)، فإن سفر إشعيا (٤٢: ١١) يصف النبي المفترض بأنه من نسل إسماعيل من سلالة قيدار Kedar وهي الذرية التي ينحدر منها محمد.

إن الأمر وثيق الصلة بهذا الموضوع هو أن الاسمين إسحاق وإسماعيل يمكن أن يكونا استبدل أحدهما مكان الآخر في الكتاب المقدس لأهداف مُغرضة. والاقتراح هذا وارد جداً وذلك لأن العناصر الأخرى للقصة في العهد القديم لا ينتظم عقدها بأفضل مما يلتئم وتد مربع في ثقب دائري.[١٤٧](م.ت.)

ونسأل: لماذا هذا الأمر مهم؟ فنقول: لأن النص الوارد في إشعيا ٤٢ سابق الذكر ليس النص الوحيد في العهد القديم الذي يشير إلى نبي غير يوحنا المعمداني أو المسيح عيسى. وكما سوف نرى في الحال، ثمة ما يدفعنا للشك عن سبب خروج هذا النبي الخاتم ليس من نسل اليهود، بل من نسل إسماعيل.

وكيف لنا أن نعرف عن آخر النبيين هذا؟ ينص سفر إرمياء (٢٨:٩) بمايلي: « النَّبِيُّ الَّذِي تَنَبَّأَ بِالسَّلاَمِ فَعِنْدَ حُصُولِ كَلِمَةِ النَّبِيِّ عُرِفَ ذَلِكَ النَّبِيُّ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَهُ حَقّاً». فإذا ما سلّمنا بأن هذه الآية هي بمثابة

---

١٤٧. إن مسألة إسحق/إسماعيل بالإضافة إلى أخطاء ذات صلة في العهد القديم تمت مناقشتها بالتفصل في "**من فقدوا الله**"، القسم الرابع، الفصل الأول.

معيار نحكم بموجبه على من يزعم النبوة، تجد المسلمين يسارعون إلى التنويه بأن هذه الآية تنطبق على محمد لأنه هو من تنبّأ بالسلام. وعلاوة على ذلك، وكما سبق مناقشته، فإننا نجد أن كل نبوءة جاء بها القرآن إما أنها تحققت، أو أنها على الأقل لا يستطيع أحد النيل منها. إن «النبي الذي تنبأ بالسلام» على ما يبدو هو ذاك النبي الذي قد أرسله الرب حقاً.

والنقطة الإضافية التي يمكن الحديث عنها هنا هي أن الكلمة العبرية المرادفة لـ "سلام" في الآية آنفة الذكر من إرمياء (٢٨:٩) هي الكلمة "شلوم *shalom*" المقابل العربي لكلمة "سلام" أو "إسلام". ومن هنا فلو ترجمت هذه الآية إلى العربية لوجب أن تُقرأ: «النبي الذي يتنبأ بالسلام..." أو " النبي الذي يتنبأ بالإسلام ... ».

إلا أن الأهم من ذلك هو أن المسيح عيسى لايبدو أنه النبي المقصود في إرمياء (٢٨:٩). صحيح أن المسيحيين يتحدثون عن المسيح على أنه "أمير السلام"، ولكن مالذي قاله المسيح حقاً؟ لقد قال شيئاً مختلفاً تماماً، قال: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً» (متى ١٠: ٣٤)، و «أتظنون أنّي جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم. بل انقساماً». (لوقا ١٢: ٥١). إذاً: فمن هو النبي المنتظر الذي سيتنبأ بالسلام، (أو الإسلام) إن لم يكن عيسى؟

دعونا نسأل يعقوب، ففي سفر التكوين (٤٩:١٠) ورد عن يعقوب قوله:

«لاَ يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا
ۦمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ
حَتَّى يَأْتِيَ شِيلُونُ
وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ الشُّعُوبِ» (التكوين ٤٩ : ١٠).

حسناً. إذاً من هو هذا الشيلوه Shiloh؟ أهو شخص، أم مكان، أم إيديولوجية؟ .. لا يهم ذلك كثيراً. هل يمكن لـ "شيلوه" أن تشير إلى عيسى المسيح؟ بالتأكيد التام لا، لأنه ولد من سلالة يهوذا التي تتوقع الآية أن القضيب سيزول منها. هل يمكن أن تشير "شيلوه" إلى الإسلام طالما أن كلاً من "شيلوه" و "إسلام" تعنيان "السلام"؟ لعل الأمر يكون كذلك. لكنه قد لا يكون كذلك أيضاً. كما أن هذا لا يهم أيضاً. إن الذي يهم هنا هو النبوءة القائلة بزوال قوة التشريع والنبوة من نسل إسحاق. وهذا أمر مقضي. وإذا ما قدر للعهد القديم أن يُحترم، فإن ذلك إما أن يكون قد حدث أو أنه سوف يحدث. ففي المحصلة النهائية ما فحوى سفر ملاخي Malachi كله إن لم يكن نقل الوحي من الإسرائيليين العصاة إلى سلالة الأميين؟

ما الذي نقوله إذاً؟ هل نقول إن العهد القديم تنبّأ بنبي خاتم يجيء من بعد المسيح – وليس مجرد نبي خاتم وحسب، بل يوصف أنه من نسل إسماعيل؟

نعم نعم إن هذا هو مانقوله.

ولكن إذا كان الأمر كذلك أفلا يُتوقع من موسى وعيسى أن يأتيا على ذكر هذا الأمر؟

وفي حقيقة الأمر لقد حصل ذلك. ففي سفر التثنية (١٨:١٨) نُقل أن الله قد أخبر موسى بما يلي: «أُقِيمُ لهُمْ نَبِيّاً مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلكَ وَأَجْعَلُ كَلامِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الذِي لا يَسْمَعُ لِكَلامِي الذِي يَتَكَلمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ».

وهكذا: فمن يكون ذلك النبي الذي "يشبه موسى"؟ ليس من المرجح أن يكون هذا النبي هو عيسى لأن عيسى من نسل إسحاق، وأما النبي المعني المتنبأ به فسوف يبعث من بين إخوة الإسرائيليين، ومن يكون أخوة الإسرائيليين سوى أبناء إسماعيل!؟ ولكن لنكن صريحين حول هذه النقطة، فهل كلمة "أخوة" هنا تعني "أخوة اللحم والدم" كما يدل الحدس، أم تعني "أخوة النسب والقرابة"، كما يقترح بعض المؤلفين؟

دعونا نحتكم إلى الكتاب المقدس:

ينبئنا سفر التكوين (١٢:١٦) بأن إسماعيل: «... وأمام جميع إخوته يسكن». فعندما نزلت هذه الآية، لم يكن لإسماعيل ذرية بعد (بل لم يكن قد ولد بعد). فلنعطه أربعة عشر عاماً كي يصل سن البلوغ، وعاماً بأكمله كي يرزق بولد أول، وخمسة عشر عاماً كي يدرك الولد الأول هذا سن النضج ويؤسس لعلاقاته وتخلط سلالته بسلالات الآخرين، وخمسة عشر عاما إضافية كي ينضج. هذا يعني أنه ينبغي أن يمضي حوالي خمسين

عاماً قبل أن تضعف قوة هذا النسل إلى ٢٥%. وهكذا فمن يمكن أن يكون الإخوة الذين يسكن إسماعيل أمامهم إذا كان نسل إسماعيل الآخرون للسنوات الخمسين التالية أو نحو ذلك أبناءه وأحفاده؟ فلو كان مقصود النص الإشارة إلى ذريته، لكان النص مختلفاً ولأشار إلى ذلك. أم إن نصف ذرية المرء أنهم إخوته، فذلك يعني قطع عدة فروع من شجرة النسب القديمة ووصلها. وعلى هذا يكون المرشحون الوحيدون المتبقون الذين يحملون صفة إخوة إسماعيل هم إخوته، أي الإسرائيليين.

فإذا كنا نفهم أن النبي الذي تُنُبِّئ به يعود بنسبه إلى نسل إسماعيل، فمن يمكن أن يكون هذا "النبي". من ذاك النبي الذي "أشبه موسى"؟ دعونا نسلّط الضوء على نقاط الشّبه التي نعرفها عن موسى ونرى إمكانية مقارنتها بعيسى المسيح:

١. موسى وُلد من أب وأم. أما عيسى فولد ولادة عذرية، وهو ما يعني أنه ولد دون أب.
٢. موسى تزوج وأنجب أما عيسى فلم يتزوج بل كان عزباً.
٣. موسى كذبه قومه في بادئ الأمر، ولكنهم آمنوا به في نهاية المطاف، أما عيسى فما زال القوم الذين أرسل إليهم (أي الإسرائيليون) يكذبونه حتى يومنا هذا.
٤. موسى كان ملكاً في قومه ولديه الصلاحية لتنفيذ الحدود، كما ورد في (العدد ١٥:٣٥–٣٦)، أما عيسى فقال: «... مملكتي ليست من هذا العالم...» (يوحنا ١٨:٣٦) ورفض تنفيذ الحد، كما ورد

في قصة المرأة الزانية (يوحنا ٨:٣—٧).

٥. موسى جاء لقومه بناموس جديد، أما عيسى فاعترف بالناموس القديم.

٦. موسى قاد قومه إلى الحرية في خروج جماعي من أرض اضطهادهم. ولا يوجد مثيل لذلك في تاريخ عيسى.

٧. موسى انتصر على أعدائه. أما أسفار الكتاب المقدس فتزعم أن عيسى كان على النقيض من ذلك — ضحية لأعدائه.

٨. موسى آمن به قومه بأنه نبي بشر لاينبغي له الخلد. أما عيسى فقد عدّه المسيحيون — ولايزالون — إلهاً، أو ابناً لله، أو شريكاً له.

٩. موسى توفي وفاة طبيعية، وَوُورِي الثرى، أما المسيحيون فيزعمون أن عيسى صُلب ورفع جسده إلى السماء.

١٠. موسى مجرد أن توفي ظل متوفىً، أما المسيحيون فيزعمون أن عيسى قد بُعث.

والآن: ماذا عن محمد؟ ولد محمد من سلالة إسماعيل، وتعود شجرة نسبه إلى الابن الثاني لإسماعيل قيدار. فإذا كان عيسى لايشبه موسى وفق المعايير التي تم تصنيفها، دعونا نَرَ إن كانت هذه المعايير تنطبق على محمد.

١. ولد كل من موسى ومحمد من أب وأم.

٢. تزوج كل من موسى ومحمد وأنجبا الأولاد.

٣. كلا النبيّين كذّبهما قومهما في بادئ الأمر، ولكن صدقوهما في نهاية المطاف وارتقى كل نبي في قومه ليصبح لديه صلاحية الملوك.

٤. كلا النبيّين كان ملكاً في قومه ولديه الصلاحية لتنفيذ الحدود وبعث الجيوش.

٥. كلا النبيّين جاء لقومه بشريعة معدّلة عن الناموس السابق مع الإبقاء على العناصر الأساسية لعقيدة التوحيد.

٦. موسى قاد قومه إلى الحرية في خروج جماعي من أرض اضطهادهم، وقد فعل محمد الشيء ذاته بتوجيه قومه للهجرة من مكة إلى المدينة.

٧. كلا النبيّين انتصر على أعدائه.

٨. كلا النبيّين نظر إليهما قومهما بأنهما أنبياء من بني البشر.

٩. كلا النبيّين توفي وفاة طبيعية وُورِي الثرى.

١٠. كلا النبيّين لم يؤلّه ولم يبعث [بعد وفاته].

وفي حين لايوجد هناك سوى بضع نقاط تشابه بين عيسى وموسى — سواء أكان ذلك في حياتهما الدنيوية أم في بعثتهيما النبوية — نرى في المقابل أنه يكاد لا يوجد عنصر واحد في حياة محمد أو موسى ذو أهمية إلا وله مثيل مقابل في حياة الآخر.

فمحمد، على خلاف عيسى، كان أشبه الناس. وفضلاً عن ذلك نجد

أن أوصاف محمد تتوافق والوصف الكامل لما ورد في نص سفر التثنية، الآيات (١٨:١٨–٢٢) التالية (مع مقاربة المؤلف لهذه الآيات وقد وضعت بين أقواس):

«أُقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم [الإسماعيليين وهو النسل الذي انحدر منه محمد] مثلك [مثل موسى] وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به [محمد جاء بالوحي مشافهة عن طريق أمين الوحي]. ويكون الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يُطغي فيتكلم باسمي [ليس هناك من شك باسم من كان يتكلم محمد، فجميع سور القرآن الكريم المائة والأربع عشرة عدا واحدة، تبدأ جميعاً بـ "بسم الله الرحمن الرحيم"] وهو كلام لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي [نقل محمد وحي القرآن على مدار ثلاثة وعشرين عاماً دون أن يعاني من الموت الذي توعَّد الله به أدعياء النبوة]. وإن قلت في قلبك "كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب". فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه [ولا يوجد في الوحي ما لم يتحقق، ولم يثبت بطلان شيء منه، خلافاً للمصير الموعود للنبوّات الكاذبة]».

وهكذا من يؤمن بأن النبي الذي تُنُبّيء به في سفر التثنية (١٨:١٨–

٢٢) هو نفسه "النبي" الذي تنبأ به العهد الجديد في سفر يوحنا (٢١:١)؟ فأقول: المسيحيون يقولون بذلك. وأقول: حسناً يمكنك أن تفتح على الآية (٢١:١) من سفر يوحنا في كلّ كتاب مقدس يحمل إسناداً ترافقياً (مثل New International Version Study Bible) وسوف تجد أن هذه الآية من يوحنا تحيلك بالإسناد الترافقي إلى سفر التثنية (١٨:١٨). ويؤمن العلماء المسيحيون بأن كلا النصين يتنبّآن بالرسول الخاتم نفسه.

ويرى المسلمون أن جميع أوصاف العهد القديم الخاصة بالنبي المنتظر تنطبق على محمد ويتساءلون عن السبب في إهمال الذين يزعمون أنهم متمسكون بالأوامر الربانية المتكررة لوصية «سوف تسمعونه ... ». إلا أن معظم المسيحيين يستمرون في التأكيد أن البشارة الكتابية بنبي يأتي من بعد عيسى تبقى دون تحقيق. وهذا ما يحدو بالمسلمين لمقارنة إنكار المسيحيين لمحمد بإنكار اليهود لعيسى.

وتطرح المجادلة بأن كلتا الحالتين يبدو على أنهما تتحديان وجود دليل قاطع في سياق الوحي والتاريخ. إن كلا الموقفين يظهران إخلاصاً للعقيدة أكبر من الإخلاص لله. وبالنسبة للمسيحيين، فإن توكيد هذه التهمة أو نفيها يجب أن نبحث عنه فيما يترتب على عيسى قوله في هذه المسألة.

# ٣: المسيح عيسى

**إن الإرغام على الدخول في العبادة يعني أن يخرج المرء بوجه مختلف.**

- روبرت فروست Robert Frost، **"الباحث عن الذات"**

من كان عيسى المسيح؟ لقد دوّخ هذا السؤال عالم المسيحية لألفي عام. فعيسى التاريخي يكتنفه الغموض وهذا ماتسبب في تأليف سَيْل عارم من الكتب حوله. ومع ذلك، فليس هناك إجماع واضح للرأي بين هذه الكتب. فالكثير من المؤلفين نسجوا تكهنات من الأرائك المريحة التي يتكأ عليها عامة الجمهور، في حين نقض آخرون الغَزْل كي يعرّوا مابداخله، في محاولة منهم لحسم الصراع بين تلك الأدلة المتناقضة. فعالم اللاّهوت الألماني هاينز زهْرَنْت Heinz Zahrnt يطرح واحدة من مثل تلك المجادلات المقنعة التي تخلص إلى الآتي:

> إنه بمجرد نزع العقيدة عن التاريخ التوراتي، فلسوف يَظْهَر لامحالة صراع بين المسيح الذي تدعو إليه الكنيسة مع عيسى نفسه. فقد كان هناك تناقض واضح بين ما تَبَدّى للبحث التاريخي حول عيسى الناصري وبين ما قالته الكنيسة عنه في

دعوتها، وكذلك بين ماقاله عيسى نفسه وفعله في الأصل، والصورة التي رسمتها الكنيسة عنه فيما بعد.(١٤٨)

ويعلق زهْرَنْت على عيوب التدوين التاريخي بحدة قائلاً:

كان هذا السبب الذي جعل من الذين درسوا عيسى غير قادرين على التهرب من مأزقهم. فكيف يمكن ملء الثغرات؟ في أسوأ الأحوال تم ذلك باستخدام تعبيرات شائعة [كليشيهات clichés]، وفي أفضلها ملئت بالفانتازيا التاريخية ... فالصورة التي كانت ترسم لعيسى التاريخي – ولا تزال – لم تكن ببساطة مستقاة في الواقع من مصادر تاريخية. فقد كانت تحكمها عموماً فرضيات مسبقة وضعها الكتّاب بأنفسهم.(١٤٩)

أما مارتن كاهلر Martin Kähler فقد خلص إلى ما يلي:

إن عيسى الوارد في "سير عيسى" ليس إلا أحد متغيرات مبتكرات الفن الإبداعي البشري الحديثة، وهو ليس بأفضل من المسيح المعرّى عقدياً الذي سادت صورته الشرح اللاهوتي البيزنطي (أو مايدعى مسيح الكريستولوجيا Christology)؛

١٤٨. Zahrnt, Heinz.1817. *The Historical Jesus*. Translated from the German by J. S. Bowden). New York: Harper and Row. p.43 .

١٤٩. المرجع السابق، الصفحات 47-48 .

فكلاهما بعيد كل البعد عن المسيح الحقيقي.[١٥٠]

إن الصدمة في مراجعة مثل هذه الكتابات ليست في اكتشاف قلّة ما يُعرف عن الحياة **الخاصة** لهذا الرسول العظيم، بل في إدراك قلة ما يُعرف عن حياته **العامة**، وفي مدى إطلاق الناس العنان لمخيلتهم في التكهن حول ماهو غير معروف عنه. فلا يعرف إلا النزر اليسير عن هذا الرجل الذي كان يعظ في الصوامع، ويخطب من على المنبر، ويأخذ بيد الناس، ويطعم حشود المساكين. إن رجلاً كان يجوب الأرياف، ويحوّل الماء إلى خمرة، ويهدّئ العواصف، ويسير على الماء، ويطرد الشياطين، ويبرئ الأبرص والأكمه، ويحيي الموتى [بإذن الله]، لا بد أنه قد اجتذب كثيراً من الانتباه وترك انطباعاً كبيراً في نفوس العباد. وهنا نسأل: لماذا إذاً تفتقر هذه الشخصية التاريخية إلى القدر الكافي من الوصف؟ والأهم من ذلك نقول: لماذا دفن هذا النّذر اليسير من المعلومات التي وصلتنا في الروايات التاريخية عنه في خضم عقائد المسيحية المتناقضة لدرجة أن "... الفجوة بين عيسى التاريخي ومسيح الكنيسة أصبحت من الاتساع لدرجة يستحيل معها تقريباً إقامة وحدة مابين الشخصيتين."[١٥١]

إذاً السؤال الحاسم يصبح ما إذا كان عيسى هو المسيح الوارد في

---

١٥٠. Kahler, Martin 1953. *Der Sogemnante historishe Jesus und der geschichtliche, biblische Christus*. Munich: New edn by Ernst Wolf. p.16, as quoted by Zahrant.

١٥١. المرجع السابق، ص 61 .

الكتاب المقدس أم مسيح لاهوت بولس (التثليثي). فمسيح الكتاب المقدس تحدث عن نبي خاتم يأتي من بعده. أما لاهوت بولس فلم يتحدّث عن مثل هذا، ملغياً بذلك أهمية انتظار النبي الخاتم من أولويات الوعي المسيحي واعداً إياهم بالخلاص الذي يقوم على الإيمان وحده دون سواه – وهو الموازي المسيحي للمفهوم اليهودي القائل بأنهم شعب الله "المختار". فاليهود يعدّون أنفسهم مختارين، والمسيحيون البولسيون Paulian Christians يعدّون أنفسهم مغفوراً لهم. ولم يقل بواحدة من وجهتي النظر هاتين أي من أنبياء الوحي، وكلاهما يبرهن على أنه عقيدة هدّامة عبر الدعوة إلى إحساس زائف بالأمن الروحي، وإلى النخبوية الدينية، وإلى الانغلاق الذهني. فمن ذا الذي يريد البحث عن نبي خاتم إذا كان يعد نفسه قد غفرت له جميع خطاياه؟

وعلى نحو مماثل، فقد تحدث مسيح الكتاب المقدس عن نفسه بأنه "ابن إنسان" إلاّ أن اللاهوت البولسي رسمه على أنه "ابن الله". مسيح الكتاب المقدس تحدث عن إله واحد؛ أما المصلحون الدينيون فقد ارتأوا تجزئة الإله الواحد إلى ثلاثة أقانيم ميتافيزيقية. عيسى ركز على الله، أما مسيحيو اللاهوت البولسي فركزوا على عيسى، وبغرابة أكبر، على أمه. عيسى تحدث عن عدم تغيير الناموس، أما بولس فضرب به عرض الحائط. عيسى تحدث عن النبي الخاتم وأمين الوحي، وأما اللاهوتيون البولسيون فحرّفوا كلامه ليوحوا "بروح القدس" الباطنية التي لايفهمها سوى القلة. وبدلاً من البحث عن النبي الخاتم الذي بشّر به عيسى، نرى المسيحيين

البولسيين يجعلون أولوياتهم تنصب على تجسيد "الروح القدس" الذي يزعم وعّاظهم أنهم يمتلكون منه حقوق توزيع حصرية. وفي ظل تعرية النزاع الصارخ بين مسيح الكتاب المقدس ومسيح اللاهوت البولسي (لمناقشة أعمق حول هذا الموضوع انظر "**من فقدوا الله**")، فعلى المسيحيين العقلانيين أن يدركوا أن هناك مسيحاً واحداً لا مسيحَيْن.

فكلّ شخص عادي يتوقع أن يتحلّى كلّ نبي بخصال معينة، بما فيها التواضع، والأمانة، والإحسان، واللّطف، والكرم، وأفضل الأخلاق. كما نتوقّع من النبي أن يكون منشغلاً بالعبادة لا بالمطالب الدنيوية. وتحقق الصورة المقتضبة التي يرسمها الكتاب المقدس في المجمل هذه التوقعات، ولكن ليس دوماً.

ونقرأ في الكتاب المقدس كيف يلعن فيه المسيح شجرة التين لأنها لا تثمر (متّى ٢١:١٩، ومرقس ١١:٢٠—٢١)، ويشبّه الأمميين Gentiles بالكلاب (وهذا يشتمل معظم بني البشر، ومعظم من يخاطبهم الكتاب المقدس، ومعظم أبناء الدين المسيحي: متّى ١٥:٢٦ و مرقس ٧:٢٧)، أو تشبيهه لهم بالخنازير (متّى ٧:٦)، ويصدّ أمه كما لو لم تكن ممن «... يصنع مشيئة أبي الذي في السماء ... » أو «... من يصنع مشيئة الله ...» (متّى ١٢:٤٨—٥٠، ومرقس ٣:٣١—٣٥، ولوقا ٨:٢٠—٢١). إن مثل هذه الروايات تُخرج عربة التوقعات السامية عن مسارها الطبيعي، كما أن محصلة زوبعة الغبار هذه ليست بالسارّة جداً وبخاصة عندما نعلم أنها تستخدم للرمي، وقد مزجت بحصا الادعاء أن المسيح عيسى فقد ثقته

بخالقه متسائلاً عن قدر الله بعبارات تدنيسية: «إيلي إيلي لما شبقتني [إلَهي إلَهي لماذا تركتني]؟» (متّى٢٧:٤٦). فالتاريخ يعجّ بأمثلة من الصالحين والصالحات الذين احتملوا بأساً شديداً يعادل ماذكر عن عيسى وأكثر، وعانوا اضطهاداً وموتاً في سبيل ما كانوا يعتقدون أنه طاعة لله تعالى. وقصص مثل قصص أولئك الشهداء الذين ماتوا في سبيل إخلاصهم في إيمانهم والتزامهم به وافرة جداً، ومع ذلك يُطْلَب منا التصديق بأن المسيح عيسى مات وهو على ريبة من أمر خالقه؟ لقد مات سقراط Socrates دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة تنم عن التذمّر أو اليأس.[١٥٢] كما أن مايكل سيْرِفِتسُ Michael Cervantes وجوان آرك Joan of Arc أُحرقا حتى الموت وهما رافعا الرأس بشموخ وإباء كبيرين وقد ملأ الإيمان قلبيهما. وهنا لابد أن نقول من جديد، إما أن القول المنسوب لعيسى يجافي الصواب، أو أن المؤلفين اقتبسوا شخصاً غيره.

إذاً كيف نتصرف إزاء المقتطفات آنفة الذكر؟ في الواقع، إن كان علينا تصديقها فلابد أن تبرز لنا شخصية عيسى أنّه إنسان أكثر من أن يكون إلهاً. ولعل هذا هو المطلوب تماماً. وفي المقابل، إذا أُريدَ عدم تصديق المقتطفات أعلاه، عدنا إلى التساؤل عن الجزء الذي يمكن تصديقه في الكتاب المقدس.

أما وقد قلنا ذلك، فإن زخم هذا الكتاب هو الدافع لاستخلاص

---

١٥٢. Gibbon, Edward, Esq. Vol. 5, Chapter XLVII, p.206

نتائج مبنية على سلسلة من الأدلة المقبولة، لا الإدلاء برأي واهٍ كالقش يضاف إلى كومة كبيرة من التكهنات. فإن لم يتم إماطة اللثام عن بوصلة الحقيقة لشخص عيسى المسيح التاريخي ووضعها تحت المجهر للتحليل في العصر الحاضر، فمن المحتمل أن تبقى مطمورة إلى حين زمن نزوله. وفي الأحوال كافة فإن غالبية المسيحيين يوافقون على معظم ماجاء في الكتاب المقدس من قول المسيح.

أما بشأن التوكيد على أن النبي الخاتم سوف يكون من نسل إسماعيل، فقد نُقِل عن عيسى حكاية كرم العنب الرمزية، حيث العبرة المستقاة منها هي أن الله سوف يستبدل الذين يتحدّونه من القوم بأقوام «... يعطونه الأثمار في أوقاتها» (متّى ٢١:٤١). وفي إثر هذه الحكاية روي عن عيسى قوله:

«أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ:
الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ.
مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا
وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا؟
لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ
مِنْكُمْ وَيُعْطَى لِلأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ.
وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ
وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ» (متّى ٢١: ٤٢-٤٤).

وماذا كان رد فعل رؤساء الكهنة الفريسيين؟ لقد « ... عرفوا أنه

تكلّم عليهم» (متّى ٢١:٤٥).

ومما يجدر ذكره هنا أنه لم يرد عن عيسى المسيح أن هدّد قط بأن مملكة الله (أي النبوءة والوحي) سوف تنزع منهم. فكلّ تهديد كما هو معروف مشروط من قبيل مبدأ: "إن لم تفعل ... فلسوف ...". فهكذا يكون التهديد بالتعريف. لكن ما ورد أعلاه ليس بتهديد مشروط، بل هو حكم غير مشروط كأن نقول: .. لقد قُضِي الأمر .. أصبح الأمر نافذاً .. هذا ماتوقعنا حدوثه. وعلاوة على ذلك، فإن كل من يعارض الوحي لدى نزوله فلسوف يترضرض أو يسحق.

فهاهنا نص يتنبّأ بانتقال «مَلَكُوتَ اللهِ» من الإسرائيليين كي يعطى «لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ»، لأمة ليست مؤمنة وحسب، بل أمة سوف تصبح «رَأْسَ الزَّاوِيَةِ». إن الأمة التي تشير إليها هذه النصوص هي موضوع جدال لم يهدأ أواره قط. إلا أن ما يتحدى الجدال هذا هو الحقيقة البسيطة التي لا يمكن إنكارها وهي أن هذه الآيات تتنبأ بانتقال الوحي من الإسرائيليين إلى أمة سواهم. فإلى من يُشار بـ «الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ»؟ ومن الذين سوف يُناط بهم الوحي؟ فلنسأل مئة مسيحي، ولنسأل ألف يهودي، بل ولنسأل بولس الطرسوسي! ولسوف تجد الجميع يأتون بالإجابة ذاتها: إن "المرفوضين" هم نسل إسماعيل.

تناولنا في كتابنا السابق بالتحليل البَرَكليت "Paraclete" الذي تنبأ المسيح عيسى به من أنه سوف يتبعه إثر انتهاء بعثته، ولهذا لا أجد ضرورة هنا لتكراره. بل تكفي الإشارة هنا إلى أن المسيح عيسى نفسه وُصف بهذا

الاسم في رسالة يوحنا الأولى (٢:١) وكذلك في أربعة نصوص أخرى من الإنجيل وفقاً ليوحنا (وهي: ١٦:١٤، و٢٦:١٤، و٢٦:١٥، و٧:١٦) والتي تبشر جميعاً بمجيء بَرَكليت جديد. وهذا النبي المنتظر يُتوقع أن يكون «... رُوحَ الْحَقِّ ... » و «... ِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ... » وليحمل وحياً شاملاً، ويذكّر الناس برسالة المسيح عيسى، ويوقّر المسيح عيسى (يوحنا ٢٦:١٤ و ٢٦:١٥)، ومع ذلك لايتقبله السواد الأعظم من البشر (يوحنا ١٧:١٤). وقد خَلُص مؤلف مشهور، بعد وضع قائمة بالأدلة، إلى الآتي: "وعليه فإن البَرَكليت شخصية موازية لعيسى نفسه، والذي يؤكد هذه النتيجة أن اللقب يناسب كلا منهما. وواضح من الآية ١٦:١٤ إن المصدر يفيد ببعثة بَرَكليتين، عيسى ومن يأتي من بعده، أحدهما يتبع الآخر".[١٥٣]

إن هذا المفهوم لنبوءة لم تتحقق يترك العالم المسيحي ولديه صك كتابي مفتوح — فالنبوءة في نظرهم تظل دون تحقيق، وتنتظر صاحب الحساب ليأتي ويملأ الفراغات. في حين يذهب المسلمون للقول بأن النبي الخاتم هذا **قد** بُعِث. ويشيرون إلى أن أحداً لم يتحد أمانة محمد «... رُوحُ الْحَقِّ ... » حتى من بين أعدائه، بل اتسم بسمعة مميزة في قول الصدق ولو كان

---

[١٥٣] Bultmann, Rudolf. 1971. *The Gospel of John, a Commentary*. Translated by G.R. Beasley – Murray. Oxford: Blackwell. p.567.

مازحاً.[١٥٤](م.ت.) وتاريخ شخصه محفوظ بتفاصيل رائعة في روايات مكثّفة للحديث، وهي التي "تُقيم" مع البشرية إلى يومنا هذا. والقرآن الكريم يبجّل عيسى ويصحح سوء الفهم حول تعاليمه، كما أنه وحي شامل يعتقد به أكثر من مليار مسلم، ولكن السواد الأعظم من البشرية يكفرون به.

ونسأل: لماذا؟ فما الذي يجعل هذا الرجل، محمداً ورسالته، يروق لبعضهم في حين يمقته آخرون؟ ثم: هل يعرف الذين يبدون آراءهم في هذا الرجل حقاً؟

نجد عموماً أن الذين يكفرون بمحمد يفعلون ذلك بناءً على بغض شخصي لهذا الرجل، أو للرسالة التي بُعث بها، أو لكلا السببين. كما أن الدعاية الغربية التي لا أساس لها تلعب دورها الحاسم. أما استنتاجات غير المسلمين القائمة على دراسة موضوعية لشخصية محمد ذاته فنادرة. وللحديث عن هذا لابد لنا من الانتقال إلى الفصل التالي.

---

[١٥٤]. إلى اليوم وعلماء اللاهوت المسيحيون يعترفون بهذا الجانب الفائق من شخصية محمد: "لايمكن لنا أن نشك في موضوعية النبي. فمن حيث المبدأ يمكن للمرء أن يوافق الوحي الذي جاء به أو يخالفه ولكنه لايمكن له أن يحط من قدر شخصية محمد وإن كان يخالفه الرأي".
Küng, Hans. 2007. *Islam, Past, Present and Future*. One World Publications. p.118.

# ٤ : محمّد

**في المسائل الأسلوبية اسبح مع التيار، أما عند المبادئ فقف كالصخرة.**

- توماس جيفّرسون Thomas Jefferson

من كان محمد؟

هناك العديد من السِّير القيمة حول هذا الموضوع، أروعها وأكثرها حظوة في اللغة الإنجليزية: **حياة محمد بناء على المصادر الأولية** *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* لـ مارتن لِنجز Martin Lings، **وعندما انشق القمر** When the Moon Split، لـ صفي الرحمن المباركفوري.[١٥٥](م.ت.) (*) ولا يتسع المجال هنا في عمل

[١٥٥]. تكاد لاتخلو أية مؤلفات من الأخطاء، بما فيها المؤلفات الرائعة. وتبرهن السيرة التي ألفها مارتن لنجز Martin Lings على هذه المقولة. والخطآن المهمان الجديران بالذكر هما التأكيد أن محمداً كان يحتفظ بإيقونتيْن لعيسى ومريم إضافة إلى صورة لإبراهيم عندما حطم أصنام الكعبة. وأن محمداً طلب الزواج من زينب [بنت جحش] لجاذبيتها. وليس هناك أدلة نصية (أي أحاديث) ما يؤيد شيئاً من هذا. ويذم علماء السنة هذين القولين. وبخلاف ذلك فالسيرة شاملة، وعميقة البحث وكتبت بأسلوب رائع، وملهمة وتحظى بالاحترام لدى المسلمين والمستشرقين على حدّ سواء. وبالتالي فالرأي السائد في أوساط المثقفين المسلمين أنه على الرغم

كهذا لإيراد السيرة بكاملها، ولكن بوسعنا إيراد أبرز النقاط في هاتين السِّيرتين.

ولد محمد بن عبد الله[١٥٦](م.ت.) في مكة لقبيلة قريش القوية في حوالي العام ٥٧٠ ميلادية. وقد ولد في زمان، ومكان، وثقافة كانت تهيمن عليها عبادة الأصنام، والطقوس الوثنية. توفي والده قبل أن يولد أما والدته فتوفيت عندما كان في السادسة من عمره. وتربّى يتيماً عند أسرة بدوية حيث اكتسب المهارات اللازمة للرعي وتجارة القوافل. وبمضي الوقت اشتهر بأخلاقه العالية الرفيعة، وبأمانته، ولطفه، وإنصافه، ورصانته، وروحانيته العميقة المتأملة.

وبزواجه من السيدة القرشية ذات الحسب والنسب خديجة في الخامسة والعشرين من عمره، بلغ محمد درجة عالية من الثراء والمنزلة الاجتماعية الرفيعة. وعلى الرغم من أنها كانت تكبره بخمس عشرة سنة، ظل وفياً لها خلال زواجهما الموفق حتى وفاتها.

ومع بلوغه الأربعين كان قد عاش حياة ناجحة، حيث كان سعيداً في زواجه وقد رزق أطفالاً، وثروة، ومكانة اجتماعية رفيعة. غير أن هذا

---

من الأخطاء القليلة التي تتضمنها هذه السيرة، فلعله لا يوجد سيرة لحياة محمد متوافرة باللغة الإنجليزية في وقتنا الراهن أفضل من تلك التي وضعها مارتن لِنْجز.

[١٥٦]. اسم والد محمد الكامل عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

الوقت كان بدء تنزّل الوحي عليه في انقلاب أقض مضجع الأمن والسكينة اللتين كان قد اعتادهما؛ الأمر الذي دفع به كي يضحي بكل ما يملك تقريباً في هذه الدنيا من أجل تبليغ الرسالة التي أنزلت عليه. وقد غادر هذه الحياة الدنيا في العام ٦٣٢ ميلادية بعد أن بلغ الأمانة التي أنيطت به.

إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الوحي أكسبت محمداً أعداء من أبناء قبيلته الذين كانوا يؤمنون بالأصنام، وكذلك من اليهود، ومن المسيحيين، والوثنيين الذين كذبوا جميعاً رسالته. وقد نجت القلة القليلة من المسلمين الأوائل الذين آمنوا بدين محمد، والذين أرغموا على الهجرة في بداية الأمر، ثم القتال فيما بعد، وسرعان ما إزداد عددهم على الرغم من الابتلاءات التي تعرضوا لها. وبمرور الوقت أحدث الإسلام ثورة في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها. فقد أبطل الإسلام عبادة الأصنام وطقوس الجاهلية، وحرّر المرأة من اضطهاد العادات القبلية، وأرسى نمطاً جديداً للسلوك والأخلاق والعدالة الاجتماعية. لكن أهم تلك الإنجازات كانت إقامة دين توجّهت العبادة فيه إلى الإله الواحد، دين بدأ بالنمو منذ ذلك الوقت ليصبح مصدر هدي وإلهام لخمس سكان العالم اليوم.

ويلخص كاتب القرن السابع عشر الاسكتلندي ألكسندر روس Alexander Ross، الذي لم يكن يوماً من أنصار الدين الإسلامي، هدف محمد تلخيصاً دقيقاً على النحو التالي:

لم يتظاهر بأنه أتاهم بدين جديد، بل أحيا الدين القديم

الذي أنزله الله على آدم بداية، وعندما فُقِد ذلك الدين جراء تحريف العالم القديم، استعاده سبحانه ثانية بإنزال الوحي على إبراهيم الذي علمه لابنه إسماعيل، جدّهم، وعندما استقر إسماعيل في شبه الجزيرة العربية بعدها دعا أهلها إلى الدين ذاته، لكن عندما انحرفت ذريتهم إلى عبادة الأوثان، أرسله الله ليحطمها، وليعيد دين إسماعيل. وقد صدّق محمد بالعهدين القديم والجديد، كما آمن بموسى والمسيح بأنهما نبيان من الله، لكنه آمن أن اليهود والمسيحيين حرّفوا هذه الكتب المقدسة وأنه بُعث ليطهرها من التحريف وليعيد الشريعة الإلهية إلى صفائها الذي أنزلت به بادئ الأمر.[١٥٧]

وعبر مسيرة حياته تمتع محمد بالاحترام والتقدير في كل أدوار حياته سواء أكان أباً، أم صديقاً، أم زوجاً، أم جاراً، أم تاجراً، أم معلماً، أم قاضياً، أم مشرعاً، أم قائداً عاماً، أم رجل دولة، أم حاكماً، أم مصلحاً اجتماعياً أو دينياً. لقد كان واحداً من أعظم رجالات التاريخ تأثيراً، ومع ذلك فقد كان أمياً، كما كان فقيراً، ولكنه اختار حياة الفقر طواعية.

والمعلومات المتصلة بحياة محمد وشخصيته موثقة خير توثيق، من وصفٍ لصفاته الجسمية، إلى مناقبه، وعاداته، وتعاليمه، وإقراراته. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر، ذلك الزمان والمكان الذي كانت فيهما

---

[١٥٧] Ross, Alexander. 1718. *The Life of Mahmet: Together with the Alcoran at Large*. London. p.7 .

الإطراءات على هذا النبي شبه نادرة [في العالم الغربي]، بل كان حسب المرء حينها أن يسلم من لعنة الكنيسة الأنجليكانية الظالمة، نقع على مايلي في وصف محمد:

لم يكن بالطويل الممغّط، ولا بالقصير المتردِّد، وكان رَبْعة من القوم، ولم يكن بالمطهَّم، بل كان بعيد ما بين المنكبين، عريض الصدر، عظيم الهامة، وكان ضخم الرأس، وكان أسود الشعر لا بالجعد ولا بالسبط وكان يضرب شعره إلى منكبيه. وعندما تقدمت به السن ما كان في رأسه إلا حوالي عشرين شعرة بيضاء، شابها خوفاً من الوحي. ولم يكن وجهه بالمكلثم، وكان في الوجه تدوير، أبيض مشرباً. أزج الحواجب، سوابغ في غير قرن، بينهما عرقٌ يُدِرّه الغضب. وكان أدعج العينين، أهدب الأشفار، أقنى الأنف. وكان أشنب(*) الأسنان (التي كان يهتم بها كثيراً). وكان كث اللحية، ناعم الجلد أزهر اللون، وكان ناعم الكفين، يخطو تكفّياً، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب. إذا التفت، التفت جميعاً. وكان محيّاه مهيباً متأملاً كما أن جلّ ضحكه التبسم.

أما عن عاداته فكانت غاية في البساطة، على الرغم من اهتمامه الشديد بشخصه وحافظ في طعامه، وشرابه، وملبسه، وفرشه على طبيعتها البدائية حتى عندما كان قد وصل أوج القوة.

---

(*) الأشنب من الشنب وهو البياض والبريق والتحديد في الأسنان. [المترجم].

وكل ما تمتع به، إضافة إلى السلاح الذي كان يقدره كثيراً، نعلٌ أصفر اللون، هدية من النجاشي، إمبراطور الحبشة. لكنه كان يحب الطيب حباً جماً، لأنه كان حساساً للغاية للروائح. وكان يمقت الخمور.

ولقد حباه الله بقوة خيال واسع، وسمو في التفكير، ورهافة حس. ويقال عنه إنه كان أحيا من العذراء في خدرها. وكان لين الجانب مع من هم دونه وكان يصفح عنهم. قال خادمه أنس إنه خدم النبي عشر سنوات فلم يقل له "أف". كان محباً لأسرته. وتوفي أحد أولاده في حجره في بيت أَدْخَن لمربيته، امرأة حدّاد. وكان شغوفاً بالأطفال؛ فقد كان يستوقفهم في الطريق ويربت على رؤوسهم الصغيرة. لم يلطم أحداً في حياته قط. وأسوأ تعبير استخدمه في حديثه هو "ماله تربت جبينه". وعندما طُلب إليه أن يشتم أحداً أجاب: " لم أبعث لعاناً ولكن بعثت رحمة للعالمين". وكان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة العبد للعشاء، ويرتق ثوبه، ويحلب الشاة، ويصبر على نفسه. كان إذا صافح أو صافحه الرجل لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، وإن استقبله بوجه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه.

وكان أخلص الناس لمن يدخل في حماه، وأعذب الناس حديثاً. من رآه هابه حالاً، ومن دنا منه أحبّه. والذين وصفوه

كانوا يقولون: لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان صموتاً، لكن عندما كان يتحدث تحدث بتوكيد وتأنّ، ولم يكن أحد ينسى ما قال[١٥٨].

وحتى ألد أعداء محمد اعترفوا بفضائله، وذلك منذ زمانه الذي عاش فيه إلى يومنا هذا. فقد كتب جورج سِيْل George Sale عبارة توثق مقته الممزوج بالإعجاب لفضائل محمد الشخصية. فقد كتب في مقدمته إلى قارئ ترجمته لمعاني القرآن الكريم في العام ١٧٣٤ ما نصه:

... لأنه مهمٌّ قد يكون محمد مجرماً مدى الدهر بفرض دين زائف على بني البشر، فلا ينبغي إنكار الثناء الواجب على شمائله الحقيقية، كما لا يمكن لي إلا أن أشيد بعدم تحيز سبانهيميوس Spanhemius الورع المثقف، الذي، على الرغم من اعتباره أن محمداً كان كاذباً شريراً، لكنه اعترف له بأنه قد رزق مواهب طبيعية غريزية جميلة في شخصه من ذكاء متقد، وسلوك حميد، وعطف على الفقراء، وتأدب مع الجميع، وصفح عن أعدائه، وفوق ذلك كله إجلال لله، وكان شديداً على من يحلف يميناً كاذباً، والزناة، والقتلة، والمبذّرين، والجشعين، وشهداء الزور، إلخ، وكان داعياً عظيماً للصبر، وعمل الخير، والرحمة، والإحسان،

---

١٥٨. Lane – Poole, Stanley. 1882. *The Speeches and Table – Talk of the Prophet Mohammad*. London Macmillan and Co. Introduction. pp.27-29.

والشكر، واحترام الأبوين والكبار، وكان لسانه رطباً بذكر الله.[١٥٩]

ويسجل التاريخ الإسلامي حديثاً قال فيه هند بن أبي هالة، ربيب خديجة امرأة محمد (من زواج سابق لها)، ما يلي:

كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير، دَمِث ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذمّ منها شيئاً ولا يمدحه. ولا يقوم لغضبه، إذا تعرض للحق شيء حتى ينتصر له — وفي رواية: لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له — لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار, أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلّبها، وإذا تحدث يصل بها، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه، جلّ ضحكه التبسم، ويَفْتَرّ عن مثل حب الغمام.[١٦٠]

كما وصف علي بن أبي طالب، ابن عم النبي، الرسول كالتالي:

---

[١٥٩] Sale, George.1734. *The Koran*. London: C. Ackers. To the Reader. P.5 .

[١٦٠]. رواه الطبراني في **المعجم الكبير**.

لم يكن النبي فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخّاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح. وما انتقم لنفسه في شيء قط إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما ضرب شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً، ومانيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم بها. وما خيِّر في أمرين إلا واختار أيسرهما. وكان إذا دخل بيته كان بشراً من البشر يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه.

وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولاصخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولامدّاح، فلا يؤنس منه ولايخيب فيه مؤمليه، وقد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، ومما لايعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لايذم أحداً ولايعيّره، ولايطلب عورته، ولايتكلم إلا فيما يرجو ثوابه. إذا تكلم أطرق جلسائه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولايتنازعون الحديث، متى تكلم أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده. يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم.

ويقول: " إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فارفدوه"، ولا قبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز

فيقطعه بانتهاء أو قيام.[١٦١]

ومن أجمل وأبلغ ماقيل فيه وماورد في أدب الحديث عن محمد أنه: "... أَجْودُ النَّاسِ كفًّا وَأَشرَحُهمْ صَدرًا ، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومَن خالطه معرفة أحبه... يَقُول نَاعِتُه لَمْ أَرَ قَبلَهُ وَلاَ بَعدَهُ مِثْلَه".[١٦٢]

وتمثل هذه المقتطفات نظرات خاطفة عبر نافذة ضيقة يمكن من خلالها دراسة حياة محمد الإنسان وشخصيته. وعلى النقيض المذهل لجوانب الحياة الغائمة للشخصيات التاريخية إبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى، نرى كيف ينصبّ التركيز على شخص محمد عبر عديد من مجلدات الأحاديث الموثقة التي تصنّف لأدق الأوصاف في مظهره وأخلاقه، وشخصيته، وسلوكه، وبالتالي بوسع الراغبين في الاستزادة أن يدرسوا من خلالها حياة محمد بتركيز أكبر. وفي هذا الشأن كتب عالم الآثار والباحث الإنجليزي د. ج. هوغارث D.G.Hogarth مايلي:

وسواء أكان سلوكه تجاه أمر جليل أم وضيع، فقد أرسى سلوكه اليومي شريعة يقلدها الملايين في يومنا هذا تقليداً واعياً. ولم يُتّبع شخص تعدّه طائفة ما من الجنس البشري إنساناً كاملاً بهذه الدقة التي يُتّبع بها محمد. فسلوك مؤسس المسيحية لم يحكم

---

١٦١. **مختصر الشمائل المحمدية**، للترمذي ص ١٨، الحديث ٦

١٦٢. رواه البخاري ومسلم

حياة أتباعه العادية لهذا الحد من الدقة. وفضلاً عن ذلك لم يحظ مؤسس دين من الأديان برفعة المقام التي يتمتع بها رسول الإسلام.[١٦٣]

وعلى النقيض من هذا، فإن المسيحيين نادراً ما يتّبعون البقية الباقية عمّا يعرف من حياة عيسى المسيح. وفي الواقع، وكما سبق وأن ناقشنا في **"من فقدوا الله"**، فإنه تعترينا الدهشة عندما نجد أن المسلمين يقتدون بأفعال المسيح أكثر مما يقتدي بها المسيحيون أنفسهم. وهكذا فإننا نجد كيف تمسّك "الحاخام" عيسى بشرعة العهد القديم الصارمة "النفس بالنفس": فقد كان طويل اللحية، محتشم الملبس (وكانت أمه تغطي شعرها)، وكان لا يأكل لحم الخنزير، ولايأخذ الربا، ولم يقرب الزنى أبداً. ليس هذا فحسب، بل إنه لم يلمس قط امرأة لاتحل له. وكان يسجد لله، ويتكلم بتواضع، ويدعو إلى الوحدانية ويعلم الناس الإنسانية من خلال نبوءته. فكم هي الهوّة بعيدة بين المسيحيين وهذه القيم. وأما من يحاول منهم أن يتّبع هذه القيم فغالباً مايكون عرضة للاستخفاف من قبل إخوانه في الدّين الذين غالباًماينعتونهم بأنهم "مهووسو المسيح Jesus freaks" كما لو أن ثمة خطأً ما يكون في الإنسان إن هو اتبع هدي النبي.

وكأنموذج للقدوة التي يجب أن تتبع، فإننا نجد شخصية محمد قد تم توثيقها خير توثيق فيمايلي:

---

١٦٣. Hogarth, D. G. 1922. *Arabia*. Oxford: Clarendon Press. p.52

كان مقتصداً ومتزناً في مطعمه، وكان ملتزماً التزاماً شديداً بصومه. ولم يكن يأبه بفخامة ملبسه، وهو ما يتباهى به ضيقو الأفق، ولم تتأثر بساطة ملبسه بل كانت نتاج احتقار للتميز من مصدر تافه إلى ذاك الحد ...

لم يتولد لديه كبر ولا خيلاء نتيجة انتصاراته العسكرية، وهو ما كان قد حدث لو تمت بدوافع أنانية... وفي الوقت الذي كان يمتلك زمام القوة التزم ببساطة الأخلاق والمظهر تماماً كما كانت عليها أيام الشدة. ولكونه بعيداً كل البعد عن إقامة دولة ملكية، فقد كان يسخط إذا ما غالى أحد في إظهار الاحترام له لدى دخوله مكاناً. وإذا كان يهدف إلى السيادة العالمية، فقد كان هدفه سيادة الدين: أما عن الحكم الدنيوي الذي آل إليه، فبما أنه استخدمه دون تباه فإنه لم يَسْعَ إلى إدامته في أسرته.

أما الأموال التي تدفقت عليه من الجزية والأنفال، فقد كان ينفقها لتعزيز انتصارات العقيدة، والتيسير على الفقراء من بين مستحقيها إلى الحد الذي استنفدت فيه خزينته. ويعلن عمر بن الحارث أن محمداً لم يخلِّف عند وفاته لا ديناراً من الذهب ولا درهماً من الفضة، لا عبداً ولا أمة ولا شيئاً سوى بغلته الشهباء دُلْدُل، وسلاحه، والأرض التي وهبها لأزواجه، ولأولاده، والفقراء. يقول كاتب عربي: "إن الله قد عرض عليه مفاتيح

خزائن الأرض لكنه رفض القبول بها".[١٦٤]

إلا أن السؤال والوثيق الصلة بالموضوع هو ليس إن كنا نحب محمداً أو نعجب به أو نحترمه. بل يكمن السؤال فيما إن كان حقاً هو النبي الذي زعم أنه هو. ولكي نقوّم هذا الزعم، تبرز أمامنا تحديات عدة. فمن المؤكد أنه لابد لنا من تجاوز عوائق ماقيل زيفاً عنه، ونترفع عن الحقد والتمييز تجاهه سواء أكان ذلك سلباً أم إيجاباً. بل علينا الشروع بالبحث للتأسيس لواقعية قضية محمد بعقول وقلوب نقية صافية، وذلك لأن العواطف غالباً ماتقود المرء إلى الضلال. ولتكن الحقيقة والحقيقة فقط هي هدفنا ودليلنا.

ولنبدأ أولاً بتقويم معايير النبوءة المقبولة لدى الجميع عموماً، فلقد اجتاز أنبياء الكتاب المقدس جميعاً هذا الامتحان، ولابد لهذا النبي الخاتم من أن يجتازه أيضاً.

---

١٦٤ Irving, Washington. 1973. *Mahomet and His Successors*. Vol.1. New York: G. P. Putnam's Sons. p.344-342 .

# القسم الثالث: إثبات النبوءة



**أنجع السبل لمعرفة ما قد يقع هو أن نتذكر ما قد مضى.**

جورج سافيل، مركيز هاليفاكس George Svile, Marquise of Halifax

لقد جاءت الكتب المقدسة السابقة ببشارة العديد من أنبياء الكتاب المقدس. فالعلماء المسيحيون يربطون ما بين يوحنا المعمداني وكتاب ملاخي Malachi، ويربطون عيسى المسيح بالعديد من النبوءات المبعثرة في ثنايا العهد القديم. وكما سبق أن ناقشنا في **"من فقدوا الله"**،[١٦٥] وفي الفصول السابقة عن موسى وعيسى في هذا الكتاب، فإنه من السهل الربط بين محمد والأوصاف الواردة في العهدين القديم والجديد، سواء أكان ذلك بتواؤم مساوٍ أم بدرجة أكبر من المواءمة. ولا غرو إذاً أن تقر **الموسوعة الكاثوليكية الجديدة** بمايلي: "هناك ما يدعو للاعتقاد بأن الكثير من اليهود، الذين كانوا يترقبون وشوك بعثة نبي في الجزيرة العربية،

١٦٥. انظر الفصل الرابع من القسم الأول ، والفصل الثاني من القسم الثالث

أبدوا اهتماماً خاصاً به (أي بمحمد)."[١٦٦]

[١٦٦] *New Catholic Encyclopedia*. Vol.7, pp.677 .

# ١ : دلائل الإعجاز

**إن المعجزة ليست خرقاً لقوانين العالم الساقط،**
**بل هي إعادة ترسيخ لقوانين المملكة.**
أندريه بوريوفنش بلوم André Borisovich Bloom، **دعاء حي**.

هنـاك نوعـان مـن المعجـزات: المعجـزات الـتي تحـيط بشخصـية مـا، والمعجزات التي تجرى على يدي إنسـان مـا. والنـوع الأول مـن المعجـزات والذي أريد أن أدعوه "دلائل إعجازية miraculous signs" هو موضوع فصلنا هذا، وأما النوع الآخر من المعجزات والذي سوف أدعوه "معجزات الكرامات miracles performed" فهو موضوع الفصل التالي.

وتتضـمن أمثلـة النـوع الأول مـن المعجـزات إنجـاء الله لـ دانيـال مـن الأسُود، وإنقـاذ يونس من بطن الحوت، وإبراهيم من النـار، وموسى من فرعـون وجنـده. ولاشـك أن حمـل مـريم العـذري بعيسـى وبـزوغ نجمـه مـن المشرق لاتقل أهمية عن هذه المعجزات كذلك. وهناك المعجزة التي لايعرفها الكثير من الغربيين وهي معجزة النجم الذي سطع مبشّراً بقدوم نبي آخر. ولعـل خـير شـاهد علـى هـذا حسّـان بـن ثابـت شـاعر الإسـلام وأحـد الصحابة المرموقين. فقد روى حسان أنه في يوم ميلاد محمد بمكة كان هو

في المدينة المنوّرة (التي تبعد عن مكة بمايزيد على أربعمائة كيلومتر) سمع يهودياً يصرخ بأعلى صوته: "يا معشر يهود ... طلع الليلة نجم أحمد الذي وُلد به (أي النبي محمد الذي بُشِّر به)".[١٦٧] ويؤيد هذا الحديث رواية زيد بن عمرو بن نُفَيْل قال إن أحد الأحبار الثقات أخبره بينما كان في بلاد الشام في اليوم الذي ولد فيه محمد: "قد ظهر نبي في بلدكم، أو إنه سيظهر، لأن نجمه طلع، ارجع (إلى بلدك)! آمن به، واتبعه."[١٦٨]

كما كان هناك دلائل إعجازية أخرى، فالأثر الشائع بين المسلمين مايروى أنه عندما ولد محمد انطفأت الشعلة "الأبدية" لعبدة النار من الزرادشتيين Zoroastrians في بلاد فارس Persia بمعجزة ربانية. كما يوضح العديد من الحوادث الأخرى أن الله اختص محمداً بعنايته الربانية. فكما ذكرنا آنفاً، نجا محمد من العديد من محاولات الكافرين لقتله بتدخل رباني. فقد وقف كافر ذات مرة على رأس محمد وسيفه معلّق وهو في قيلولة. فسأل محمداً مهدداً إياه بسيفه الذي أخذه من على شجرة كان محمد قد علّقه عليه: "من ينجيك مني الآن؟" فأجابه محمد قائلاً "الله"، وسرعان ما شُلّت يد الكافر ولم يستطع حمل السيف فسقط من يده.[١٦٩]

وأراد أبو جهل أن يهشّمم رأس النبي بحجر كبيرة بينما كان ساجداً، لكن عندما دنا من محمد وهو يصلي ما صدّه عن ذلك سوى رؤية جمل

---

١٦٧. ابن هشام: **السيرة النبوية**

١٦٨. **دلائل النبوة** لأبي نُعيم

١٦٩. البخاري ومسلم

فاغراً فاه انطلق نحوه دون أحد من أصحابه.[١٧٠]

وذات مرة خرجت امرأة أبي لهب ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبْ﴾ باحثة عن محمد وهي تنوي قذفه بالحجارة. فلمّا وجدت صاحبه أبا بكر سألته عن مكان محمد الذي كان يجلس بجواره، ولكنْ عيناها عُمّيت عن رؤيته.[١٧١]

وفي مناسبات أخرى قال محمد إنه قد أخبر إما بمعجزة أو من قبل أمين الوحي، بمكائد لقتله وبذلك فقد تحاشى تناول الوجبة المسمومة[١٧٢]، وأمر بالرحيل عن جانب الجبل[١٧٣] حيث كان مدبّراً يريد أن يلقي عليه حجراً من علٍ.[١٧٤]

والذي يدفعنا لتصديق مثل هذه الحوادث أنها لم تكن إنذارات مزيفة ادعاها محمد قط، بل لقد ثبت على مدى التاريخ أنها كانت مكائد حقيقية ضده. فعبر مسيرة حياته لم يزعم محمد بوقوع مؤامرة ضده لم تقع فعلاً. فهو لم يعتد أن يرفض دعوة إلى طعام بدافع من أن يكون ذاك الطعام مسموماً، كما لم يكن من دأبه أن يغيّر خط مساره مخافة أن يدفع به أحد من على جرف أو هاوية، أو أن يبدّل مكان جلوسه بدافع من شكوك أن أحداً ما سوف يسقط عليه صخرة بهدف قتله. لقد كان لديه

---

١٧٠. ابن هشام: **السيرة النبوية**

١٧١. المرجع السابق

١٧٢. **مسند أحمد** و**السيرة النبوية** لابن هشام

١٧٣. **مسند أحمد**

١٧٤. ابن هشام: **السيرة النبوية**

كل الأسباب التي تدفعه كي يكون مصاباً بداء الشك، ومع ذلك نجده يدفع بخطا ثابتة حثيثة نحو هدفه، دونما أن يأخذ مايمكن أن يعدّه معظم الناس احترازاً عادياً. ولم يُعِد النظر في برنامجه غير الاحترازي هذا إلا في المناسبات التي يكون لديه فيها شعور داخلي، أو يأتيه وحي واقعي يحذره من محاولة ما تهدف لقتله. وأما في المناسبات القليلة التي كان يشعر فيها بالخطر فكان شعوره دوماً في مكانه.

وكما أسلفنا، فقد سرّح محمد حرسه عندما نزلت عليه الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ... ﴾ (القرآن الكريم ٥: ٦٧). ولم يكن لديه من يذوق له الطعام على الرغم من أن التسميم كان تهديداً شائعاً للحكام ووجهاء القوم في زمانه. فهو لم يعش حياة يكتنفها الشك والارتياب، بل كان يفتتح كل يوم يمر به وكل ظرف بالثقة بأن "الله معه". وفي الواقع إن سلوكه كان ينم عن ثقة مطلقة بالرعاية الإلهية. وعندما كان يجابه بأشد الظروف خطورة كان دوماً يظهر سلوكاً وضبط نفس غير عاديَيْن تقريباً.

ومثال ذلك أنه في ليلة هجرته من مكة إلى المدينة، حاصرت منزله شرذمة حقيقية من القتلة. فماذا كانت ردة فعله؟ فبدلاً من الخروج خِلْسَة، أو التستر أو التخفي أو الزحف سرّاً، أو حتى الاندفاع بجنون جرياً وراء حريته، توكّل ببساطة على عناية خالقه، وتضرع إليه بعد أن رتّل بعضاً من آيات القرآن الكريم ثم خرج من منزله بسكينة سائراً بين أعدائه، الذين وجدهم في غير وعيهم، وغادر مكة.

وفيما بعد، وعندما ضلل ملاحقيه في الطريق إلى المدينة، اختبأ هو وصاحبه أبو بكر، في غار صغير في جبل ثور. وعندما دنا المطاردون القتلة من فم الغار، وهم مصمِّمون على تفتيشه لتحقيق هدفهم، هدّأ محمد من مخاوف أبي بكر بتذكيره المطَمئِن بأن الله هو حاميهما. وعلى الرغم من أن محمداً وأبا بكر لم يكونا سوى على بُعد بضع خطوات من القوم، فقد غادر هؤلاء المكان دون دخوله. وعندما تحرّى محمد وأبو بكر الأمر، وجدا أن مدخل الغار قد سدّته شجيرة سَنْط بطول رجل سداً جزئياً، ونسجت عنكبوت بيتاً على ما تبقى من مدخل الغار، كما كان هناك حمامة وضعت بيضها في عش بُني حديثاً. وغادر المطاردون بعد أن تيقنوا من أنه ماكان لأحد أن يدخل ذاك الغار دون هدم مثل هذا البناء الدقيق المتقن الذي كان يغطي مدخل الغار. إلا أن واحداً من الأشياء الثلاثة — الشجرة، أو بيت العنكبوت، أو العش — لم يكن موجوداً عند دخول محمد وأبي بكر الغار ابتداءً.

وعلى نحو مماثل، فعندما أدرك سراقة بن مالك الرجلين [محمداً وأبا بكر] في الفلاة، عَرَف أبو بكر ذاك المحارب العظيم، إلا أن محمداً حافظ على سكينته وثقته التي لا تتزعزع. فهدّأ محمد من روع أبي بكر بقوله: "لا تحزن إن الله معنا".[١٧٥] وكما سنناقش في الصفحات التالية، فقد ذهبت محاولات سراقة للقبض على الاثنين أدراج الرياح نتيجة لأحداث خارقة أيضاً، وتمكن محمد وأبو بكر من مواصلة سيرهما نحو الهدف.

---

١٧٥. **صحيح البخاري**

وفي معركة بدر الحاسمة، واجه جيش المسلمين المؤلف من ثلاثمائة رجل قوة تتألف من ألف وثلاثمائة رجل من قريش. وكان لدى المسلمين فارسان في حين كان لقريش مائة فارس. وكانت أسلحة المسلمين وعتادهم قليلاً، في حين كان ستمائة من رجال قريش يرتدون دروعاً. فماذا فعل محمد؟ هل أمر بالتراجع؟ هل نظم حرب عصابات؟ كلا. بل رمى بحفنة من البطحاء صوب العدو البعيد في إشارة رمزية وتضرع بالدعاء قائلاً: "شاهت الوجوه، شاهت الوجوه". وفي إثر ذلك هبت عاصفة هوجاء في وجوه الأعداء من قريش وأنزل الله قوله: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (القرآن الكريم ٨: ١٧). وأسفرت المعركة عن مقتل سبعين من قريش، وأسر مثل ذلك العدد، في حين قُتل أربعة عشر من المسلمين في المعركة، على الرغم من أن المسلمين كانوا أقل من المشركين عدداً وعدة بنسبة واحد إلى أربعة تقريباً. وفي أعقاب المعركة شهد الطرفان بأنهما قد شاهدا الملائكة تقاتل في صفوف المسلمين[١٧٦] [١٧٧].

إن ما تقدم هي مجرد حوادث قليلة سُخِّرت فيها قوى الطبيعة لخدمة محمد. وفي مناسبة أخرى كتب مشركو مكة عهداً فيما بينهم لفرض

---

١٧٦. صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، الصفحات 210-226

١٧٧. Lings, Martin. P.148

مقاطعة المسلمين إلى أن يتخلى محمد عن زعمه بالنبوّة أو أن يتخلى عنه قومه. وبعد مرور ثلاث سنوات من التجويع المهلك، حرص بعض أقارب المقاطعين على وضع حد لمعاناة أقاربهم من المسلمين. ولكن وبينما كان النقاش دائراً بين مشركي قريش، نزل الوحي على محمد ليخبره بأن الأَرَضة قد أتت على كامل الصحيفة التي وُقِّع عليها ذاك البيان الظالم ماخلا الكلمات التي تعظّم الله. نقل عم النبي أبو طالب ماجاء به الوحي إلى المشركين، وأقسم أن يسلمهم محمداً إن كانت رسالة ذاك الوحي زائفة. وعندما أخرج المشركون الصحيفة من جوف الكعبة وجدوا أن الأَرَضة قد أتت حقاً على كل مافيها عدا الكلمات "باسم الله". وهكذا فقد خضع المشركون لذاك الأمر، لأنه بدا لهم أن الذي أبطل الصحيفة هو الله بأمره الأَرَضة لفعل ذلك، والوحي لنقل الخبر.[١٧٨]

وبالإضافة إلى ذلك، فقد روى ميسرة، غلام محمد في القافلة إلى الشام، أن غيمة كانت تتابع محمداً في طريق الصحراء كي تظله. ولاحظ راهب الشام النسطوري بَحَيرة الظواهر ذاتها على محمد بينما كان في الثانية عشرة من عمره وهو يمر عبر أسواق بُصرى في رعاية القافلة الذاهبة إلى بلاد الشام مع عمه أبي طالب. فسأل بحيرة محمداً أسئلة محددة، ولما تيقن أنه هو النبي المنتظر قام بفحص جسده، فوجد ما كان يبحث عنه، وهو وَحْمة في كتف محمد أدرك أنها خاتم النبوة الموصوف في كتب الأقدمين

[١٧٨]. صفي الرحمن المباركفوري، **الرحيق المختوم**، الصفحات 117-119

السماوية والتي كانت من علامات النبي الخاتم.[١٧٩]

وأما أكثر هذا النوع من المعجزات إثارة فكانت رحلة الإسراء الروحانية والتي يدعوها المسلمون بـ "الإسراء والمعراج". ففي الحديث يُروى أن الملاك جبريل أركب محمداً البراق من مكة إلى بيت المقدس، ومنها عرج به إلى السماء. وعندما روى محمد هذه المعجزة للناس في صباح اليوم التالي بعد عودته، قوبل زعمه باستهجان كبير. إذ كيف يمكن لمحمد أن يسافر إلى القدس ... مسيرة ما لا يقل عن عشرين يوماً بالقافلة ذهاباً، ويعرج إلى السموات السبع (وهو ما يعدّه المرء ملحمة لها أبعادها الأكثر تعقيداً)، ثم يعود إلى مكة، وكل هذا في ليلة واحدة؟ ومع ذلك فعندما تحدى المشركون محمداً، وصف لهم القدس بتفاصيل رائعة ودقيقة لمن كان يعرفها منهم مع أنه لم يزرها هو نفسه من قبل قط.[١٨٠]

فضلاً عن ذلك فقد روى ابن هشام، مؤرخ القرن الثاني الهجري المعروف [١٨١]م ت أنه بينما كان محمد في رحلته إلى القدس تلك رأى أعرابياً أعرابياً يبحث عن جمل ضل من قافلته، وأنه أرشده من موضعه المرتفع في السماء إلى الجمل الضال. ووصف محمد القافلة العائدة بأنها كانت تبعد مسيرة يومين، وضمَّن وصفه بعلامات مميزة للجمل الذي كان في مقدمة تلك القافلة. ووصف كيف أن جملاً منها كسرت ساقه، كما أعطاهم

---

١٧٩. ابن هشام: **السيرة النبوية**

١٨٠. **مسند أحمد**

١٨١. القرن الثاني في التقويم الهجري يوافق الأعوام 719-816 في التقويم الميلادي

صفات جمال الركاب الآخرين كافة.

لعل المرء يميل إلى الاعتقاد بأن هذه مزاعم أفكار طائشة.

وصلت القافلة التي كانت تبعد مسيرة يومين في موعدها، وتطابقت أوصاف الجمل الذي كان في مقدمة القافلة تلك وأوصاف جميع الركاب الآخرين مع وصف محمد. ليس ذلك وحسب، بل إن أحد أعراب القافلة أكّد سماعه لصوت من السماء تلك الليلة أرشده إلى الجمل الضال.(١٨٢)

١٨٢. ابن هشام: **السيرة النبوية**

## ٢: معجزات الكرامات

**المعجزة حدثٌ يبعث على الإيمان. ذلك هو هدف المعجزات، وتلك هي طبيعتها.**

**جورج برنارد شو** George Benard Shaw، مسرحية **القديس جوان**.

عندما نأخذ بالاعتبار الصفات التي تُعرّف النبي، فإن أحد الأشياء التي نفكر فيها هي المعجزات. فالأحداث الإعجازية هي مايميِّز الأنبياء عن غيرهم من بني البشر. في حين نجد أن المعجزات التي أجريت على يد الأنبياء أنفسهم لاتدل وحسب على فضل الله عليهم بل وتأييده لهم بالسلطان. إن المعجزات التي أجريت على يد موسى وعيسى مشهورة، وأما تلك التي أجريت على يد محمد فكثيرة بحيث تتطلب إفراد كتاب آخر لها.

وهذه النقطة لا تمثل مبالغة. فقد أُلِّف العديد من الكتب حول هذا الموضوع باللغتين الإنجليزية والعربية.[١٨٣] والمعجزات المنسوبة إلى محمد

---

[١٨٣]. انظر الوادعي، مقبل بن هادي، **صحيح المسند من دلائل النبوة**، الكويت: دار الأرقم ١٩٨٧، وهو من أفضل المراجع في هذا المجال

تتضمن كل شيء، من التنبوءات، إلى الأعمال البطولية الجسدية الفذّة، ولكن أعظمها على الإطلاق هي معجزة القرآن الكريم. وقد سبق مناقشة فصاحة القرآن التي لا مثيل لها، واتساقه، والوحي الذي سبقه (وهو ما يتعارض والرأي الشعبي السائد في عصر محمد)، وتأكيده لأحداث تاريخية لم تكن معروفة سابقاً، وتقريره حقائق علمية قبل التوصل إليها لاحقاً بألف عام ونيف، ونبوءات، وتطمينات، وتحديات لا تقهر، والكثير الكثير. وإذا ما أخذنا القرآن بجملته، فإننا أمام وحي كامل لا مثيل له. وإذا لم يكن القرآن معجزة، فماهو؟

وتبقى لدينا كل الأسباب لكي نسأل عن عدد المعجزات التي قيل إن محمداً جاء بها.

والجواب هو الكثير من المعجزات.

وليس بالوسع استقصاء قائمة بجميع تلك المعجزات في كتاب كهذا، لكن يمكن لمن يريد الاستزادة حول هذا الموضوع العودة لكتب السيرة التي ورد ذكرها وكذلك لكتاب **الشفاء** للقاضي عياض (المتوافر حالياً باللغة الإنجليزية)، وإلى العديد من كتب الحديث. وبين ثنايا هذه الكتب يقع المرء على سيل من المعجزات لا يسهل حصرها. كما أن كلّ شخص يقرأ مثل هذه الكتب يصادف منهجية للتوثيق التاريخي، ودقة التدوين، يندى لها جبين التوثيق الغربي للفترة المشابهة لها، ولعدة قرون تالية.

ففي هذه الكتب نجد قصصاً عن محمد، وكيف كان يدعو الله ويطلب

البركة منه لإدرار الحليب/ اللبن من ضرع شاة عجفاء، وتحويل ناقة منهكة إلى أسرع وأنشط ناقة في الركب، وإطعام جمهور من الناس وسقايتهم من كميات يسيرة، وتحويله لعصا عكاشة بن محصن الأسدي إلى سيف بعد أن كُسر سيفه في معركة بدر.

فقد شرب عشرات الفقراء والجوعى من قدح من اللبن كان يبدو أنه لا يكفي إلا لواحد. وأكل جيش بكامله تعداده ألف ونيّف من صاع دقيق وقطعة صغيرة من اللحم كانت من الصغر بحيث يظن أنها لا تكفي إلا للعشرة في معركة الخندق، وبعدها بدا أن الدقيق واللحم لا ينقصان. كما أُطعم جيش آخر يتألف من ألف وأربعمائة رجلاً متجهاً إلى غزوة تبوك من بضع حفنات من الطعام دعا لها محمد بالبركة، فلم تكن الزيادة كافية لإشباع الجيش فحسب، بل لملء بعضاً من أَخْراج دوابهم الفارغة.

وذات مرة سُقِيت سرية قوامها ثمانون رجلاً، وسقي جيش مؤلف من ألف وأربعمائة رجلٍ (وهم في طريقهم هذه المرة لتوقيع صلح الحديبية) في مناسبة أخرى من حفنات من الماء كان يبدو أنها لا تكفي لواحد، وتوضؤوا جميعاً منها.

وأخرج الجن من بعض الأشخاص، وبَرئت ساق عبد الله بن عتيق التي كسرت، وساق سَلَمة بن الأكوع التي أصيبت في الحرب إصابة مباشرة (حيث بَرِئت ساق كل منهما على حدة على الفور)، كما شُفيت عين علي بن أبي طالب من الرّمد، وتوقف نزيف الحارث بن أَوْس بالكيّ وبرئ من جرحه في الحال، وشفيت قدم أبي بكر من لدغة سامة، وأعيد البصر

إلى أعمى. وفي مناسبة أخرى، جُرِح قتادة بن النعمان في معركة بدر، وكانت جروحه مُبْرِحة بحيث سالت حدقة عينه على وجنته، فأراد أصحابه أن يقطعوا ما ظل متصلاً منها، إلا أن محمداً قرأ على العين المتدلية، وأعادها إلى موضعها. ومنذ ذلك اليوم لم يكن قتادة ليميز بين العين التي كانت قد أصيبت وغيرها.

واستمر ذلك حتى غزوة أحد.

وفي غزوة أحد أصاب قتادة سهم في محجر عينه بينما كان يدافع عن محمد، وعندما حاولوا إخراج السهم منه خرجت العين معه، إلا محمداً دعا له قائلاً: "اللهم اكسبه جمالاً .. واجعلها خير عينيه التي يبصر بهما وأحدّها بصراً". ثم أعاد محمداً العين إلى مكانها، وأصبحت تلك العين أحسن عيني قتادة وأحدّها.[١٨٤]

ويروى أن محمداً استسقى من سماء صافية في وقت جفاف، فتلبّدت السماء بالغيوم، وارتوت الأرض بالمطر حتى طُلب إليه أن يدعو لوقف غمر المطر الذي تواصل لأسبوع وكاد أن يدمر المنازل. واستجابة لذلك الطلب دعا محمد: "اللهم حواليْنا ولا علينا". وبموجبه أحيطت المدينة المنوّرة بالأمطار، ومياه الأمطار الجارية، لكن البيوت المحاطة بالماء سلمت من الدمار جراء ذلك المطر الغزير.

وفي مناسبات عدة أَخْبَرَ محمد عن أشياء تحمل سمات الوحي على

---

١٨٤. Sa'eid Hawwa. p.322

الرغم من أنها لم ترد في القرآن الكريم، وهذا مايدل على نبوءته. وثبت أن جميع تلك الأخبار قد وصلته عن طريق غير دنيوية. ففي إحدى المناسبات أخبر محمد رسلاً جاؤوا إلى المدينة المنوّرة من بلاد فارس أن إمبراطورهم الذي أرسلهم قد لقي مصرعه خلال غيابهم، مما استدعى عودتهم إلى ديارهم. ونظراً لعدم وجود وسيلة لنقل مثل تلك الأخبار سوى الوحي، فقد أسلم حاكم فارس على اليمن ورعيته عندما عاد الرسل وهم يحملون مثل تلك القصة تصديقاً لرسالة كانت قد وصلت لتوّها من الحاكم الجديد لبلاد فارس. والتقى مصدر المعلومات في اليمن في مكان وزمان كان يستحيل فيهما أن يكون محمد قد عَلِم بوسائل دنيوية، ما أُخبر به من اغتيال كِسرى فارس.(١٨٥)

وبالطريقة ذاتها، تنبّأ محمد بأنه سيخرج من اليمامة كذّاب يدّعي النبوة وأنه بعد ذلك سوف يُقتل.(١٨٦) وتحققت النبوءة عندما ادّعى مسيلمة النبوّة في اليمامة وغدا له أتباع في ضوء ادعائه ذاك. وعلى الرغم من أن محمداً أخبره بأن مصيره محتوم ولو تاب وكفّ عن فعله، فإن الله قد كتب عليه القتل. (١٨٧) أصر مسيلمة على كذبه من ادّعاء النبوة، ولكن وتصديقاً للوعد فقد قتل في اليمامة في عهد الخليفة أبي بكر وذلك بعد

---

١٨٥. **فتح الباري**

١٨٦. **زاد المعاد**

١٨٧. **صحيح البخاري**

وفاة محمد.[١٨٨]

وقد قُتل شخص آخر من أدعياء النبوة وهو الأسود العنسي في اليمن قبل وفاة محمد بيوم واحد. وقد أخبر محمد رسل الأسْود بأن نبأ موته كان قد وصله بوساطة الوحي الإلهي، وبعد موت محمد، تأكد صدق كلامه من مصادر في اليمن.[١٨٩]

كما تنبأ محمد باستشهاد عامر في معركة خيبر، وكذلك تنبأ باللعنة التي سوف تحل بأحد أفراد الجيش المسلم الذي شوهد لاحقاً وهو يقترف إثم الانتحار الذي لا يغتفر.[١٩٠] وفي واحدة من أجرأ النبوءات على الإطلاق، فقد رُوي أن محمداً قال: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده. والذي نفسي بيده لتُنفِقُنّ كنزوهما في سبيل الله".[١٩١]

وكما قال محمد حقاً فقد استولى المسلمون على بلاد كسرى Chosroes ملك فارس وبلاد هرقل Heraclius إمبراطور بيزنطة. وقد زال ملك هذين الإمبراطوريْن، وأُنفقت خزائنهما في سبيل الله.

وعندما طلبت قريش من محمد أن يأتيها بمعجزة، رُوي أنه وجّه نظرهم إلى السماء وأراهم انشقاق القمر. انشقاق القمر إلى قسمين؟ لا يخطر

---

١٨٨. المباركفوري، صفي الرحمن، ص، 454

١٨٩. المرجع السابق

١٩٠. **صحيح مسلم** و**صحيح البخاري**

١٩١. **صحيح البخاري**، رواه جابر بن سَمُرة

هذا على أذهان معظم الناس. إلا أن آخرين يسلّمون بأن كلّ عنصر من عناصر الخلق خاضع لأمر الخالق، وعليه فإن كل ما يخطر ببال البشر يمكن له أن يقع. فإذا كان البحر قد انفلق لموسى، فقد انشق القمر لمحمد.

وعندما طلب البطل الصنديد رُكانة من محمد كي يصارعه، وكزه محمد في كتفه فألقاه أرضاً. ثم طلب المصارعة مجدداً، فتكررت المعجزة، ثم تكررت للمرة الثالثة .. وكانت النتيجة أن هُزم رُكانة شر هزيمة.

عندما طلب إلى محمد أن يستسقي، استسقى، فنزل المطر. وعندما طُلب إليه أن يُطْعم الناس أتى دعاؤه بالرزق من حيث لم يعلم الناس، وعندما شُفِّع شافياً اندملت الجروح والإصابات.

باختصار فإن صلوات محمد ودعاءه كانت تعود على المؤمنين بالفرج والبركات. وقد تعرّض محمد لمحن شخصية كثيرة — ومنها تعرضه للإساءة وسط قبيلته وأحبائه، وللقذف بالحجارة في الطائف، وللجوع في مكة، وكذلك للأذى قرب الكعبة — ووجدنا كيف واجه تلك المحن جميعاً بالصبّر والثبات والاحتمال.

وبهذا فإننا نتعلم في هذا الجانب شيئاً ممتعاً عن محمد. ففي حين كان يهبّ للدعاء إلى الله والتضرع إليه كي يخفف عن المؤمنين آلامهم، كان نادراً مايطلب تدخل العناية الإلهية من أجل نفسه. وإذا ما أخذنا بالاعتبار زمن الفتن والاضطراب الذي كان يعيشه، والطريقة التي كان

يستجيب بها لتلك الفتن من التحلي بالصبر والثبات، فإن هذه الخصال الكريمة هي مايدفعنا كي نتعلم الكثير الكثير من شخصية هذا الإنسان العظيم.

## ٣: شخصيته [ﷺ]

**بعض الناس يقوّون المجتمع كونهم من ذاك الصنف الذي ينتمون إليه.**

جون و. غاژدنر John W. Gardner.

أغمض عينيك وفكّر في إبراهيم وإسماعيل وإسحاق فماذ ترى؟ لن ترى الكثير على ماأعتقد. والآن أغمض عينيك وفكّر في نوح وموسى وعيسى فماذ ترى؟ لقطات سينمائية، بل ربما صورة رأيتها على زجاج نافذة معشّق، أو صورة جدارية، أو لوحة زيتية، أو مجلة لأفلام الكَرْتون، أو كتاب أطفال مزيّن برسوم توضيحية. بل قد ترى أكثر من ذلك، ولكن هل شيء من كلّ هذا دقيق ومحكم؟

تبعاً لحدسنا، فإننا نعلم أن الأنبياء جميعاً كانوا أسوة حسنة. ولكننا نجد صعوبة في التوفيق بين مانتوقعه من الأنبياء وقصص الكتاب المقدس عن نوح يتعرى وعندما يموت يموت مخموراً، وعن لوط يرتكب الزنى بالمحرمات (ولو كان عن جهل)، وعن داؤود يرتكب الجريمة. ونزداد هلعاً عندما نقرأ أن يهوذا يقع في الزنى، وأن عيسى يلعن شجرة التين ويزدري

الأمميين ويوبخ أمه؟

إن هذه القصص لاتنسجم وتوقعاتنا.

وعلاوة على ذلك، فإن توقنا للمزيد من التفاصيل يبقى رهن الإحباط. فندرة المعلومات المتعلقة بأنبياء الكتاب المقدس التي يشوبها تناقضات غير لائقة مثل التي مرت بنا للتو، تتشابك لكي تشكل مجموعة صور ضبابية من قبيل لوحات بيكاسو Picasso. فمنحنى مفهوم ما يحيط بظل تصميم آخر غير لائق. ويفتقر عموماً إلى التفاصيل الأساسية اللازمة لتركيز الصراع التكعّبي لرسم صوراً دقيقة ورائقة. فماذا كان إبراهيم عليه السلام؟ حسناً، كما تعلم، كان نبياً. نعم لكني أرغب في تفاصيل. آسف، لا يمكن لي مساعدتك بهذا الشأن.

وفي حين نجد أن الأوضاع لايمكن حلّها مع أنبياء الكتاب المقدس، لاتوجد مصاعب مشابهة في حالة النبي محمد. فالصورة التي نحصل عليها من كتب التاريخ والحديث في منتهى الصفاء والاتساق، وبالتالي فهي تستحوز على الاهتمام.

والسبب هو أنه لو لم يكن محمّداً مثالاً يحتذى في التقى، لكان شأنه شأن كلّ رجل آخر في زمانه. وبتفحص بعض الآراء التي تعود إلى الماضي نجد تعليقات مثل:

لا يمكن التشكيك في الإخلاص المتأصّل في طبيعة محمد؛ فأي نقد تاريخي لا يغفل الحقائق، ولا يسلم الأمور إلى

السذاجة، ويزن كل شهادة، وليس لديه مصالح حزبية، ولا يبحث إلا عن الحقيقة، لابد له أن يعترف بمقولته، وهي أنه ينتمي إلى مجموعة الأنبياء الذين – مهما كانت طبيعة تجربتهم الجسدية – نصحوا في أوقات مختلفة وبطرق مختلفة، وعلّموا، وعبروا عن أفكار زاهدة وسامية، وأرسوا مبادئ للسلوك أسمى من تلك التي كانت سائدة في زمنهم، وكرّسوا أنفسهم دونما جزع لدعوتهم السامية حيث كانوا لا يستطيعون مقاومة الاندفاع في تبليغ رسالتهم نتيجة قوى كامنة تحركهم.(١٩٢)

وكذلك:

إن استعداد محمد للتعرض للاضطهاد من أجل معتقداته، وسمو أخلاق الذين آمنوا به اتخذوه قائداً، وعظم محصلة إنجازاته – كلها تشهد على استقامته الرئيسة. إن افتراض أن محمداً كان كاذباً يثير مشكلات كثيرة أكثر مما يحلها. وعلاوة على ذلك، فلا أحد من بين الشخصيات العظيمة في التاريخ يُنْتَقَص من شأنه في الغرب، كما هو حال محمد. وقد كان كُتّاب الغرب في الغالب معرّضين ليذهبوا شأواً بعيداً في إساءة الظن بمحمد، وحيثما بدا تفسير مثير للاعتراض لعمل ما قابل ظاهرياً للتصديق، فقد كانوا يميلون لتصديقه على أنه حقيقة. وهكذا فإن

١٩٢. *The New International Encyclopedia*. 1917. 2nd edn. Vol. 16. New York: Dodd, Mead and Company. p.72.

علينا أن ننعت محمداً بالأمانة المتأصلة واستقامة المقصد. وإذا ما أردنا فهمه، وأردنا تصحيح الأخطاء التي ورثناها من الماضي، فلا بد لنا من التشبّث في الأحوال كافة بالاعتقاد بإخلاصه إلى أن يثبت نقيض ذلك ...(١٩٣)

لقد عاش محمد حياة، يعترف المسلمون وغير المسلمين على حد سواء، بأنها كانت مكرسة لتبليغ الرسالة التي كان يعتقد أنها وحي (من عند الله). ولم يكن متاع الدنيا ذا بال يذكر بالنسبة له. فقد ثبت أنه عاش حياة يعتقد الكثيرون أنها كانت تكتسي بالتقشّف بحيث ولّدت التسامح وتحمل ما لا يطاق.

ويروي لنا التاريخ أنه كان يعيش في غرفة واحدة بسيطة ذات جدر متواضعة شبيهة في مساحتها بمساحة غرفة نوم صغيرة بمواصفات العصر. وكان ينام على فراش من الجلد محشو بألياف شجر النخل القاسية، ويرتدي ملابس عادية، ويأكل مما توافر في أوقات الشدّة (حتى إنه كان يشرك أصحابه في الطعام القليل المتوافر لديه)، لكنه كان يقتسم الطعام البسيط غير المنقّى في أوقات الرخاء، انطلاقاً من ضبط النفس.

وكانت تمر الشهور ولا يتناول فيها محمد إلا التمر والماء، وفي بعض الأحايين كان يشرب من لبن النوق. فمنذ الوهلة الأولى التي تلقّى فيها الوحي حتى موعد قبضه، لم ليأكل خبزاً صنع من الدقيق. واعتاد أن يقوم

---

١٩٣. Watt, W. Montgomery. P.52

ثلثي الليل، وكان يصوم في الفصول جميعها، ولم يكن يحتفظ بثروة له قط، حيث كان يوزع كل ما يصله من هبات وعطايا على مختلف الفئات من المحتاجين. وكان يوصف بأنه أشد حياءً من العذراء في خدرها، إلا أنه كان الأقوى عزيمة وأشجع المقاتلين في المعركة. فقد نُقل عن علي، وهو من الشجعان المشهورين المعروفين بالبسالة، قوله: "كنا إذا حمي البأس واحمّرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أقرب إلى العدو منه".[١٩٤]

كان كرم محمد خيالياً، وخُلُقه مثالياً، وسلوكه مُلْهِماً. وتوفي، كما عاش تماماً، في فقر مدقع بعد أن وهب سلاحه للمسلمين، وتصدق بآخر سبعة دنانير كانت بحوزته. مات وهو في قمة مجده وقوته، ولكنه لم يخلّف وراءه أي ثروة سوى بغلته التي كان يمتطيها، ودرعه (التي كانت مرهونة عند يهودي)، وقطعة أرض مخصصة للصدقة. أما مجموع ما ترك لأزواجه التسع اللواتي عشن من بعده فقد كان وعد الله برزق عباده، وهو وعد كشف التاريخ أنه نُفِّذ بسخاء. أما بالنسبة لابنته الوحيدة التي عاشت بعده وهي فاطمة، فقد ترك لها البشارة بأنها أول من سيلحق به من عائلته، وتلك كانت بشارة أدخلت البهجة على نفسها. وبعد ستة أشهر من انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، وعلى الرغم من صغر سن فاطمة مقارنة بمعظم أزواجه اللائي يكبرنها سناً، واللائي بقينَ على قيد الحياة، فقد صدق كلام محمد، حتى بعد وفاته.

١٩٤. **الشفاء** للقاضي عياض ٨٩/١

وكان محمد أبعد ما يكون عن حياة الرغد الأنانية، فقد كان يحلب شاته، ويخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعين أهله في شؤون المنزل، ويعود المساكين. وعندما كان هناك داع للعمل اليدوي، كان أول من يتقدم القوم لوضع اللبنات والأحجار من أجل بناء مسجد قباء في المدينة المنورة. وفي معركة الخندق، حفر محمد في الخندق مع أصحابه، بل إنه كسر صخرة عجز أصحابه الآخرون مجتمعين عن تحطيمها. وعندما كانت الأحجار تنقل، كان يحمل حجرين بينما كان كل واحد من الآخرين يحمل حجراً واحداً. ولم يكن يسمح للآخرين بقبول التحدي نيابة عنه، فعندما أقسم فارس يدعى أُبَيّ بن خَلَف في غزوة أحد أن يقتُلَ محمداً أو يُقْتل، رفض محمد عروض أصحابه لمنازلة الرجل نيابة عنه، ولما نازل محمد الفارس وهو راجل أصابه بجرح قاتل.

عرّف أرسطو Aristotle مذهب الاعتدال بوجود الفضيلة في نقطة وسط بين طرفيْ نقيض من الانغماس الذاتي ونكران الذات. وبينما لا تنسجم مثل هذه الفلسفة تمام الانسجام وتعاليم الإسلام، فإن الدين الإسلامي يؤكد، مراراً وتكراراً، على فضيلة "الوسطية" فيما يتعلق بالأمور والمسائل الشرعية. فهناك وقت للعمل ووقت للّعب، إلا أن هناك وقتاً للصلاة والتفكر وهي أعمال تتطلب جهداً جسدياً ونفسياً، لكنها تعود على المرء بالمكافأة المباشرة المتمثلة في درجات متفاوتة من السكينة وهدوء البال. فالمرء يمسك عن الطعام والشراب في أثناء الصيام، لكن بوسعه تناول ما شاء في وقت الإفطار من الوليمة الكبيرة إلى أبسط القوت. ويأمر

الإسلام ألا تُكدّس الأموال لدرجة الشح وألاّ تصرف بسخاء لدرجة الإسراف. وعلى الرغم من تشديد الإسلام على فضائل الصدقات والإحسان، إلا أن مايتوجب على المسلم دفعه شرعاً هو الزكاة أو حق الفقراء.[١٩٥ م.ت.]

ولم يحرّم الإسلام الملذات الدنيوية كما أن اعتزالها غير مذموم. لكن الإسراف في الملذات الحسية والتفاني من أجلها منهيّ عنهما. وبمعنى آخر، فإن المسلم المثالي لا يعدّ أبيقورياً epicurean، ولا متنسّكاً ascetic. ولكن لا ضير في الإسلام إن وصل المرء إلى حالة من الزهد، بل إن الإسلام يحض على ذلك.

ولا يوجد مقابل لكلمة "زاهد" في اللغة الإنجليزية، ولعل أفضل ترجمة لها هي "رواقي stoic" وذلك لأن المذهب الفلسفي الرواقي مذهب يؤكد على أن السعادة تتوقف على السكينة لا على الظروف الخارجية.(*) وهكذا يمكن للزاهد أن يعيش غنياً أو فقيراً، مريضاً أو معافىً، ومع ذلك يحتفظ بالسعادة بوساطة السكينة الداخلية لا المتع المادية، وبمجرد اكتشافه لمثل هذه السكينة الغامرة تتضاءل أمامه المتع المادية.

---

١٩٥. الزكاة أحد أركان الإسلام الخمس إلى جانب الأركان الأخرى وهي النطق بالشهادة، والصلاة، وصوم رمضان، والحج ولكل منها أحكامها في الدين. ويعتقد المسلمون أن دفع الزكاة (وهي نسبة 2.5 % ) تطهر الأموال بالطريقة ذاتها التي تطهر فيها الأركان الأخرى شخصية المسلم وحياته.

(*) الرواقي Stoic: أحد أتباع المذهب الفلسفي الذي أنشأه زينون حوالي عام ٣٠٠ ق.م، والذي قال بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال ولا يتأثر بالفرح أو الترح، وأن يخضع من غير تذمر لحكم الضرورة القاهرة [المترجم].

إن الزهّاد هم الذين من يضعون الله نصب أعينهم وليس عناصر خلقه المادية، وهم بذلك على النقيض ممن لايستطيعون الاندماج في المجتمع نتيجة لعدم قدرتهم على التوفيق بين رغباتهم المادية وأوضاعهم المعيشية. فإذا كان المال مايعزي النفس ويدخل البهجة إليها، فذاك أمر عظيم، وإن لم يكن كذلك، فلا ضير لأن الصبر والتقى بالنسبة للزهاد هما مفتاح السعادة والرضاء.

وبالمختصر المفيد فإننا نقول: إن محمداً كان زاهداً. فسواء أعانى الحرمان، أم الضرب، أم سوء المعاملة من قِبَل الكفار، وسواء أعانى من التجويع خلال هجرته من مكة أم أحيط بثروة إمبراطورية تتوسع على نحو سريع، فيبدو أنه ظل ثابتاً على قناعاته، ومن هنا فقد حافظ على هنائه وارتياحه. فعلى الرغم من أن ظروف معيشته كانت في ظاهرها تشبه ظروف معيشة المتنسّكين، فإن الحقيقة هي أنه لم يكن متنسّكاً على الإطلاق، لأنه لم يمارس نُكران الذات كالتزام روحي. بل إن عدم اكتراثه بالمال والمتع المادية كان كبيراً إلى الحد الذي قدم فيه تلبية احتياجات الآخرين ورغباتهم على تلك الخاصة به.

لقد كان محمد زعيماً دينياً ينأى بنفسه عن تمجيد الذات، وإمبراطوراً كان يكدح بجانب أتباعه، وقائداً عسكرياً كان دوماً يتقدم جيشه— نعم، لقد كان محمد كل هذا. كان رجلاً أصلح أمة، وأقام دولة، وحمل رسالة دين قُدّر له أن يكون خيار أكثر من خُمس سكان العالم في يومنا هذا. إلا أن شعوره المقتصد، وتواضعه محط الإعجاب، وشخصيته الرصينة

تلقي بعباءة من العامّة على شخص ليس عادياً على الإطلاق، وهو ما كان يكفي لتحريك حبّ أصحابه الجارف له.

قال رسول قريش لقريش لدى عودته من المدينة بعد أن قابل النبي: "لقد رأيت كسرى الفرس وهرقل الروم يجلسان على عرشيهما، ولكنني لم أرَ قط رجلاً يحكم أتباعه كما هو حال محمد".

كان محمد رئيساً للدولة، وإماماً في المسجد .. لقد كان قيصراً Caesar وكان بابا Pope في آن واحد، لكنه كان باباً دون خُيلاء البابا، وقيصراً دون هيلمان قيصر. وإذا ما حقّ لرجل على الإطلاق أن يقول إنه كان يحكم بتفويض إلهي، فقد كان ذاك هو محمد الذي كان دون جيش منظم، ودون حراسة، ودون قصر، ودون ريع ثابت، فقد توافرت لديه القوة جميعاً دون أدواتها، ودون دعاماتها.[١٩٦]

رأينا فيما سبق أن أمانة محمد كانت أمراً لامراء فيه، فالكفار أنفسهم كانوا يثقون بوعده. ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك قصة سراقة بن مالك نفسه الذي أراد الفوز بالمائة من الإبل التي عرضها مشركو قريش لمن يقبض على محمد بعد خروجه من مكة إلى المدينة. وعندما رأى أبو بكر سراقة يطاردهما خشي على محمد وعلى نفسه، ولكن محمداً هدّأ من روعه قائلاً

١٩٦. Smith, R. Bosworth. pp.288-289

له: "لا تحزن إن الله معنا".[١٩٧] وبمطاردة سراقة لمحمد وأبي بكر، كان المحارب القرشي الوحيد الذي اعترض الاثنين في طريقهما إلى المدينة وكانا غير مسلّحَيْن. ولكن سراقة لاقى مشكلة بسيطة. فعندما اقترب من الاثنين عثر الحصان الذي كان يحمله فسقط عنه. وكان الحدث فريداً بالنسبة لهذا الفارس الشهير ليعيده إلى وعيه، وعليه فقد توقف واستقسم بالأزلام لتقرير ما إذا كان سيواصل سيره أم لا، كما كانت عادة العرب الوثنيين في مثل تلك الظروف. فخرج سهم السوء لسراقة؛ ومع ذلك ألقى بذلك التحذير أرضاً رغبة في الفوز بالجائزة السخية الموعودة، فاستأنف المطاردة. و لكن فرسه عثر من جديد وسقط سراقة للمرة الثانية. فنهض وامتطى الفرس مجدداً، ثم وقع. ثم امتطى ثم وقع. إن الربط بين الاستقسام المكروه بالأزلام، والإهانات المتكررة لفرسه، وجسده، وكبريائه فتح عيني سراقة على غرابة تسلسل الأحداث. وبقدر أكبر من الحصافة دنا من محمد، فالتفت إليه محمد وخاطبه بصوت مرتفع ومبشراً إياه بأنه سوف يلبس سواري كسرى إمبراطور فارس وتاجه ذات يوم إن هو عاد من حيث أتى.

وعلى الرغم من أن سراقة كان عندها مشركاً، إلا أنه لدى سماعه مثل ذاك الوعد من "الصادق الأمين" كفّ عن المطاردة وقفل عائداً إلى مكة وهو على ثقة من أن الوعد سوف يتحقق يوماً ما.

---

١٩٧. صحيح البخاري

ولكن سراقة أسلم في نهاية المطاف، وعاش بعد محمد لما يزيد على العقد من السنين. اشترك في حملات عسكرية عدة، كما شارك في الحرب التي أدت إلى هزيمة الإمبراطوية الفارسية وعاش ليجد اليوم الذي لبس فيه سواري كسرى وتاجه.

يالها من نبوءة مذهلة.

ولكن ثمة أمر أكثر أهمية من ذلك دفع بسراقة للتفكير. فقد كانت تلك حادثة وقف خياله أمامها حائراً. وهنا نجد كيف يركن مشرك إلى وعد رجل كان عندها الزعيم الروحي لمجموعة صغيرة من الأتباع، تعد بالمئات فرّوا بأرواحهم من اضطهاد قريش. لقد وثق سراقة في رجل دفعه الاضطهاد للهجرة وبرفقته واحد فقط من أتباعه المؤمنين، فارّاً بدينه من بلد لم يفلح في إرساء سلطته بين صفوف الطبقة الحاكمة. ومع ذلك ركن سراقة إلى تطمينه بأن هذه الفئة القليلة من المنبوذين سوف تنمو وتسيطر على قوة فارس إحدى القوى العالمية الرئيسة، وأنه هو سوف يلبس تاج المِلك وسوارَيْه. الركون لمثل هذا الاتفاق كان يستدعي إيماناً راسخاً إن لم يكن بالوظيفة السماوية للرسول، فبأمانة الرجل ابتداءً.

هناك تنافر مذهل ... فالكثير من معاصري محمد أنكروا رسالة الإسلام، لكنهم مع ذلك وثقوا في كل كلمة نطق بها ما عدا الدين. والأمثلة غير العادية من أقوالهم وأفعالهم تتحدى ذاتها، بداية بإجماع أهل بلد محمد، مكة.

وكانت أول مرة أراد محمد أن يبلغ القوم أنه تلقى أمانة الرسالة أن دعا أهل مكة للاجتماع عند الجبل ليبلغهم بالحقيقة. ولكنه قبل أن يعلن تلك الحقيقة أراد أن يختبر ثقة من كانوا قد عرفوه على مدى أربعين عاماً من حياته بسؤالهم إن كانوا سيصدقونه إن أخبرهم بأن جيشاً كان قادماً من الجانب الآخر للجبل. فأجاب أحد المستمعين قائلاً: "**ما عهدنا عليك** ..." ولم يخالفه الرأي أو يعترض عليه أحد.

وعندما اتبع محمد هذا الاقتراع على الثقة بإعلان نبوّته، رد الناس بإنكار الرسالة، لكنهم لم ينكروا أمانته.[١٩٨]

كيف لنا أن نفهم هذا؟ دعونا نسأل أبا جهل.

كان أبو جهل واحداً من ألدّ أعداء محمد ورسالة الإسلام .. الرجل الذي أقسم ذات مرة بأن يقتل محمداً بفضخ رأسه بحجر (ثم باءت محاولته بالفشل)، الرجل الذي ارتكب أعمالاً وحشية بحق أتباع محمد إلى الحد الذي قتل فيه امرأة لا حول لها ولا قوة، وهي سُميّة، وذلك بطعنها برمح في وسطها بوحشية مروعة. إنه الرجل الذي حارب المسلمين في معركة بدر وقُتل فيها.

كان أبو جهل إذاً معارضاً شرساً لمحمد وأتباعه.

ومع ذلك فقد روي أنه أنكر صحة رسالة محمد، ولكن ليس أمانته

---

١٩٨. رواه البخاري ومسلم

قائلاً بأنه "لا يتهمه بالكذب، ولكن يكذّب بما جاء به".[١٩٩]

وبعد هذا التناقض في آراء أبي جهل نزلت الآية: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٦: ٣٣).[٢٠٠]

ومن المهم أن نذكر أنه ربما كانت هذه الآيات أسهل شيء كان يمكن للمشركين أن يجادلوا به، إلا أن أحداً منهم لم يفعل ذلك قط.

إذاً كيف سار مثل هذا الاتهام المربك؟ من المؤكد أنه سار مسافة تتجاوز جرح أُبَيّ بن خلف.

وهاكم القصة: فقد هدد أُبَيّ بن خلف محمداً ذات مرة بأنه سوف يقتله. وفي المقابل، صححه محمد قائلاً بأنه هو من سوف يقتل أُبيّاً. وعندما تقابل الاثنان في معركة أحد، أصيب أُبيّ بجرح بدا أنه لا يعدوا أن يكون خدشاً طفيفاً في العنق. ومع ذلك فقد كانت ثقته بأمانة رجل لم يسمع منه كذباً قط، ولم ير وعداً منه إلا تحقق كانت كبيرة حتى قال لأصحابه: "إنه (أي محمد) قد كان قال لي بمكة: أنا من سوف يقتلك. فوالله لو بصق عليّ لقتلني."

---

١٩٩. رواه الترمذي

٢٠٠. Sahih International Version. 1997. Abu-Qasim Publishing House. Jeddah. Saudi Arabia.

مات أُبَيّ بن خلف، ولعل جرحه كان أعمق مما نقل عنه، أو ربما مات متأثراً بجرح داخلي غير مرئي، أو بسبب الرعب. وأيهما كان السبب، فهناك أمران لا خلاف عليهما، الأول أن محمداً قد قتله كما وعد، والثاني هو أن اقتناع أُبيّ بصدق قسم محمد كان راسخاً حتى إن الناس عزوا شدة إصابته إلى عمق ثقته بوعد محمد، لا إلى الجرح، لأنهم قالوا له "ذهب والله فؤادك والله إن بك من بأس".[٢٠١] وهكذا مات أُبيّ.

هل كان هذا حادثاً منفصلاً؟

بالطبع لا.

وفي مناسبة أخرى أساء مشرك يُدعى عتيبة بن أبي لهب معاملة النبي شفوياً وجسدياً متوجاً ذلك بجذب النبي بشدة حتى قدّ قميصه، ومحاولة البصق في وجهه. فدعا محمد قائلاً: "اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك".

وبعد مضي بعض الوقت، وبينما كان مسافراً إلى الشام مع جماعة من صحبه، شاهدوا أسداً ليس بعيداً عنهم.[٢٠٢] وعندها تذكر عُتيبة كلام محمد، عبّر عن اقتناعه بدعائ محمد عليه قائلاً: "ويل لأخي! هذا الأسد سيفترسني كما دعا محمد لقد قتلني في الشام وهو في مكة". وعلى الرغم من أن عتيبة قد أخذ حذره، لم يهاجم الأسد من الجمع سواه، حيث

---

[٢٠١]. ابن هشام: **السيرة النبوية**

[٢٠٢]. لم يعد هناك أسود أو نمور في الجزيرة العربية، بالرغم من وجودهما هناك في الماضي.

انقضَّ وهشَّ رأسه.[٢٠٣]

ولكن القصة الأكثر وقعاً هي ماورد في صحيح البخاري، أكثر كتب الحديث احتراماً وأوثقها دقة،[٢٠٤] م.ت. وهو الحديث الذي دار بين أبي سفيان وهرقل، عظيم الروم. وكان أبو سفيان من ألدّ أعداء محمد، ذلك أنه قبل فتح المسلمين لمكة كان عضواً في تحالف النخبة الثرية القوية القرشية التي نذرت نفسها لتشويه سمعة محمد والقضاء على رسالة الإسلام. كان أبو سفيان واحداً من الرجال الذين لم يدخروا جهداً ولم يدعوا سبيلاً وإن كان دنيئاً في سبيل إعاقة انتشار الإسلام. ومع ذلك وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا ليحجموا عن الكذب عن محمد كلما كان بوسعهم، إلا أنهم كانوا يلوذون بالصمت حيال ذاك الكذب عندما كانت تفضحهم ألسنة قومهم. فعرب مكة كانوا يعرفون شخصية محمد حق المعرفة، وبالتالي كانوا ينبذون كلّ افتراء حولها.

وعلى خلاف من يفتري على محمد اليوم (ممن يعرف القليل أو لا يعرف شيئاً)، فإن أولئك الذين عاشوا معه، وصاحبوه، وتحدثوا إليه، وتعاملوا معه في مختلف القضايا، أو لنقل باختصار: أولئك الذين عرفوه من خلال علاقات حميمية دامت طويلاً، رفضوا أن يصموه بالكاذب.

وإليكم الرواية كماوردت في صحيح البخاري:

---

٢٠٣. *Tafheem -ul- Qur'an*.

٢٠٤. **صحيح مسلم** هو الكتاب الثاني في الحديث وقد جمعه مسلم بن الحجاج.

أرسل النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه للإسلام. وكان حامل الكتاب دحية الكلبي الذي أمره النبي بتسليمه لعظيم بصرى الذي سيسلمه بدوره إلى هرقل الذي كان قد سار من حمص إلى إيلياء (القدس) شكراً لله أن نصره على قوات الفرس.

وعندما وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل، وبعد قراءته قال: "ابحثوا لي عن رجل من قوم محمد كي أسأله عنه. وفي ذلك الوقت كان أبو سفيان في الشام مع ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مهادناً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه [هرقل] وهو بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا تَرْجُمانَه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: قلتُ: أنا أقربهم نسباً. قال فما درجة قرابتك منه؟ قال هو ابن عمي ولايوجد في الركب من بني عبد مناف غيري.[(٢٠٥) م.ت] قال: أدْنوه مني، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبَني فكذِّبوه قال: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عليه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نَسَبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال فهل كان من آبائه من مَلِك؟ قلت: لا، قال: فأشراف

---

[٢٠٥]. بنو عبد مناف هي قبيلة محمد

الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة ما ندري ما هو فاعل فيها — قال: ولم تمكنّي كلمة أُدْخِل فيها شيئاً غير هذه الكلمة — قال: فهل قاتلتموه، قلت: نعم! قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجال ينال منا وننال منه، قال ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصّلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه؟ فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد فيكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلتُ: رجل يتأسّى بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم

ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتمّ، وسألتك: أيرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقوله حقاً فسيملك موضع قدميّ هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أنّي أخلُص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلْت عن قدميه. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات... فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت ثم اطّلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبُت مُلْككم فتبايعوا لهذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: رُدّوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.[٢٠٦]

الحديث أعلاه حديث طويل، ويستفاد منه دروس كثيرة. وفيما يتعلق

---

[٢٠٦]. صحيح البخاري

بموضوعنا الحالي فهناك نقطتان جليّتان، أولاهما أن أعداء محمد شهدوا بصدقه. فلم يؤكد أبو سفيان أمانة محمد فحسب، بل إن أحداً من أصحابه الكفار الواقفين وراءه وفق ما أمرهم هرقل لم يناقض ما قاله.

ولكن مامدى احتمالية ذلك؟ لقد كان محمد يدعو هرقل، حاكم إحدى أعظم القوى في العالم للدخول في دين الله. ولو أن هرقل اعتنق الإسلام لكان سار بجيشه على قريش كما تسير العربة المدحلة على النمل. ومما لاشك فيه أن موقف أبي سفيان ورفاقه كان موقف استماتة ضد محمد ورسالته. ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وعلينا أن نسأل عن السبب الكامن وراء ذلك إن لم يكن غير مجرد الصدق في القول.

والنقطة الثانية الملفتة للنظر هي التناقض المتكرر في موقف القريشيين الفريد بين الاعتراف بأمانة رجل ورفض رسالته في آن معاً. فمن ناحية قال هرقل: "... فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ..."،"... وكذلك الرسل لا يغدرون..."، ومن ناحية أخرى، عندما رأى هرقل بذور الشقاق في مجلسه .. "تخلى عن موقفه...".

فها هو ذا رجل لم يعترف بدلائل قول محمد النبوة فحسب، بل إنه قدم تعليله وتحليله للحضور. لكن عندما وُضع على المحك، رفض الرسالة نزولاً عند مصالحه الدنيوية، فقد وقع ضحية للتناقض ذاته الذي حدّده هو.

ونقع على هذا التناقض المذكور أعلاه في العديد من المناسبات، ومن

الحالات تلك غير المشهورة قصة صفية بنت حُيَيْ بن أخطب، التي روت أن أباها وعمها، أبا ياسر بن أخطب (وهما من زعماء اليهود في ذلك الوقت) ذهبا لزيارة محمد عندما نزل قباء، وكان عند بني عمرو بن عَوْف. وقالت:

فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالَّيْن كسلانَيْن ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فَهَشِشْتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمّ. قالت: وسمعت عمّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حييّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتُثْبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.(٢٠٧)

نعم، إن لهذا الحديث معنى، فمحمد هو النبي الموعود، ولابد أن نمقته. إنها ليست المرة الأولى التي تقع الحقيقة فيها ضحية لما يريح الآخرين. إلا أن النقطة الهامة هنا هي أنه حتى أولئك الذين كانوا يكرهون محمداً كانوا يشهدون بصدقه وأمانته.

وقد أورد القرآن الكريم ذكر هذا التناقض؛ لأن الكافرين ذُكِّروا بأنهم كانوا شهداء على أمانة محمد طوال حياته، ومع ذلك كذبوا الوحي الذي أنزل عليه. يقول تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ

٢٠٧. ابن هشام: **السيرة النبوية**

أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (القرآن الكريم ١٠: ١٦). كما أن الله واسى محمداً بالآية: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾. (القرآن الكريم ٦: ٣٣).

والجدير بالذكر أن ليس هناك أحد ممن يعرف محمداً وأنكر هذه الآية القرآنية. ولنقتطف ثانية من **الموسوعة الكاثوليكية الجديدة**: "كان أعداؤه، ومنهم اليهود والنصارى، يترقبون كلّ مؤشر على الخداع؛ وقد تمكن محمد من الفلاح في فرض موقف راسخ إزاء كلّ اتهامات من ذلك النوع"[٢٠٨]

٢٠٨. *New Catholic Encyclopedia*. Vol.7. p.677

# ٤ : المثابرة والثبات

**يُبغض الله سبحانه الانهزامي.**

صموئيل فِسِندن Samuel Fessenden، **الميثاق الوطني الجمهوري**، ١٨٩٦

كان الثبات أمام الشدائد جميعاً هي مايميز الأنبياء جميعاً. فسواء اسْتُهزِئ بهم لصنع الفُلْك في صحراء يباب، أو المعاناة من مِحَن مواجهة فرعون وجنده شديدي العداوة، وسواء كُذِّبوا، وامتُهنوا، وضُربوا من قبل أن يُبلِّغوا الرسالة، فإن المعاناة التي مرّوا بها خلال تبليغ الوحي كانت أعظم من تلك التي يمكن لمدَّعٍ أن يتحملها. ولذلك تُلقي مثابرة الأنبياء الرائعة بثوب من المصداقية على زعمهم بأنهم أنبياء اختيروا لتنفيذ غاية سماوية.

والتاريخ يقول إن محمداً كان عضواً في هذه الشراكة النبيلة من الأنبياء. فعلى مدار ثلاثة وعشرين عاماً بلّغ وحياً وأغضب أعداء كان من شأنهم أن عزلوا المؤمنين من أتباعه، وأهانوهم، وهاجموهم، وعذّبوهم، بل قتلوا بعضهم. بل إن محمداً نفسه هُدِّد، وأهين، وضُرب، وقُذف بالحجارة، وأقصي عن موطنه ومدينته. وقضت امرأته المحبوبة في الحصار الذي فرضه عليهم زعماء مكة، كما كان هناك عدة محاولات لاغتياله. ومع ذلك وعبر

فترات الشدة والمعاناة كافة كان محمد يثابر على قيام الليل إلى أن اشتكى بدنه.

وعندما نزلت الآية القرآنية التالية. ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (القرآن الكريم ٤٨ : ٢) تبشر محمداً أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ماذا كان رد محمد؟

هل أخلد إلى الراحة والدّعة؟

على الإطلاق. فعلى الرغم من ضمانه لدخول الجنة اعتاد محمد أن يقوم ثلثيْ الليل متهجّداً حتى تفطّرت قدماه. وعندما كان يُسْأل: "ألم يُغفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر"؟ كان محمد يجيب: "أفلا أكون عبداً شكوراً؟"[٢٠٩]

أما الدّجالون فيعفون أنفسهم من القيام بأعباء العبادة وتكاليفها زاعمين دعماً إلهيّاً. وأما محمد فلا ينتمي لهؤلاء على كلّ حال من الأحوال، ولكم عانى – شأنه شأن من سبقه من الأنبياء – في سبيل إبلاغ رسالة الوحي التي أبلغها بكل صدق وأمانة منذ بدء نزولها إلى أن لقي ربه.

وبالمثل، فإنه ليس ثمة نبي صادق أساء استخدام مكانته لأغراضه

---

[٢٠٩]. رواه البخاري

الشخصية. كما لم يقل نبي صادق أنه كان أكثر من مجرد بشر. وكما بيّنّا في **"من فقدوا الله"** فإن تأليه عيسى لم يكن من صنعه هو، بل صنيع من ضلّ بعده. وقد كان محمد مدركاً لهذا الخطر، ولذلك اتخذ التدابير كافة لمنع حدوث مثل ذلك الانحراف في أذهان أتباعه. فلم يكن يشجّع على معاملات التفضيل وكان يستجيب لإيماءات الاحترام المميّزة بتواضع غير معهود. وقد روى خادمه أنس عنه:

"لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ كانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك".

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له: "ياخير البرية". فقال رسول الله "ذاك إبراهيم عليه السلام".[٢١٠]

وفي مناسبة أخرى عندما قال رجل لمحمد: "شاء الله وشئتَ..." في أحد الأمور، فغضب محمد وردّ بالقول: "أجعلتني نداً لله؟"[٢١١]. لقد أوضح الرسول الفرق بينه وبين الله. وقد ثبت أنّ محمداً قال: "لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. فما أنا إلا عبد الله. فقولوا: "عبد الله ورسوله".[٢١٢] وقد استمر في نهجه ذاك حتى فارق الدنيا، وعندما كان يحتضر في مرضه الأخير، ذكّر محمد أصحابه بالتمسك بواجباتهم الدينية،

---

٢١٠. **رواه مسلم**

٢١١. المرجع السابق

٢١٢. رواه البخاري ومسلم

وحذّرهم من أن يتخذوا قبره مصلى.[٢١٣]

ثم وقعت أحداث أخرى عديدة في حياة محمد وجميعها تبيّن تواضعه. ففي حدث جَلَل كان هناك كسوف للشمس في اليوم الذي توفي فيه إبراهيم ولده. فلاحظ الناس التوافق بينهما، وانطلاقاً من محبتهم للنبي أخذوا بالقول: "إن الشمس كسفت لموت إبراهيم".

فماذا كان جوابه؟

مهلاً، دعونا نفكّر بالأمر.

ونسأل مالذي كان يمكن للدجال أن يقوله في مثل هذه الحالة؟ فالكاذبون والمحتالون يغتنمون مثل هذه الفرص ويسخرونها لخدمة أغراضهم الخاصة.

وعلى النقيض من هذا، فقد نصح محمد أتباعه قائلاً: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لاينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فكبّروا وادعوا الله وصلّوا وتصدّقوا".[٢١٤]

حسناً، ولكن مهلاً. ماذا كان يمكن للكذاب أو صاحب الضلالة أن يفعل هنا؟ التوقع المعقول هو أن يجيل النظر في الموقف "نعم، لقد كسفت الشمس لموت ابني، وكل ماعليكم فعله هو أن ندفنه، ثم نجود بالمال في سبيله". فلو كان ثمة مناسبة أراد محمد فيها اغتنام الفرصة لتعظيم نفسه،

---

٢١٣. صحيح البخاري وموطّأ الإمام مالك

٢١٤. رواه البخاري ومسلم

لكانت هذه هي الفرصة. ولكن محمداً لا يفعل ذلك، فقد اغتنمها لا لتعظيم نفسه، بل لتعظيم الله.

بل لقد كان من دأب محمد أن يقلل من شأن نفسه في أعين أصحابه معلماً إياهم: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ ... ﴾ (القرآن الكريم ٦: ٥٠)، و ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ... ﴾ (القرآن الكريم ٣: ١٤٤).

ونصادف العديد من الظروف التي كان يمكن فيها لمحمد أن يسعى لتحقيق مآرب شخصية لو كان عنده مثل تلك الميول أصلاً. فبعد عقد من الإبعاد، عاد الجيش المسلم إلى مكة فاتحاً دونما إراقة قطرة من الدم .. وبالطبع، فقد طلب القوم الصفح.

ضع نفسك في الصورة، ماذا تفعل؟

ماذا تفعل ومشركو مكة يُنزلون شتى صنوف العذاب بأتباعك ضرباً وتعذيباً وقتلاً لمدة تزيد على العشرين عام؟ ماذا تفعل وقد كانوا يشنّون عليك الحرب لعشر سنوات كاملة متواصلة؟ ماذا تفعل وقد أجاع هؤلاء العديد من المسلمين ومن بينهم زوجك الغالية على قلبك؟ وقتلوا عمّك في المعركة – لابأس في معركة القتال – ولكن لماذا تشويه جثته ومضغ كبده؟ ماذا تفعل وقد نكثوا عهداً وقّعوه معك وقتّلوا أتباعك؟ ماذا تفعل وقد

اعتدوا على شخصك بأن ضربوك، وأجاعوك، وقذفوك بالحجارة حتى أدميت قدماك، وألقوا بأحشاء الجيفة على رأسك وأنت ساجد في الصلاة، وحاولوا اغتيالك مرات عدة، وأخرجوك من وطنك، ثم أبعدوك عن أهلك ووطنك؟ هذا إن كان لنا أن ننسى الإهانات، والافتراءات، والإذلال التي هي أشد إيلاماً من الطعن بالنسبة للبدوي.

كل هذا يفعل بك ولمدة **عشرين عاماً**. أما وقد ملكت اليد العليا فماذا تفعل؟

حسناً، لنقل لست بالرجل المنتقم، بل أنت إنسان ظريفٌ جداً ورقيق المشاعر ورومانسي. ولنقل أنت في برجك العاجي وبيدك كأس شراب مثلوجة، بينما أنت تستمتع بموسيقا هادئة .. وأنك لايمكن لك أن تضع نفسك في مثل تلك الحال.

ولكن لتعلم أن أقوام ذاك الزمان كانوا يردّون الصاع صاعين. لقد كان زمان انتشرت فيه الجريمة، والسرقة، والاغتصاب، وتسوية المنازل بالأرض في الحروب، وتكديس الجماجم في ساحات المدن كمفخرة بعد الانتصار. فذلك كان المعيار في ذلك الزمان وإن لم يكن هناك ثأر أو انتقام. "أمِثْلك قتل امرأتي وعمّي وأتباعي، ونهب الوطن والمنازل والممتلكات، وتجرّأ على إهانتي؟" أما وقد مالت الكفة الآن فإن المواقف لن تخرق التوقعات العقلانية في كلّ حال من الأحوال. فالانتقام لن يكون أمراً مفهوماً وحسب، بل متوقعاً إن لم يكن واجباً.

ولكن محمداً لم يكن بالرجل الذي يندفع نحو العنف أو الثأر. ولا من صنف الرجال الذين يسيرون تبعاً لعواطفهم، بل وفق لمبادئهم السامية. فعلى الرغم من قائمة الأعمال الفظيعة التي ارتُكبت بحقه والتي تستوجب رد العقوبة المبرر، أظهر صبراً وكرماً ينمّان عن صدق بعثته النبوية. فبقياس جوده وكرمه مقابل جود الفاتحين الآخرين في زمانه وكرمهم، فإننا نقدّر لماذا اعتنق سكان مكة الإسلام أفواجاً دون أدنى إكراه أو إرغام.

ويبرهن على صدق هذا الاعتناق الشعبي الكامل لأهل مكة هو أن أحداً منهم لم يرتدّ عن دينه عندما توفي النبي بعد ذلك بوقت قصير.

وهنا يحضرنا تعليقان تقليديان يلخصّان هذا الحدث على النحو التالي:

> كان يوم أعظم انتصار لمحمد على أعدائه يوم أعظم انتصار لمحمد على نفسه أيضاً. فقد صفح لقريش عن كل سنوات الأسى والازدراء اللذين كانا قد لحقا به دون مقابل، ومنح عفواً عاماً لأهل مكة بأسرها. وعندما دخل محمد فاتحاً لمدينة ألدّ خصومه كان على رأس القائمة أربعة من المجرمين مدانين للعدالة. واقتدى الجيش بمحمد، فدخل بهدوء وسلام؛ فلم يسلب بيت، ولا مُسّت امرأة. وكان هناك شيء واحد لحقه الدمار وهو الأصنام: فعندما توجه محمد صوب الكعبة وقف أمام كل واحد من الأصنام الثلاثمائة والستين، وأشار إليها بعصاه قائلاً: "جاء الحق وزهق الباطل!" ومع ترديده لهذه الكلمات كان أتباعه يهوون بمعاولهم على الأصنام الواحد تلو الآخر، إلى أن تحطمت

جميع أصنام مكة وما حولها.

هكذا دخل محمد مدينته الأم من جديد. ليس هناك في سجلات التاريخ كله لقائد دخل البلاد منتصراً يمكن أن يقارن دخوله بمثل هذا الدخول.

وسرعان ما انضوت الجزيرة العربية بأسرها تحت إمرته إثر فتحه لمكة.[٢١٥]

وهذا التعليق التالي يتمثّل في هذا الاقتباس من كتاب آرثر غيلمان Arthur Gilman **عرب الشرق المسلمين** *The Saracens* :

إن مما يُثنى به على محمد ثناء عطراً أنه في هذه المناسبة عندما كان استياؤه ربما قد حثّه بشكل طبيعي على الانتقام، أنه منع جيشه من سفك الدماء بجميع أنواعه، وأبدى علامات التواضع كافة، كما أبدى الشكر لله على فضله ...

كان أول ما فعله النبي إتلاف صور الأصنام حول الكعبة، وبعد إتمام ذلك أمر مؤذنه العتيق برفع الأذان للصلاة من على الكعبة، وبعث منادياً يجوب الشوارع ليأمر الناس بتحطيم كل الصور التي ربما كانت في حوزتهم.

كان هناك عشرة أو اثنا عشر رجلاً ممن صدر عنهم تصرفات وحشية على قائمة الإعدام، وقد أعدم أربعة منهم،

---

٢١٥. Lane-Poole, Stanley, Introduction. pp.46-47

لكن يجب اعتبار ذلك قمة في الإنسانية، مقارنة بأفعال الفاتحين الآخرين؛ مقارنة مثالاً بقسوة الصليبيين الذين أعدموا في العام ١٠٩٩ ميلادية سبعين ألف مسلم من الرجال والنساء الأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة عندما سقطت القدس في أيديهم، أو مقارنة بالجيش البريطاني، الذي كان يحارب تحت راية الصليب والذي أحرق في السنة الميلادية ١٨٧٤ عاصمة إفريقية في حربه على ساحل الذهب. أما انتصار محمد فقد كان حقاً انتصاراً للدين لا للسياسة، فقد رفض صنوف التقديس الشخصي كافة، ورفض تولي كلّ سلطة ملكية؛ وعندما وقف أمامه عِلْية القوم من قريش سألهم:

- "ما تظنون أني فاعل بكم؟"
- "أخ كريم، وابن أخ كريم"
- "اذهبوا فأنتم الطلقاء". (٢١٦)

لعل أعظم مثال على رفض محمد للمهادنة في بعثته من أجل الإمتاع الذاتي ما يلي: على الرغم من أنه ذهب عنه الثراء، والقوة، والمكانة الاجتماعية المرموقة في وقت مبكر من فترة نبوّته، فقد رفض محمد العودة إلى مثل ذلك المركز في سبيل الدعوة. ففي وقت التعذيب، والامتهان. أهاب عمّه أبو طالب به أن يترك هذا الأمر، فأجاب محمد: "يا عم! والله

---

٢١٦ Gilman, Arthur, M.A. 1908. *The Saracens*. New York: G.P. Putnam's. Sons. pp.184-185PP .

لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته."[٢١٧] وقد جاء اختبار تلك المقولة بعد ذلك بقليل عندما كان عتبة بن ربيعة يتحدث نيابة عن مشركي قريش، وعرض على محمد أشبه ما يكون بفدية تمثّلت بالكلمات التالية:

> إن كنت (يامحمد) تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك منه.[٢١٨]

إن رفض محمد لهذا العرض لا يشهد وحسب على إخلاصه غير الأناني، بل إنه أثار السؤال المزعج، عندما يوجه لمن اختاروا عدم الإيمان به: لماذا إذاً تعرّض محمد للتعذيب والإساءات، إن لم يكن ذلك من أجل الثروة والمُلْك؟ الجواب، بالنسبة للمسلمين، إنه جاهد لا من أجل مُتَع هذه الدنيا، بل من أجل ثواب الآخرة.

بعد مضي عشر سنوات، فتح المسلمون مكة وأخضعوا السكان ذاتهم الذين كانوا عرضوا على محمد الثروة والمُلْك.

---

[٢١٧]. ابن هشام: **السيرة النبوية**

[٢١٨]. ابن هشام: **السيرة النبوية**. و**مسند** أبو يعلا

إذاً ما الهدف؟ هل هو أن محمداً لم يقبل بمالِهِمْ وعرشهم قبل هذا بعقد من الزمان ودون تبعات دنيوية، بل شعر بأن عليه أن يمضي بقية عمره في حرمان وحروب لكي يحوزهما؟

كلا.

بل الغاية هي أن محمداً لم يقاتل في سبيل تأسيس ملك أو سلطة، بل في سبيل الدّين. فلو أراد المال أو الملك لكان قَبِل عرض زعماء قريش منذ زمن بعيد. ولكن تبعة مثل ذلك القبول هو التخلي عن الوحي والدعوة. وبدلاً من ذلك، قاتل في سبيل إعلاء كلمة الله، وهو بهذا قد حقق النصر في النهاية للإسلام ولنفسه.

هل هذه نهاية القصة؟

كلا. فالمهم هنا هو ما تحقق لاحقاً.

ففي الوقت الذي يمكن لكلّ دجال حاز السلطة وقد استتبّ الأمر له، أن يبدأ باختلاق آيات تميل إلى الإشباع الذاتي، وتنصيب نفسه حاكماً، لم يفعل محمد شيئاً من هذا القبيل، بل إن مافعله في الواقع كان النقيض تماماً، وهو يتلو الآية القرآنية:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (القرآن الكريم ٥: ٣).

وهذه الاية تشير إلى الاكتمال.. اكتمال أمور كثيرة من بينها

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾. ففي الوقت الذي كان يمكن لكلّ دجّال في العالم أن يعد نفسه أنه استحكم في منصبه كي يبدأ "الإيحاء" بآياته التي من شأنها أن تمجّد نفسه، فإن محمداً جاء بالوحي الذي أتم نعمة الله عليه. ليس ذلك وحسب، بل إنه بلّغ الوحي الذي يأمره: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (القرآن الكريم ١١٠: ٣).

وقد نزلت هذه الآية الأخيرة قبل انتقال محمد إلى الدار الآخرة بتسع ليال.[٢١٩] ومن المؤكد أنه لم يكن يتوقع موته بالوسائل الدنيوية. بمعنى آخر، فلو لم يكن نبيّاً ماكان له أن يدرك قرب أجله. ولكن بما أنه كان نبياً، فقد عرف بدنو أجله عبر الوحي وهذا مايؤكد حقيقة نبوءته.

ولكن النقطة هي على الشكل التالي: أن آخر آيات الوحي التي نزلت على محمد تؤكد على صدقه وإخلاصه. فبدلاً من أن يتحدث عن تركته لأسرته وأحبائه، وبدلاً من تطعيم الوحي بآية أخيرة عن حكمته الشخصية أو فلسفته الخالدة، وبدلاً من تعظيم نفسه، وإصدار وعد بالخلاص، وجّهت الآية الأخيرة التي نزلت في القرآن الكريم الرسول بالآتي:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ

---

٢١٩. Qadhi, Abu Ammaar Yasir. 1999. *An Introduction to the Science of the Qur'an*. Bismingham: Al-Hidaayah Publishing. p.94.

نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢: ٢٨١).

وفي حين ينعم الفاتحون الآخرون في شأوٍ من تمجيد الذات ويموتون بسموم إسرافهم، فقد نقل محمد سلسلة من الآيات التي تأمره بتمجيد الخالق والسعي في طلب غفرانه. وقد مات محمد كما كان قد عاش: فقيراً في شؤونه الدنيوية ولكنه ثري في أموره الدينية. ولم يصاحب موته شيء من أهواء تمجيد الذات، أو إشباع الشهوات التي كانت مكبوتة لفترة طويلة، أو التعطش للانتقام. بل إن محمداً مات ولم يكن ثرياً إلا بالصدق والتقوى وهي العلامات المميزة التي صاحبت حياته طوال الأعوام الثلاثة والعشرين من فترة نبوءته.

ونختم هذا الفصل بالثناء الذي قدّمه ثلاثة من مشاهير الكتّاب، وأولهم الاشتراكي socialist البريطاني هـ. م. هايندمان H.M.Hyndman، إذ يقول:

حتّى اليوم مع كل تفاصيل الفترة الأولى من حياة محمد وبعثته اللاحقة التي تكشّفت لأبناء جنسنا، الذين درسوا قصة ذلك الرجل العربي النبيل الاستثنائية برمّتها، فليس بالأمر الهيّن أن نفهم شخصيته أو نعلّل النجاح الرائع الذي حققه محمد في الجزء الأول من القرن السابع. فنبي الله هذا نفسه، الذي لم يزعم قط امتلاكه قوى ربانية في كلّ فترة من فترات بعثته، أسلم على يده

أول ما أسلم بعض المقربين من أسرته، واستطاع، بعد أن كاد يخفق إخفاقاً ذريعاً، أن يَسُود طبقته الأرستقراطية، وكان له تأثير شخصي كبير على كل مَنْ التقاهم. ولم يحدث أبداً أن اشتكى خيانة من قد دخلوا في دينه لا عندما عضّه ناب الفقر وكان مطارداً، ولا في أوج ازدهاره. حتى إن ثقته بنفسه وبالوحي السماوي كانت أعظم عندما كان يعاني من خيبة الأمل والهزيمة منها عندما كان قادراً على إملاء شروطه على أعدائه المهزومين. وقد قضى محمد تماماً كما كان قد عاش، يحيط به أتباعه الأُوَل، وأصدقاؤه، وأنصاره: لم يكن يكتنف وفاته غموض كما لم يكتنف حياته.(٢٢٠)

والثناء التالي لـ واشنتون إيرفنغ Washington Irving كاتب المقال، والسير والمؤلف الأمريكي المعروف في كتابه **محمد وأتباعه** *Mahomet and His Successors*:

وفي ساعة الاحتضار الأخيرة أيضاً، عندما لم يتبق دافع دنيوي للخداع، بقي يَنْفَح الورع الديني ذاته، والإيمان ذاته ببعثته النبوية.(**٢٢١**)

وأخيراً نقرأ هنا ثناء توماس كارلايل Thomas Carlyle الذي عبّر عن

---

٢٢٠ Hyndman, H.M. 1919. *The Awakening of Asia*. New York: Boni and Liveright. p.9 .

٢٢١ .Irving, Washington Vol.1. p.345.

انطباعاته عن محمد بقوله:

كلماته الأخيرة كانت دعاء؛ هتاف متهدِّج لقلب يشق طريقه، بأملٍ واجف، نحو خالقه ... فقد توجه للمرة الأخيرة إلى المسجد، قبل يومين من قبضه؛ وسأل إن كان قد أضر بأحد؟ فليجلد ظهري. وإذا كان مديناً لأحد؟ فأجاب صوت: "إن لي عندك ثلاثة دراهم" استدنتها في مناسبة كذا وكذا. فأمر محمدٌ بدفعها لأنه —كما قال— خيرٌ له أن يدفعها الآن من دفعها يوم الحساب. فسمات من ذلك النوع تبدي لنا الرجل الأصيل، إنه أخونا جميعاً إذْ تتكشف لنا صفاته خلال اثنى عشر قرناً ...(٢٢٢)

---

٢٢٢. Carlyle, Thomas. pp.115-116

## ٥: انتفاء مُسقِطات الأهليّة

**نبحث في الفحم عن الماس، وحالما نجده ترانا نفتش في عيوبه.**

L. Brown لورانس براون

إن الأنبياء الحقيقيين أندر من الماس، ولكنهم كالماس لا نتوقع فيهم الكمال. فمن المؤكد أن نتوقع أن يكون الأنبياء بشراً، بشر كاملين ولكن لابد من وقوعهم في بعض الآثام العرضية وارتكابهم لأخطاء في الحكم. ولانتوقع منهم أن يكونوا ملائكة .. إنهم محض بشر ولكنهم خير بني البشر.

ولكن ما لانستطيع تقبله هو الدّجالون الذين يدّعون القداسة، ويتلاعبون بالوحي في سبيل تحقيق مكاسب شخصية، أو الذين تظهر عليهم أمارات من عدم الموثوقية كالكذب أو الخلل العقلي. غير أننا نميل ميلاً غريزياً نحو عدم الموثوقية بمثل كل هؤلاء المدّعين.

وكما رأينا، فإنه لم تظهر على محمد شيءٌ من تلك الأمارات الكاذبة، فهو لم يدّعِ القداسة ولم يتلاعب بالوحي، ولم يُعرف عنه يوماً قط أنه كذب ولو كذبة واحدة. فكيف لنا أن نتحدّى قول محمد بالنبوة؟

مما لاشك فيه أن هذا سؤال صعب. فالأدلة تدفع بنا للتخلي عن مزاعم الصّرع، والكذب، والخداع التي وُجّهت إليه. ما الاحتمالات المتبقية لدينا إذاً؟ في الواقع ليس الكثير ... هذا إن بقي شيء أصلاً. وإذا مابقي شيء حقاً فإنه احتمال غير ملموس. وبما أن الاتهامات العلنية الصارخة أمكن تفنيدها بسهولة، فإن أولئك الذين هاجموا شخص محمد لم يبق لهم من جانب يتلاعبون فيه سوى المسائل العاطفية والتي ليس من شأنها البتة أن تثبت أو تنفي مزاعم كلّ إنسان يزعم النبوّة.

فبعض هذه المسائل، قولهم إن محمداً اقترف آثاماً (وهي ذنوب صغيرة وليست من الكبائر أبداً)، صحيحة، في حين أن القول بأنه ارتكب معاصي مثل فرية أنه كان شهوانياً، أو أنه كان مدفوعاً بدافع من الجوع إلى الملذات الحسية هي غير صحيحة، وهذا ما سنراه عما قريب. وفي كلتا الحالتين أن المناقشة العاطفية تتلخص في اتهام نقّاده له بأنه لم يكن أهلاً للنبوة لأنه ارتكب الزنى، وشنّ الحروب، وأقرّ بتعدد الزوجات، وأرغم النساء أن يغطّين رؤوسهن، وحرّم شرب الخمر، وما إلى ذلك.

ونقول: ياللمفاجأة، فالناس لايحبّون أفعاله، أو ... لا يحبون الوحي الذي جاء به من عند الله! ولكن مهلاً، أليس ذلك هو مانتوقعه من معظم الناس كردة فعل حيال النبي الصادق؟ ألم يقابل أنبياء الله الصادقين كافة بالعصيان أكثر مما يقابلون بالطاعة؟ فالحقيقة هي أن جميع الأنبياء الحقيقيين تقريباً قد نبذتهم الغالبية العظمى من شعوبهم في البداية. فلا عجب إذاً أن يُعرف الدجال بِسِماته وهي كسب الأتباع عن طريق

إبلاغهم مايحبون أن يسمعوه، وهذه أمور تتنافى وعلامات النبي الصادق. ولنسأل أنفسنا السؤال الهام وهو: لماذا أرسل الله الرسل أصلاً؟ كي يُربّتوا على كتف كل فرد ويقولوا لهم إنهم ماضون في الطريق الصحيح؟ أم لكي يأخذوا بيد بني البشر بعيداً عن دروب الغيّ والدنايا إلى درب الاستقامة الذي ارتضاه الله لعباده، شاء من شاء وأبى من أبى؟

وقد لايكون هناك مسائل عاطفية أخرى حيال محمد في الوحي سوى الأمر بالقتال، وحسبُ القرآن الكريم أن يذكر الآية التالية المثيرة للاهتمام: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢: ٢١٦). دعونا نفكر في هذه الآية لنقول: هل ثمة اختبار للحب أعظم من القتال من أجله؟ فالحب يزداد تأصلاً عندما يلتصق أحد بنا بدافع من الحب، سواء أكان أحد الأبوين أم كلاهما، أو الولد، أم الأصدقاء، أم الزوج، أم الزميل. فالقتال هو الامتحان الأعظمي للحب، وسواء أكانت حرب الكلمات كافية في معظم الظروف أم غير كافية، فلا شيء يُظهر الالتزام الصادق أكثر من وضع حياة المرء على المحك.

وعلى نحو مشابه، فإن أنبياء الكتاب المقدس قد قادوا شعوبهم إلى الحرب مرّات ومرّات لا لشيء سوى لإعلاء كلمة الله في الأرض طاعةً له ومحبةً به. فالصليبيون والمستعمرون أعطوا المسيحية حصتها من القتال

زاعمين أنه كان في سبيل الله أيضاً. وربما لم يشن عيسى المسيح حرباً قط، ولكننا نقول إنه لم يكن في وضع يسمح له بذلك. ولكنه كان قد أعلن عن نيَّته للقيام بذلك فيما لو قُدّر له بصراحة قائلاً: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى \الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً» (متى ١٠: ٣٤)، وقوله: «أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئْتُ لأُعْطِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ؟ كَلاَّ أَقُولُ لَكُمْ! بَلِ انْقِسَاماً» (لوقا ١٢: ٥١). وهل كان قول عيسى لأتباعه «... وَمَنْ لَيْسَ لَهُ [سَيْفٌ] فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفاً» (لوقا ٢٢: ٣٧) قولاً من فراغ؟

لقد شُنّت الحروب تحت قيادات حكيمة وغير حكيمة، واستخدمت في سبيل الخير وفي سبيل الشر، وشنت حروب بحق وبغير حق، ولكن القتال كان امتحاناً للمؤمنين في السابق كما أنه امتحان للصالحين اليوم. ومع ذلك تجد أولئك الذين ينفون حقيقة نبوءة محمد بناءً على هذا الأمر الذي هو من أكثر المسائل عاطفية. ولكن أين يضع هذا قائمة أنبياء الكتاب المقدس الطويلة الذين قادوا شعوبهم إلى الحروب في سبيل الله؟

إن أحد الخطابات الجدلية العاطفية الشائعة ضد محمد هي الزعم بأنه قطع رقاب مئات المئات من أعدائه عقب "غزوة الخندق".[(٢٢٣)م.ت.] ولكن مهلاً، هل هو حقاً فعل ذلك؟ دعونا نر السجلات التاريخية مباشرة. فقبل غزوة الخندق وقّع المسلمون معاهدات تعاون مع ثلاث قبائل يهودية

---

٢٢٣. يعتقد بعض المؤرخين أن العدد لم يتجاوز الستمائة، في حين يظن آخرون أن العدد يقارب التسعمائة.

مجاورة. ولكن وخلال وقوع الغزوة، خرق يهود بني قريظة المعاهدة ووفروا ثغرات في حصون المسلمين الدفاعية نفذ عبرها مهاجمو مشركي قريش واستطاعوا أن يشنّوا هجوماً على المسلمين على الجانب غير المحصّن. ولكن الخطة أخفقت وقام المسلمون بحبس بني قريظة لخيانتهم.

فعلى خلاف مايريد المجادلون المسيحيون أن نعتقد، لم يكن محمد إذاً هو من حكم على السجناء هؤلاء بالموت. بل إن بني قريظة طلبوا أن تُحكّم فيهم إحدى القبائل الصديقة. وافق محمد على طلبهم وهو أن يحكم فيهم زعيم قبيلة الأوس سعد بن معاذ. ورضي بنو قريظة لأن قبيلتي بني قريظة والأوس كانتا قبيلتين متحالفتين لأجيال مديدة وكانوا يتوقعون الرأفة منهم. ولكن وخلافاً لتوقعاتهم فقد حكم سعد بن معاذ على رجال بني قريظة بأن تقطع رؤوسهم، وعلى نسائهم وأطفالهم بالسبي. لماذا؟ لأن الحق حق ولا أثر للصداقة في هذا الموضع، وهذا ماكان يحكم به في مثل ذلك الزمان والمكان على الخيانة.[٢٢٤]

ولو قابلنا هذا الحكم بالقانون البريطاني الأحدث فنسأل: لماذا عُدّ الموقعون على إعلان الاستقلال الأمريكي شجعاناً فوق العادة؟ ولماذا كانت ملاحظة بينجامين فرانكلين Benjamin Franklin بارعة في ذاك الموقف حين قال: نعيش جميعاً أو نموت فرادى؟ لأن العقوبة البريطانية للخيانة في ذلك الوقت كانت تقضي بأن يُعلّق الخائنون على أعواد المشنقة

[٢٢٤]. ابن هشام: **السيرة النبوية**

إلى أن يُشرفوا على الموت، ثم يُنْزلوا عنها لتبقر بطونهم وهم أحياء، وتحرق أحشاؤهم أمام أعينهم، ثم يسحلوا ويقطّعوا أربعة أجزاء. ففي هذا السياق يكون قطع الرأس أكثر إنسانية من طريقة التعذيب التي كان يقضي بها " البريطانيون المدافعون عن الإيمان defenders of faith"؟ والمقصود بالإيمان هنا "كنيسة إنجلترة Church of England".

إلى أين يوصلنا هذا؟ إلى المربع الأول وهو أن المسائل العاطفية لايمكن أن نعدها معياراً حقيقياً يمكن من خلاله أن نقوّم قول إنسان ما بالنبوّة. ولو أن محمداً كان حكم على بني قريظة لكان تصرّف وفق المعايير العسكرية التي كانت سائدة في ذلك الوقت. والأهم من ذلك، فإذا كان علينا أن ننفي عن محمد قوله بالنبوة على هذا الأساس، فماذا يمكن لنا أن نقول عن موسى الذي أمر اليهود بقتل من كان بين ظهرانيهم من أبناء جلدتهم الذين اتخذوا العجل إلهاً حينما غاب موسى عنهم لمدة أربعين يوماً من أجل لقاء ربه. وكم كان عدد هؤلاء المهرطقين الذين حكم موسى عليهم بالإعدام؟ لقد كان تعدادهم بالألوف.

ويمكن أن نجد مثالاً أقل دموية على الخدع العاطفية في القرآن الكريم وهو الآية الثانية من سورة الفتح. ويقفز العديد من المنتقدين المسيحيين الذين يحاولون الحط من قيمة القرآن إلى هذه الآية ويشيرون إلى أن محمداً قد ارتكب ذنوباً كثيرة في حين أن المسيح عيسى كان نقياً من الذنوب.

وعلى الشاكلة ذاتها غالباً مايطرح المجادلون المسيحيون مقولتهم العدائية وهي أن إبراهيم، ونوحاً، وموسى، ومحمداً قد ماتوا جميعاً ودفنوا في التراب،

في حين أن المسيح عيسى قد رُفع إلى السماء من بين الأموات.

حسناً .. ولكن ولو كان ذلك وقع حقاً؟ فهذه المجادلات التي تقوم على مقولة "إن نبيّنا أفضل من نبيّكم" تنهار إذا ما عرضت على التحليل العقلي الخالص لأسباب عدة، أولها: أنه ليس هناك في الدين الإسلامي نزاع بين المسيح عيسى ومحمد ... فالإسلام يعترف بهما نبيَّيْن مصطَفَين، حيث بشر السابق بقدوم اللاحق، كما أن التعاليم الخالصة لكليهما هي تعاليم الإسلام (أي أن كلاً منهما قال: الله واحد لاشريك له، وأنا نبي الله بعثني لأبلغكم بشريعته هذه فاتبعوها). والسبب الثاني هو أن المغزى الأخلاقي للمثل الوارد في الكتاب المقدس بشأن الخراف هو:

«مَاذَا تَظُنُّونَ؟ إِنْ كَانَ لإِنْسَانٍ مِئَةُ خَرُوفٍ وَضَلَّ وَاحِدٌ مِنْهَا أَفَلاَ يَتْرُكُ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ عَلَى الْجِبَالِ وَيَذْهَبُ يَطْلُبُ \الضَّالَّ؟ وَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ يَجِدَه فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يَفْرَحُ بِهِ أَكْثَرَ مِنَ التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ الَّتِي لَمْ تَضِلَّ» (متى ١٨:١٢—١٣).

أو كما جاء في لوقا (١٥:٧):

«أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارّاً لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ».

كما نَشْتَقي من حكاية قطعة النقود المفقودة الدرس ذاته: «... هَكَذَا أَقُولُ لَكُمْ يَكُونُ فَرَحٌ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ» (لوقا ١٥:١٠). ثم أوليس الدرس الأخلاقي المستقى من

حكاية الولد المسرف هو ذاته — فهناك ابتهاج أكثر لتوبة الولد الآثم أكثر من الابتهاج لمن لم يضل أبداً كما في لوقا (١٥:١١—٣٢).

لا أدري إذاً ما الغاية من أن المجادلين المسيحيين يصرّون على مقولتهم "إن نبيّنا أفضل من نبيّكم" .. هل هي حسب مقولة أن المسيح كان بلا خطايا؟ ولكن بناء على مغزى أمثال الكتاب المقدس التي ذكرنا للتو، فإن ميزة التفضيل هذه يجب أن تُقلب، وذلك لأنه «أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارّاً لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ».

وأخيراً لم يرد في الكتاب المقدس أن كلّ نبي، يجب أن يكون خالياً من الذنوب أو أنه لن يموت أو يوارى الثرى، وأنه إن لم يكن كذلك فسوف تنزع عنه أهلية النبوة. ومما لا ريب فيه أن المسيح عيسى كان مثالاً يصعب مجاراته، ولكن إذا كان الوقوع في الذنوب، والوفاة، ومُواراة الثرى تنزع أهلية الأنبياء إذا ماتعرضوا لذلك، فإن علينا أن نُجَرّد جميع الأنبياء في الكتاب المقدس أيضاً. وإذا كان الأمر ليس كذلك فما القصد من المجادلة إذاً؟

ومهما يكن فإنه يمكن التحقق من نقطة واحدة وهي أن محمداً قد مضى في مهمته على الرغم من هفواته البشرية، فهو لم يحاول إيجاد الأعذار لأخطائه أو تبريرها أو تنزيه نفسه عمّن حوله من البشر. بل على النقيض من ذلك، حمل رسالة تخلّد هذه الحقائق، ثم واظب بعدها على تبليغ هذه الرسالة سائراً بثبات على نهج السابقين من الأنبياء.

ومثلما لم يَسْعَ محمد قط لتفضيل نبي على آخر، فإنه لم يسعَ كذلك لرفع مكانته فوق مكانة الذين سبقوه من الرسل.

ولكن الوضع ليس كذلك في الديانات الأخرى.

فمبادئ ميمون الثلاثة عشر للعقيدة اليهودية تقول إن موسى أعظم الأنبياء قاطبة.[٢٢٥] وانظر إلى أين أودى ذلك الاعتقاد باليهود: لقد فتنوا بموسى لدرجة أنهم لاينكرون محمداً وحسب، بل ونبيي الله يحي والمسيح بن مريم أيضاً. وفي المقابل، فإن المسيحيين يرفعون عيسى لدرجة الألوهية ويعدّون سلسلسة الأنبياء تنتهي عنده، على الرغم من تنبؤ العهد القديم وعيسى المسيح نفسه بمقدم النبي الخاتم. إن المسألة هنا ليست مسألة قوم لديهم إيمان أعمى بالعقيدة بقدر ماهي مسألة عقيدة أعمت أتباعها.

لقد كان بوسع محمد بهذه المناسبة القيام بمزاعم مماثلة وكان يمكن لأتباعه ببساطة أن يصدّقوها. فقد صدّق هؤلاء محمداً في قوله إنه خاتم النبيين، وكانوا قد شهدوا على سلسلة المعجزات الطويلة التي أجريت على يديه أو حدثت من حوله. فلم يكن من العسير عليه والحالة هذه أن يزعم لنفسه الألوهيه ولم يكن من المستحيل عليهم ألا يصدقوها بل ربما كان شرفاً لهم القيام بذلك. ففي المحصلة كان هؤلاء في السابق يقدّسون الـ ٣٦٠ صنماً حول الكعبة وفي مكة على أنها آلهة تعبد.

---

[٢٢٥]. انظر "**من فقدوا الله**"، القسم الأول، الفصل الأول

ومن العجيب أن العرب في تلك الفترة من الزمان كانوا يصنعون لأنفسهم قوالب من التمر يزعمون أنها آلهة ثم يقومون بالتهامها عندما يجوعون. ولو أن محمداً زعم لنفسه الألوهية، لما توانى هؤلاء القوم عن عبادته.

ولكنه لم يفعل.

وبدلاً من ذلك أبلغهم ما جاء به الوحي من أن الأنبياء جميعاً كانوا رجالاً من البشر ليس لأحد منهم الفضل على الآخر:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٢: ١٣٦).

لعل أكثر الادعاءات شيوعاً بحق محمد أنه كان شهوانياً تسيّره رغباته وأهواؤه. ومن الجدير بالاهتمام أن هذا ادعاء حديث، ذلك أن الكفار المعاصرين لمحمد، على الرغم من تَوْقهم لمهاجمة أخلاقه، رفضوا أن يوجهوا له اتهامات تتناقض والواقع بجلاء.

وعلى الرغم من أن محمداً لم يحرم نفسه من مُتع الحياة الدنيا، لكنه عاش حياة مقتصدة متقشّفة. فقد كان ينفق كل مايتوافر لديه من ثروة، ويهب كل مايهدى إليه من عطايا، وكان يشاطر مايتوافر لديه من طعام.

وقد رفض أُبَّهة النجاح وزخرفه، واضعاً دوماً رغبات أتباعه وحاجاتهم قبل حاجاته. وكان يحب الطيب والعسل، ولكنه كان يستمتع بهما باقتصاد. وفي كلّ حال لم يكن من أحد قط يعوّل على البحث الديني بشأن العسل.

ولكن ماذا عن حبّه الخمرة، والنساء، والغناء؟

لقد كان المجتمع العربي قبل البعثة يبيح الدعارة، وعقود النكاح المؤقت، وتعدد الزوجات غير المحدود. وكانت الخمرة والموسيقا من سمات العصر، كما أن المجتمع برمته كان قد مرد على تعاطي القمار، وإقامة الولائم، والقتال، والتلاعن، والسكر، والكذب، والإباحية، والكسل. ولو أن محمداً كان يرغب بتعاطي هذه الأشياء لحصل عليها دون أدنى مشقة، ولما نبس ببنت شفة عن الوحي. وبدلاً من ذلك، من الصعب أن تجد شيئاً كانت العرب تحبه ولم يحرّمه الإسلام أو يقيّده.

ولنأخذ هذه المسائل الواحدة تلو الأخرى: فقد حُرّمت عقود الزواج اللامحدودة، وقُلّص السماع إلى الموسيقا. كما حرّم الخمر، والميسر، والكذب، والإباحية. واستعيض عن الولائم بالصيام، وعن القتال بالعفو، وعن التلاعن بالدعاء (أي إنك إن لم تحب شيئاً فلا تلعنه؛ لأن اللعن لن يفضي إلى شيء، بل ادع الله أن يبدلك خيراً منه)، وعن الكسل بالقيام بواجب العبادات.

والآن ما الذي بقي؟ تعدد الزوجات؟ إن موضوع كثرة زوجات النبي لم

يكن قضية ذات بال قبل العصور الحديثة، وليس ثمة سبب وجيه لذلك وحسب، بل أسباب عدة.

فبدايةً نقول، لو كان محمد زير نساء لكان ذلك ظهر في شبابه حين تكون شهوة الرجال الجنسية عارمة. ولكن خلال فترة شبابه لم يكن لمحمد سوى امرأة واحدة وهي خديجة. وقد دام زواجهما خمسة وعشرين عاماً، وخلال تلك الفترة كان مخلصاً لها أشد الإخلاص، على الرغم من أنها كانت تكبره بخمس عشرة سنة. إلا أن خصومه يجادلون أنه بدأ عندما بلغ الخمسين من عمره، وبعد أن ولّى عنفوان شبابه، وضع نُصب عينيه الزواج بحشد كبير من النساء.

هل هذا ممكن؟

كلا إنه غير ممكن.

وإن صحّ ذلك التأكيد، فإنه لم يُعَان أحد في تاريخ الإنسانية تلك المعاناة من شيء كان بوسعه الحصول عليه على كلّ حال. لأنه لو كان محمد رغب بذلك لأمكنه الحصول على مايريده من عدد النساء، حتى في شبابه وفقاً لقوانين المجتمع الذي عاش فيه. فقد كان بوسعه ممارسة زنى غير المحصن بحريّة، والتزوج لفترة زمنية معينة للترفيه عن النفس، وكان بوسعه أن يطلق العنان لشهوته في غابة الإباحية الجنسية السائدة في زمنه. ولكنه لم يفعل ذلك. ففي شبابه حتى سن الخامسة والعشرين، وقبل الزواج ظل محصناً على الرغم من الحريات الجنسية التي لابد أنها قد أغرت كلّ رجل

ذي شباب وعنفوان. وبدلاً من ذلك فقد عُرِفَ بضبط النفس والمحافظة.

إذاً لماذا تزوّج محمد بهذا العدد من النساء أخيراً؟

إن السبب الغالب هنا كان لأهداف عملية. فبعض تلك الزيجات كان لتمتين الروابط القبلية، وبعضها كان لإيواء الأرامل والمطلقات، وبعضها الآخر كان لإيضاح حدود الزواج الإسلامية. لم يكن محمد ذلك الحاكم المستبد الذي يصطفي من العذراوات من يشاء لإشباع رغبة شخصية. وعلى العموم، لم تكن زوجات محمد معروفات بالجمال، أو الثراء، أو المركز الاجتماعي المرموق.

بل كان الأمر على نقيض ذلك.

فالزوجة العذراء الوحيدة لديه كانت عائشة.[٢٢٦] أما الأخريات فقد كنّ إما مسنّات، أو مطلقات، أو أرامل، أو كلها مجتمعة. ومثال ذلك، فقد تزوّج محمد بميمونة عندما كانت في الواحدة والخمسين من عمرها. وربما كانت زوجه الأخرى أم سَلَمَة في عمر يناهز عمر والدة ميمونة (أو ربما جدتها إذا أخذنا في الاعتبار السن العام للزواج في مثل ذلك الزمان)، فقد كانت أم سَلَمَة في الثانية والثمانين من عمرها، كما كانت زوجة محمد الأولى خديجة أرملة. وأما زوجه زينب بنت جحش فقد كانت المرأة التي كانت تحمل الوصمة الاجتماعية كونها كانت مطلقة من عبد معتوق. فمن هنا يمكننا أن ننفي أن تعدد الزوجات عند محمد كان بدافع من

---

٢٢٦. Al-Mubarakpuri, Safiur Rahman, pp.483-485

الشهوة الجنسية، ليس فقط للأسباب المذكورة أعلاه، ولكن لأنه تزوج ببعضهن دون أن يتم الزواج بالدخول بهن.(٢٢٧)

ومن هنا، فإن اتهام محمد بأنه قضى فقيراً، ولكن غايته في الحياة كان الاستمتاع بحشد من الزوجات لا يعدّ إهانة للرجل فحسب، بل للعقل ذاته. فشهوات الشهواني واضحة للعيان، غير أن أفعال محمد لا تنمّ عن مثل تلك الميول على الإطلاق. فقد كان قائداً روحياً، وقائداً للمؤمنين، وملكاً في الميدان، ولو أراد التصرف خارج نطاق الضوابط الشرعية، لما منعه قانون من فعل ذلك. ولكننا نرى كيف سن آخرون في دول أخرى قوانين الملاّك التي كانت تترواح مابين البغاء القانوني وحق الإقامة *droit du seigneur*، سيئ السمعة، الذي مُنح بموجبه الإقطاعيون في العصور الوسطى الحق بمضاجعة عروس المقَطّعين(*) في ليلة زفافها. ومع ذلك لانعثر على موضع يمكن فيه إدانة محمد على أنه كان شهوانياً.

فإذا كان هذا كل مايمكن كيله لمحمد، فإننا نقول إن مثال محمد يقع ضمن حدود الكتاب المقدس. فقد كان لديه عدد أقل بكثير مما كان لسليمان من زوجات، ولم يتجاوز الحدود التي تجاوزها داؤود (الذي يُرْوى أن شهوته لباتشيبا Bathsheba دفعته للتخلص من زوجها بالموت)، وضبط نفسه أكثر من يهوذا (الذي يُروى أنه تزوج من تامار Tamar التي خدعته لجعله يؤمن بأنها كانت بغيّة). ومن هنا فإن نبوّته لا يمكن أن

---

٢٢٧. المرجع السابق، ص 485

(*) المقْطَع: شخص يُقْطِعه السيد الإقطاعي أرضاً لقاء تعهده بتقديم المساعدة العسكرية إليه [المترجم].

يماري بها على أساس أنه كان شهوانياً، إلا إذا وجّهنا التهمة لأنبياء الكتاب المقدس المذكورين بأنهم كانوا شهوانيين أيضاً.

ونسأل إذاً: ما التعاليم التي جاء بها محمد فيما يخص النساء والزواج؟ فنقول: تعدد الزوجات. ولكن علينا أن نتذكر أن تعدد الزوجات كان مباحاً في العهد القديم أيضاً.[٢٢٨] وعلى الرغم من أنه كان غير مباح جهاراً في العهد الجديد، فإننا نستطيع أن نجادل بأنه لم يكن محرّماً كذلك.

ومن جهة أخرى نقول إن الوحي الذي جاء به محمد قد يطالب ولأول مرة في التاريخ بوجوب احترام النساء والزواج بهن بالطرائق الرسمية الضرورية. فقبل ثلاثة عشر قرناً من منح المرأة في الغرب المتطور حق الميراث، والتملك، ورفض عروض الزواج (التي لا تروق لها)، والمساواة في التعليم والدين، أمر القرآن الكريم بمنحها مثل تلك الحقوق. ولعل أكثر المفاهيم جذرية هو اعتراف الإسلام الصريح بأن للنساء ذات الأرواح والفرص التي للرجال في الحياة الآخرة — وهما مفهومان كانا محطّ نقاش علني في الدوائر المسيحية حتى مطلع القرن العشرين، والتي غُيِّب في أعقابها ذاك النقاش خلف أبواب الكنيسة المغلقة لأغراض سياسية.

ولكن القضية تتمثل بالتالي، وهي أن هذه المسألة لم تكن قط ذات بال في الإسلام.

والخطاب التالي لـ توماس كارلايل ربما كان موجهاً لغير المؤمنين، إذ

---

[٢٢٨]. انظر "**من فقدوا الله**"، القسم الثالث، الفصل السادس.

يقول:

بعد كل ما يمكن قوله في محمد، فإنه لم يكن رجلاً شهوانياً. ونجانب الصواب إذا ما نظرنا إلى هذا الرجل بأنه كان شهوانياً عادياً همه الرئيس المتع الهابطة، .. لا بل المتع من كلّ نوع. فقد كان بيته غاية في التواضع، وكان طعامه خبز الشعير والماء. وأحياناً لم تكن توقد نار في بيته لشهور. ويسجلون بفخر أنه كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه. كان فقيراً، كادحاً، ضيق الحال، غير مكترث بما يكدح من أجله العامة من الناس. لابد لنا من الاعتراف بأنه لم يكن سيّئاً. فقد كان يتحلى بصفاتٍ بعيدة عن النَّهَم لشيء، ولولا ذلك ما كان للعرب الغلاظ – الذين اصطدموا به واحتكوا به على مدى ثلاثة وعشرين عاماً وكانوا دوماً وثيقي الصلة به – ليوقّروه مثل ذلك التوقير! فقد كانوا جفاةً على استعداد دوماً للشِّجار بكل ما أوتوا من عزم، فلم يكن ليحكمهم رجل لولا جدارته ورجولته.[(٢٢٩)]

والحق يقال إن محمداً حكمهم. ولكن ماهو مهم في المسألة هو أن نعرف الطبيعة التي حكم محمد بها هؤلاء القوم.

---

[٢٢٩]. Carlyle, Thomas. P 114-115

# ٦: صَوْن الرسالة

**إذا أردت أن تصون سرّك، فغلِّفه بالصراحة.**

الكسندر سْمِث Alexander Smith: **قرية الأحلام**.

إن جوهر وحي الرسالة التي جاء بها محمد لم يتغير بتاتاً تبعاً للموقف الإسلامي. فالتوحيد الإسلامي الذي جاء به آدم هو ذاته التوحيد الإسلامي الذي حمله الأنبياء جميعاً من بعده، بمن فيهم موسى، وعيسى، ومحمد. ومن الناحية المنطقية، لا يمكن أن يكون الحال خلاف ذلك ... إلا إذا آمنا بخالق يغير مشيئته، ويستحيل أن نتصور خالقاً يغير المبادئ الأساسية الواردة في الوحي. فالقول بأن "الله واحد" قاد إلى "الله واحد، لكن ثلاثة أقانيم في واحد، وواحد في ثلاثة أقانيم" هو أن نزعم بأن جوهر الله قد تغيّر. وهذا بالضبط ما تفترضه المسيحية التثليثية.

ولكن لنكن واضحين حول هذه النقطة: وهي أن زعم الأقانيم الثلاثة لم يأت به **المسيح** بل المسيحية التثليثية. وإذا لم يبيِّن الكتاب الأول في هذه السلسلة **"من فقدوا الله"** حقيقة أخرى، فإنه يعرض للحقيقة التالية: لقد دعا المسيح إلى وحدانية الله وإلى اتباع شرعة العهد القديم. ولم تكن

المسيحية التثليثية نتاج ماجاء به المسيح من تعاليم، بقدر ماهي نتاج أولئك الذين حملوا راية الدعوة باسمه: رجال من أمثال بولس ومن تبعه من علماء اللاهوت البولسيين.

ولابد من أن نشدد على القول بأن هناك فرقاً بين أتباع عيسى المسيح وأولئك الذين جاؤوا من بعده يحملون اسمه، فهم ليسوا سواء. فالمجموعة الأولى تمسكت بتعاليمه وبعقيدته التوحيدية الصارمة المنبثقة عن شريعة العهد القديم، وهي مجموعة صغيرة نسبياً من المسيحيين التوحيديين Unitarian Christian.[٢٣٠]م.ت. وأما الذين ادعوا أنهم اتباع المسيح التثليثيون Trinitarian الذين اقترحوا تركيبة لله لم يأت بها المسيح قط.

ونعود للنقطة التي بدأنا منها. وهي أن عيسى المسيح دعا إلى وحدانية الله، وإلى إنسانية أنبيائه (بما فيهم هو نفسه)، وإلى متطلبات التمسك

---

[٢٣٠]. منذ منتصف القرن التاسع عشر وبعضهم يعد "التوحيدية" Unitarianism على أنها رديفة لل "العمومية" Universalism رغم التباين الواضح بين هذين الكهنوتين. كما أن اتحاد الكنيسة العمومية في أمريكا Universalist Church مع رابطة التوحيديين الأمريكيين Unitarian Association في العام ١٩٦١ الذي شكل رابطة التوحيديين العمومية لم يفعل الكثير ليخفف سوء الفهم هذا. وعلى حين يمكن القول بأن "العموميين" يمكن أن يكونوا "توحيديين"، إلا أن العكس ليس صحيحاً تماماً. والسبب في ذلك هو أن مفهوم الكنيسة العمومية في خلاص كل الأرواح يناقض مذهب المسيحية التوحيدية والذي يقضي بأن الخلاص مشروط بالاعتقاد والممارسة الصحيحين وفق تعاليم المسيح. وبسبب هذا، وبسبب تباين معتقدات الكنيسة العمومية، فقد أخفقت هذه الأخيرة في تشكيل صيغة معتقد تكون مقبولة لدى أعضاء هذه الكنيسة كافة. فاللاهوت "العمومي" مبني بقوة على الفلسفة أكثر مما هو مبني على النص الديني وهو مايشرح سبب هذا الشقاق. وفي هذا الكتاب تشير "الكنيسة التوحيدية" إلى اللاهوت التوحيدي التقليدي الذي تأسس بناء على نص الكتاب (الإنجيل) والمتفق على توكيد الوحدة الإلهية. ومن هنا فإن علينا ألا نخلط بين "العمومية" و "التوحيدية" في هذا المقام، وبالتالي فإنه لن يتم مناقشتها في هذا الكتاب.

بالقوانين التي أرسى قواعدها الوحي. وهذا مادعى إليه الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم بمن فيهم محمد.

فتلك إذاً الرسالة، وثمة يكمن الامتحان. فالنبي الحقيقي لابد أن يصون الرسالة التي تنسجم وتعاليم الأنبياء الذين سبقوه. في حين تجد كيف يفسد الدّجالون تلك الرسالة في سبيل مكاسب شخصية بطريقة أو بأخرى.

والآن كيف الحال بالنسبة لمحمد؟

فبادئ ذي بدء، وكما ناقشنا في الفصل السابق، ليس ثمة دليل على أن محمداً قام **بشيء** على الإطلاق في سبيل تحقيق مكاسب شخصية، فكيف له أن يفسد رسالة الوحي؟ إذاً لقد عاش محمد ومات فقيراً، وبالتالي فليس هناك من دليل قط على أنه جاء بالوحي في سبيل تحقيق مكاسب شخصية.

وثانياً، فإننا نجد كيف يحافظ القرآن الكريم على رسائل الأنبياء السابقين في الوحدة الإلهية. ليس ذلك وحسب، بل إن الإسلام يحافظ على الوصايا العشر باستثناء وصية السبت. بمعنى آخر، نجد كيف يتم الحفاظ على العقيدة الأصلية دون تبديل أو تغيير. كما يتم الحفاظ على الشريعة التي جاء بها موسى وعيسى مع اختلاف بسيط.

ولكن ما طبيعة هذا الاختلاف البسيط؟

إن ذلك يعتمد على وجهة نظرك، فيمكننا أن نفهم ببساطة أنه

لايمكن للعقيدة الحقيقية لله الأبدي أن تتبدل، ولكن ماذا عن شرائع الله، هل هي ثابتة كذلك؟

الجواب هو أنه مع نزول آخر وحي أصبحت شرائع الله وقوانينه ثابتة. ولكن قبل نزول هذه الشريعة الأخيرة، ثمة أمثلة كيف تبدّلت الشرائع من وحي لآخر.

ففي العهد القديم، أُحِلّ لأبناء آدم وبناته مبدئياً التزواج فيما بينهم، ولم يمنع مثل هذا التزواج سوى فى وقت لاحق لذلك. وكان من الحلال أن يأكل نوح وقومه أنواع لحوم الحيوانات كافة، ولم يبيّن حرمان لحوم بعضها إلى حين أنزل وحيه على موسى. وفي وقت من الأوقات كان بوسع الرجل الجمع بين الأختين لكن هذه الممارسة حُرِّمت فيما بعد. وأسرع تبديل أمر به الله هو ماجاء في قصة إبراهيم. فقد أمر الله إبراهيم في البدء أن يذبح ابنه، ولكنه نقض هذا الأمر عندما همّ إبراهيم بتلبية النداء.

ويزعم مسيحيون بأنه لم تُنْسخ وصية واحدة أو وصيتان من الوصايا العشر، بل نُسِخَت شريعة موسى بكاملها. ولم تُستبدل بشريعة العهد القديم عقيدة التبرير بالإيمان الذي دعا إليها بولس وحسب، بل إن المسيحيين التثليثيين يزعمون أن الله نفسه قد تحوّل من رب شديد ساخط إلى ودود غفور في العهد الجديد. ومع ذلك نجد مسيحيين يجادلون بقوة زاعمين: "نحن نقول بأن صفات الله ذاته تتغير كما أن الشرائع السابقة كافة تُنسخ. ولكن أن يقول الإسلام إن الخمر أصبحت محرمة؟ فذاك أمر سخيف"!

إذاً فالإسلام ينص على أن الله لم ينزل الأحكام والوصايا دفعة واحدة على بني البشر بل نزّل ذلك بما يتماشى وتطور البشرية لتَحَمُّل ذلك والعمل به. ربما لم يكن بنو البشر قادرين على تقبل بعض الأوامر والنواهي في مراحل مبكرة من الوحي. وبمعنى آخر، لم يكن بنو البشر جاهزين بل كان عليهم الانتظار حتى يصبحوا أكثر نضجاً. فتماماً كما يتلقى الأطفال تعليماً في الحياة يتناسب ومستويات نضوجهم، كان على الجنس البشري أن يتدرج في مراحل الفطام كي يكون قادراً في نهاية المطاف على تقبُّل أوامر الوحي ونواهيه.

وهكذا فينبغي أن ألا نُدْهش إذا ما رُفعت قيود السبت هنا، وحُرِّمت الخمر بعد تحليلها هناك.

وبالمحصلة نسأل: ما الموقف الإسلامي الذي نواجهه حيال هذا؟ وحدانية الله وجلال قدرته كما جاء بها الأنبياء كافة من قبل.[٢٣١]م.ت وكتاب جامع للشرائع كلها.

وما الذي يمكن لنا أن نجده هنا؟ إن مانجده هو أن محمداً لم يعدّل شيئاً من التقاليد الدينية لتحقيق مكاسب شخصية، كما لم تظهر عليه علامة من علامات النبوّة الزائفة، وما أكثرها. وفضلاً عن ذلك، فقد بلّغ هذا النبي وحياً كان من شأنه تصحيح تصورات خاطئة كانت شائعة في الديانتين اليهودية والمسيحية لا أن يرسخّ لهما. ولقد كان الأسلوب الذي اتبعه لحشد الأتباع غريباً — وذلك أنه أبلغ اليهود والمسيحيين أن الآراء

---

[٢٣١]. انظر "**من فقدوا الله**"، القسم الثالث، الفصل الثامن.

السائدة التي كانوا يحملونها (وما زالوا) خاطئة، ثم يشرع في تعليم اليهود والمسيحيين كتابَيْهم المنزلَيْن. من الغريب خوض مثل هذه المعركة الشرسة دونما وجود حافز دنيوي يطفو على السطح .. إلا أن يكون المعلم نبياً حقيقياً.

فهل كان محمد النبي الخاتم الذي بشر به العهدان القديم والجديد؟ فإذا كان الأمر كذلك، فثمة شيء مؤكد وهو أن الوحي الذي جاء به لابد أنه أزعج العديد من البشر. أغريب ذلك؟ لعله ليس بمستغرب. فليس ثمة حقد يفوق ذاك الذي يضمره غير المؤمن للرجل المؤمن وبخاصة إذا كان هذا الأخير مثال القدوة الحسنة. كما أن النبوة لم تكن يوماً قط سباقاً لكسب الشعبية بين الناس، بل اختباراً للإخلاص والصبر، والثبات والاستقامة. وتماشياً مع قصة وليمة الزفاف ذات المغزى الأخلاقي القائل «لأنّ كثيرين يُدْعون وقليلين يُنْتخبون» (متّى ٢٢:١٤)، فقد كانت الأقلية هي دوماً من يتبع الرسل.

ولكي نختم هذا الفصل، دعونا ننظر في واحدة من تعاليم محمد من خلال شهادة الآخرين بها. وهي الشهادة التي يدلي بها جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي Negus ملك الحبشة النصراني، فقد قال جعفر للملك:

> أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه .. فدعانا إلى الله لنوحدّه ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. وعدّد عليه أمور الإسلام. فصدّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا.[٢٣٢]

ولقد تأثر بعضهم بهذه المقولة بمثل ما تأثر به الملك النجاشي واتّبعوا الدعوة. أما الآخرون فنظروا إلى حامل مثل هذه التعاليم بعين ملؤها البغضاء والحقد لدرجة سعوا من خلالها لقتل الرسول، أو الرسالة، أو كليهما معاً. وكان حالهم حال الجاحدين ممن دعوا لوليمة الملك في القصة آنفة الذكر الواردة في متّى (٢٢: ١٤). فانظر ماذا جرى لهم.

وعبر التاريخ، وجد العديد من العلماء والباحثين أسباباً كثيرة كي يفيضوا بالثناء والمديح الدال على عظمة محمد. فقد كتب الشاعر الفرنسي العظيم لامارتين Alphonse de Lamartine ببلاغة عن تأثير محمد وعظمته قائلاً:

إذا كان عِظَم الهدف، وقلة الإمكانات، والنتائج الباهرة، هي المعايير الثلاثة للعبقري البشري، فمن ذا الذي يجرؤ على مقارنة عظيم في التاريخ المعاصر بمحمد؟ فأشهر الناس جيشوا الجيوش، وسنّوا القوانين وبنوا الإمبراطوريات لا غير. فما بنوه لا يعدو كونه

---

[٢٣٢]. **مسند أحمد**

قوىً مادية كثيراً ما انهارت أمام ناظرهم. أما هذا الرجل فلم يزحزح فقط الجيوش، والتشريعات، والإمبراطوريات، والشعوب، والأسر الحاكمة، بل حرك مشاعر ملايين البشر في ثلث العالم المأهول آنذاك؛ وأبعد من ذلك فقد زلزل المذابح، والآلهة، والديانات، والأفكار، والمعتقدات، والنفوس. وأقام، على أساس كتابٍ، أصبح فيه كل حرف قانوناً، هوية روحية صهرت شعوباً متعددة الألسن، والأجناس في بوتقة واحدة. لقد ترك لنا صفة راسخة من صفات الهوية الإسلامية ألا وهي بغض الآلهة المزيفة والشوق لإله واحد غير مادي. ومثّلت روح الثأر من تدنيس المقدسات فضيلة من فضائل أتباع محمد. وشكل بَسْط دينه على ثلث مساحة المعمورة معجزته، أو لعلها لم تكن معجزة الرجل بل معجزة العقل. فعقيدة التوحيد التي أعلنها في خضم استنزاف الثيوغونات(*) الخرافية كانت بحد ذاتها معجزة لدرجة أنه بمجرد أن نطق بها لسانه قوّضت معابد الأصنام القديمة جميعاً وألهبت مشاعر ثلث سكان العالم. فحياته، وتأمله، وتصديه البطولي للخرافات التي كانت تسود بلده، وجرأته في تحدي غضب الوثنية، وحزمه في تحملها لخمسة عشر(**) عاماً في مكة، وتقبله

(*) الثيوغونات Theogonies مباحث أصل الآلهة وتحدرهم [المترجم].

(**) نحن – المسلمون – نعلم أنه أمضى ١٣ عام في مكة و١٠ في المدينة وهذا بفارق سنتين عن دي لامارتين.

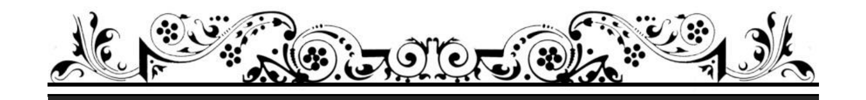
لتأدية وظيفة من هو في موضع الازدراء الشعبي، وكونه تقريباً ضحية لبني قومه، هذه جميعاً، مضافاً إليها هجرته في نهاية المطاف، ودعوته الحثيثة، ومعاركه ضد المخاطر، وإيمانه بنجاحه، وسكينته الخارقة عند الشدائد، ورفقه عند النصر، وطموحه الذي كان ينصبّ على فكرة واحدة وهي أنه لم يكن في حال من الأحوال يسعى لبناء إمبراطورية، ودأبه على الصلاة، وتذلّله لله، وقبضه، وانتصاره عقب قبضه، كل هذه لا تشهد بالزيف بل بالقناعة الراسخة التي خوّلته القوة لإحياء عقيدة. وكانت هذه العقيدة ثنائية البعد حيث ركزت على التوحيد وعدم مادية الله. فالتوحيد يعلمنا من الله، والبعد الآخر يعلمنا ما يتنافى وصفات الله؛ أحدهما يطيح بالآلهة الزائفة بحد السيف، والآخر بالحوار.

لقد كان محمد فيلسوفاً، وواعظاً، ورسولاً، ومشرعاً، ومحارباً، وقاهراً للأفكار، ومحيياً للعقائد العقلية، ولعقيدة خالية من الصّور؛ وكان مؤسساً لعشرين إمبراطورية دنيوية. وإمبراطورية روحية واحدة. فذلك هو محمد. وفيما يتعلق بجميع المعايير التي تقاس بها العظمة الإنسانية، فمن حقنا أن نتساءل: هل هناك رجل أعظم منه؟[٢٣٣]

---

[٢٣٣]- De Lamartine, A. (1854). *Histoire de la Turquie*, Paris. pp. 276-277 .

# القسم الرابع: عالم الغيب



**لا خير في مجادلة فيما هو واقع لامحالة.**

جيمس رَسِل لوْوِل James Russell Lowell، ١٨٨٤.

عالجت الفصول السابقة الواقع الملموس للأنبياء، والكتب المنْزلة. وينتقل الجزء الحالي للبحث في عالم الغيب – الكائنات غير الملموسة والمفاهيم التي طالما ظلت موضوعاً للتحليل الديني المقارن المعروف. وفي الوقت الذي تبرز فيه الفصول السابقة أدلة دامغة توحي باستمرارية الوحي من اليهودية حتى المسيحية ثم الإسلام، فإن هذا القسم يدعم ما تقدم لإظهار المفاهيم المشتركة، فيما يتعلق بأمور السماء. ومن الطبيعي أن يكون هناك اختلافات، ولكن بمجرد إزالة القشرة الخارجية لهذه الاختلافات التي شكلتها الأهواء البشرية، يتبين لنا أن أسّ الاعتقاد متناغم تناغماً ملحوظاً.

# ١ : الملائكة

**الإنسان، الإنسان المتكبر،**
**المخوّل بصلاحية ضئيلة مؤقتة،**
**الأجهل بما هو مستقر في نفسه،**
**طبيعته الكامدة، كقردٍ غضِبٍ،**
**يعبث عبثاً مذهلاً تحت السماء السامقة،**
**مما يبكي الملائكة.**

شكسبير Shakespeare، مسرحية **واحدة بواحدة**

الملائكة: إنها موجودة، وهل في ذلك شك؟ ذاك، في الأقل، موقف الديانات الإبراهيمية الثلاث.

نحب أن نؤمن بوجود الأشياء التي لايمكن أن نراها أو نلمسها، ولكم نصاب بخيبة الأمل لأن الملائكة لا تخضع للتحليل الفردي، أو البحث العلمي، أو برامج الحوار الإعلامية كما نعلم. فهي – بالإضافة إلى الشياطين، والجنة، والنار، والعديد من الكائنات الأخرى – من مخلوقات الله الغيبية التي لايمكن للإنسان أن يراها.

وتنظر كل من اليهودية والإسلام إلى الملائكة نظرة واقعية. فالجنس

البشري يعدّون أنفسهم أعظم الكائنات على وجه الأرض، ولكن الكائن البشري لا يعدو كونه نقطة صغيرة من المادة الحية الأساسية، وقد وقفت مقلقلة على شفير الفنائية الواهي. ويشغل كل منّا بني البشر منزلاً مؤقتاً يقع على كرة طينية بحجم رأس الإبرة تسمى الأرض تدور في مدار طوله مائة وخمسون مليون كيلومترٍ عن أقرب قزم أصفر من فئة طيف G2 للشمس، ونحن لانعلم سوى القليل عن جيراننا من كواكب المجرة الكونية [درب اللبّانة/التبّانة] التي يمتد قُطرها حوالي ثمانين سنة ضوئية، وهي بدورها تغوص فيما يُعرف بالمجموعة المحلية Local Group المكوَّنة من حوالي ثلاثين مجرّة تحتل أسطوانة فضائية قطرها خمسة ملايين سنة ضوئية. وهي ذاتها مجرد بقعة تافهة محاطة ضمن "عنقود محلي ضخم Local Supercluster" بعشرات من "العناقيد" التي تدعى "غيوم المجرّات Galaxy Clouds" التي يحتوي بعضها على حوالي مائتي مجرّة بها أسطوانة فضائية أخرى أقل أهمية قطرها مائة وخمسون سنة ضوئية. وكل هذا مثبّت بإحكام وا نتظام في قلب ما يعرف بالكون .. الذي هوَ قطر مرعب يتكون من أربعين مليون سنة ضوئية، (تبلغ كل سنة ضوئية حوالي ستة ملايين ميل).[٢٣٤]

وكل مايمكن قوله إنها مسافة شاسعة للسفر وإن كوكب الأرض هو آخر محطة للاستراحة. إن الفهم الإسلامي هو أننا لسنا المخلوق الوحيد

---

٢٣٤ National Geographic Society. "The Universe, Nature's Grandest Design" Cartographic division. 1995 .

في هذا الكون. وأن الجنس البشري ليس هو الكائن الأسمى بالتأكيد. والصفة الإنسانية الوحيدة التي يبلغ قطرها ٢٤٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ (سيكستيليون sextillion) ميلاً تقريباً، وتضم مائة مليار مجرّة معروفة، وتتسع بأكثر من ٩٠% من سرعة الضوء هي تمثل أنانية بعضهم. وكما كتب رُدْيارد كبلنج Rudyard Kipling: "هناك قدرٌ كبير من الأنانية على كوكبكم".[٢٣٥] فقد خلق الله الإنسان، لكنه خلقَ الملائكة والجن (أي الأرواح spirits) أيضاً.

وكل عنصر من عناصر الخلق هذه لها خواصها وقدراتها المختلفة التي يفوق بعضها قدراتنا البشرية. فالجن مثلهم مثل الإنسان، يملكون إرادة حرة، فبعضهم شرّير، وبعضهم مؤذٍ، وبعضهم الآخر صالح وتقي. وأما الملائكة فلا تملك إرادة حرة فهي مسخرة لتنفيذ أوامر الله وهي مطيعة تماماً. وتتضمن واجباتها عبادة الله، وحمل الوحي إلى الأنبياء، وتسجيل حسنات المرء وسيئاته، وحماية الصالحين عندما يأمر الله بذلك، وقبض الروح عند الموت، والقتال في صفوف الصالحين في أوقات الحرب، وتوجيه عناصر الطقس. وأشهر مثال لهذه الملائكة جبريل، مَلَك الوحي (المعروف أيضاً "بالروح القدس" في الدين الإسلامي).

والسؤال الذي يبرز بين الفينة والأخرى هو: لماذا لم يجعل الله البشر

---

٢٣٥. Kipling, Rudyard. Life's Handicap. 1891. "Bertran and Bimi."

كافة مؤمنين وصالحين، ويدخل الناس جميعاً الجنة؟ والإجابة الوحيدة المؤكدة عن هذا السؤال هي أنه لو شاء ذلك لفَعَل. فقد خلق الله الملائكة من قبل وهي مخلوقات لاتعصي الله في أمر. فلم يخلق الله الإنسان على الشاكلة ذاتها إذاً؟ وعلى خلاف الملائكة فقد أعطى الله البشر حرية الاختيار، ونحن معشر البشر يمكن لنا أن نكون **خير** من الملائكة وذلك بأن نكون طائعين بملء إرادتنا، أو أن نكون أسوأ من الشياطين. فالملائكة ليس لهم من خيار في هذا الشأن. ولكن من سيواجه الامتحان أمام الله يوم القيامة هم بنو البشر وليس الملائكة، فإما جنة ونعيم وإما عقاب وجحيم.

وعلى النقيض من الفهم اليهودي والإسلامي للملائكة، تؤمن المسيحية في مجموعة وهمية من الملائكة التي لا يستند وجودها إلى دليل من الكتاب المقدس. وفضلاً عن ذلك، فإن المسيحيين قاموا بما رفض المسلمون واليهود أن يقوموا به وهو تمثيل الملائكة برسم صور متخيّلة عن ملائكة تشبه في ظنهم الملائكة الحقيقيين. . وقد لايبدو هذا أمراً ذا بال ولكن تبدو مثل هذه الأخطاء بأنها ليست ذات بال ولكن المحافظ المتدين يسارع إلى استذكار الوصية التي تأمر بالقول: «لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ» (الخروج ٢٠: ٤). وكل ماعليك فعله هو أن تسأل الناس ماذا تشبه الملائكة لترى كيف ترسم لك الغالبية الساحقة منهم صورة لها مثل التي غرسها في عقولهم من قام بخرق الوصية الربانية هذه.

ومرة أخرى نقول، قد تبدو هذه المسألة ليست بذات شأن للوهلة الأولى، إلا إذا نُظر إليها في ضمن سياق الوصايا الربانية. ولكن التمسك بأوامر الله بطبيعة الحال هو ما يدور الدين كله حوله.

# ٢: يوم الحساب

**ليس أمامك سوى فرصة واحدة لكي تترك انطباعاً أولياً جيداً.**

مثل قديم.

إن للاعتقاد الصحيح مكافأته في الحياة الآخرة. كما أن للكفر — وُقيتَ شرّه — جزاءه الخاص به كذلك .. وهذه هي رسالة الأنبياء جميعاً على مدى العصور.

فكيف نبرر الإيمان بحياة آخرة؟ فنقول: أين يمكن للمظالم أن ترد إلى أهلها إن لم يكن هناك حياة آخرة؟ أين يمكن للفرد أن يتوقع أن يجد التعبير الكامل عن العدالة المطلقة لله إن لم يكن ذلك في حياة آخرة؟ وما لم توضع الأمور في نصابها بالثواب والعقاب في الآخرة، فإن الظلم الواضح في هذه الحياة الدنيا لا يعكس التصور الإلهي للعدالة كما يليق بجلاله. فنحن نرى أن بعض حثالات القوم ينعمون بأنماط حياة ملؤها الترف وراحة البال. وفي المقابل نجد أناساً من صفوة الخلق مَنْ كابد ويكابد صنوفاً شتى من شظف العيش. فعلى سبيل المثال نسأل: أي الأنبياء عاش حياة دعة وهناءة؟ وأي الأنبياء عاش حياة ترف تضاهي

حياة الطغاة، أو زعماء المافيا المعاصرين، أو تجار المخدرات الحاليين، سواء أكان في زمانهم أم في زماننا؟ فإذا كان علينا أن نثق برحمة الخالق وعدالته فإنه لايمكننا أن نؤمن بأن الله يحصر جزاءه للإيمان وعقابه للبغي في هذه الحياة الدنيا وحسب، وذلك لأن جَوْر هذه الحياة واضح للعيان بحيث لا يمكن التغاضي عنه.

وعليه، فلابد من وجود يوم الحساب، ولابد أن نشهده. وكل ماعلينا فعله هو البدء بالتفكير في تغيير حياتنا نحو الأفضل. مالسبب؟ السبب ببساطة شديدة هو أن حياتنا سوف تكون قد انتهت، ولن يكون لدينا أي متسع من الوقت عندها في أن نغيّر شيئاً. وسوف يكون سجل أعمالنا قد توقف، ولن يكون هناك عودة إلى الوراء.

ويوم الحساب يُصَنّف البشر وفقاً لمعتقداتهم وأعمالهم حيث يُبَرّأ المؤمنون والمتّقون، ويُعاقب الكافرون. وأما الباغون فسوف يلقون الجزاء بما كسبت أيديهم إلا من رحم ربك.

ويزعم اليهود أن الجنة هي حق طبيعي "لشعب الله المختار"، وأما المسيحيون فيقولون إنهم "لن يبلغوا الكمال في الآخرة، ولكنهم سوف يُمنحون الغفران". وأما المسلمون فيعتقدون أن كل الذين ماتوا مسلِّمين للخالق سوف يدخلون في المغفرة. وعليه فإن من اتّبع الأنبياء والوحي كل في زمانه فلابد أن يكون من المفلحين، وأما من أعرض عن الوحي الذي جاء به أنبياء عصره فإنه قد ساوم على نجاة روحه من الجحيم.

وفقاً للعقيدة الإسلامية، فإن هناك من المؤمنين اليهود من بقي على الحق إلى أن كفر بالأنبياء الذين جاؤوا من بعد (كيحيى والمسيح عيسى) وبتعاليمهم وبالوحي الذي أنزل عليهم، كوحي المسيح عيسى. هذا يعني أن اليهود عاشوا مذعنين لله ولكن ليس وفق **شروطه** بل وفق **شروطهم**. فقد كان هؤلاء إن بعث الله نبياً لم يعجبهم، يتمسكون بدين آبائهم لا بالدين الذي أرسله الله لهم. وبهذه الطريقة فقد ضلّوا عن الهدي الصحيح وساروا في طريق الغي والعصيان.

وبالطريقة ذاتها، فقد سار المسيحيون على الحق إلى أن نبذوا الحق الذي أنزل على محمد. وبهذه الطريقة فقد فعل المسيحيون مافعله اليهود: وهو أن آمنوا بالله وفق ما اشتهت أنفسهم. ليس ذلك وحسب، بل عندما دُعوا للاعتراف بالنبي محمد وبالوحي الذي أنزل عليه وهو القرآن الكريم، كفروا به وساروا على نهج أبناء عمومتهم من اليهود.

ووفق التصور الإسلامي، فإن الدين عند الله الإسلام، وذلك لأن جوهر الرسالة التي جاء بها الأنبياء جميعاً هي التسليم لأمر الله ومشيئته. ولكن الإذعان لله يتطلب التمسك بآخر وحي أنزله الله على عباده وبتعاليم خاتم الأنبياء جميعاً. ومن هنا فإن المجموعة الوحيدة التي تسلّم لأمر الله وتذعن له في الوقت الحالي هم المسلمون. إن من يعرف الإسلام ويُعرض عنه سوف يكون من الملعونين. وملعون كذلك من يعلم بالإسلام ويتجاهل واجب الإطلاع عليه ودراسته، وبالتالي اتّباعه. وأما الذين يموتون ولم يعرفوا عن الإسلام شيئاً أو يُجهدوا أنفسهم بالتعرف إليه، فسوف

يُمتحنون يوم الحساب عمّا كانوا سيفعلونه فيما لو علموا به، وبناء على ذلك سوف يحكم الله عليهم.

وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتخيَّل أن هناك يهوداً ماتوا ولم يعلموا عن الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى، وأن هناك مسيحيين ماتوا ولم يسمعوا بمحمد أو بالقرآن الكريم. إن هؤلاء لن يُعذّبوا وذلك لجهلهم بالأمر، ولكنهم سوف يحاسبون طبقاً لمدى خضوعهم للوحي الذي أنزل عليهم في الحياة الدنيا وإيمانهم به وتصديقهم له. وكذلك الأمر بالنسبة لأولئك الذين يموتون وهم يجهلون بالوحي برمته، فسوف يحاسبون على مدى إخلاصهم بالبحث عن دين الحق الذي يأملون بالخلاص من خلاله. ولكن هذا لاينطبق على الذين يعرضون عن الحق عن سابق قصد ونية.

# ٣: القَدَر

**نحن في التفكير والله في التدبير.**

Thomas à Kempis توماسَ أَكِمبِس

جميعنا يعرف أنه لايمكن إثبات القضاء والقدر، ولكن مايمكن إثباته هو الصفة المشتركة لهذا المفهوم في الديانات الإبراهيمية الثلاث. إن ما لايعلمه الغالبية العظمى من اليهود والمسيحيين هو أن القضاء والقدر شعبة من شعب الإيمان المشتركة لهذه الأديان.

ولقد ناقشنا للتو المفهوم اليهودي لمبدأ "شعب الله المختار". وبعيداً عن فكرة التفاؤلية العالية هذه، فإن ماهو مكتوب في العهد القديم عنها لايتعدى النزر اليسير. ففي **معجم هولمان للكتاب المقدس** Holman's Bible Dictionary نجد التعليق التالي:

> كان بنو إسرائيل يُغْرَوْن بين الفينة والأخرى ليتجرَّؤوا على أنعم الله المسْبَغة بالافتراض مثلاً، إنه نظراً لأن الرب قد اختار القدس مكاناً للهيكل، فإنهم أعفوا من الحساب. وحاول الأنبياء مراراً وتكراراً أن يحرّروهم من هذا الوهم بالنجاة بالإشارة إلى

المعنى الحقيقي للميثاق ومهمتهم بين الأمم (أرمياء ٧:١—١٤، وعاموس ٣:٢، ويونان).[٢٣٦]

وقد ثبت أن المسيح عيسى نفسه عبّر عن حسرته قائلاً:

«يَا أُورُشَلِيمُ يَا أُورُشَلِيمُ يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا وَلَمْ تُرِيدُوا» (متّى ٢٣:٣٧).

وهذا الأمر يثير السؤال التالي: "شعب مختار" من أجل ماذا؟ هل لقتل الأنبياء ورجم المرسلين؟ .. إنها كما أرى معادلة غير منطقية للخلاص. ولكن مرة أخرى نسأل: كم مرة يمكن للمجادلة العقلية أن تخترق سياج فكر النخبة؟

من المؤكد أن الإسرائيليين كانوا "الشعب المختار" طالما وفّوا حق نبيهم واتبعوا الوحي الذي جاء به. ولكنهم مالبثوا أن نقضوا الميثاق مع الله عندما كفروا بالأنبياء الذين بشرت بهم كتبهم المقدسة. لقد أبطل هؤلاء وعد الله لهم بالخلاص عبر العناد والجهر بمعاداة الأنبياء. جاء في **الموسوعة اليهودية** التعليق التالي:

تتضمن علاقة الميثاق المعرّفة على هذا النحو مسؤوليات،

---

.[236]Butler, Trent C. (General Edition). *Holman Bible Dictionary*. Nashville: *Holman Bible Publishers*. Under 'John, the Gospel of' (subsection: "Election")

بالطريقة ذاتها التي يكلّف بها أشخاص مختارون بمهام، ويطلب منهم أن يؤدوا وظائف محددة ... وإسرائيل مُلْزَم بموجب هذا الاختيار وهو أن «يحفظوا فرائضه ويطيعوا شرائعه» (المزامير ١٠٥:٤٥).[٢٣٧]

وبكلمات أخرى، لم يكن هناك سوى خرق للمواثيق ونقض للعهود.

ولننتقل الآن للاهوت المسيحي، إذ نصادف في العهد الجديد موضوع المعرفة المسبقة والقضاء والقدر في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (٨:٢٩): «لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعيّنهم...». وتصف الرسالة الأولى إلى أهل أَفَسُسْ (١:٣–١٤) القدر عشر مرات إما تصريحاً أو تلميحاً، كما ينص أعمال الرسل (٤:٢٧–٢٨) على ما يلي: «لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القُدُّوس يسوع الذي مَسَحْته هيرُودُس وبيلاطُس البُنْطيّ مع أمم وشعوب إسرائيل. ليفعلوا كل ما سَبَقت فَعَيّنَت يَدُك ومشورتُك أن يكون». وتضيف رسالة بطرس الأولى (١:١–٢): «إلى المتغرِّبين من شتات بُنْتس وغلاطية وكبَّدوكيَّة وآسيا وبيثينيّة. بمقتضى علم الله الآب السابق في تقديس الروح للطاعة ... ». حيث تضيف الجملة الرابعة: «... لميراث لا يفنى ولا يتدنّس ولا يضمحل محفوظ في السموات لأجلكم...».

ويتضح أن المسيح عيسى قد أخبر أتباعه عن القدّر عندما قال: «...

---

٢٣٧. *Encyclopaedia Judaica*. Vol 5. p.499. (under: "chosen people")

تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ» (متّى ٢٥:٣٤)، وبقوله: «... بَلِ افْرَحُوا بِالْحَرِيِّ أَنَّ أَسْمَاءَكُمْ كُتِبَتْ فِي السَّمَاوَاتِ» (لوقا ١٠:٢٠)[٢٣٨]

فمن هذه القاعدة الإنجيلية نجمت وفرة من النظريات التي مالبثت أن تطورت.

فاللاهوت الكاثوليكي يفترض وجود معرفة الله المسبّقة والمعصومة من الخطأ بمن سوف ينجو من بني البشر، ومن سوف يهلك، ولماذا. ووفق **الموسوعة الكاثوليكية** نقرأ: "بطريقة ما، يمكن شرح القضاء والقدر بمعرفة الله المسبّقة بسلوك البشر".[٢٣٩] إضافة إلى ذلك أن الله سوف ينجي المباركين بدقة الطريقة التي قدرها عليهم مسبقاً.[٢٤٠]

من جهة أخرى، بشّر الإصلاح البروتستانتي بظهور نظريتيْ مارتن لوثر Martin Luther، وجون كالْفِن John Calvin غير المهاودتين. ويزعم كل من لوثر[٢٤١] و كالْفِن[٢٤٢] أَنَّ الله قد كتب على كل إنسان منذ خلقه خلقه إما النعيم الأبدي أو الهلاك السرمدي. وبينما يرى لوثر أن الإيمان بالمسيح هو سمة المصطفين، يرى كالْفِن أنه بما أن الإنسان إما ناج أو

---

٢٣٨. *New Catholic Encyclopaedia*. Vol. 11. p. 713.

٢٣٩. *New Catholic Encyclopaedia*.Vol.11. p.719.

٢٤٠. *New Catholic Encyclopaedia*. Vol.11. p.714.

٢٤١. See Luther's *De Servo arabitrio-The Will Enslaved*.

٢٤٢. See Calvin's *Institutes of the Christian Religion*.

هالك منذ خلقه، فإن "المصطفين" غير قادرين جسدياً على إبطال نجاتهم، كما أن "الهالكين" غير قادرين على الإتيان بأعمال كافية لافتدائهم.

وقد أقحم جاكوبوس آرمينيوس Jacobus Arminius نفسه في خضم هذا النزاع. ولد آرمينيوس في العام ١٥٦٠ ميلادية عقب وفاة مارتن لوثر بأربعة عشر عاماً، وقبل وفاة جون كالفن بأربع سنوات، وعاش مناضلاً ضد طرح كالْفِن بالاصطفاء غير المشروط، والنعيم الخالد. ففي معرض مجادلته بشأن عدم التوافق بين ظلم اللعنة الأبدية وعدالة الخالق المطلقة، ذهب آرمينيوس إلى أن علم الله الواسع يشمل معرفته بإرادة خلقه. ومن هنا، فعلى الرغم من أن الله لا يرغم البشر على القيام بأفعال محددة ولا يقدّر لهم مصيراً معيناً، فإنه يعلم تصميمة حياتهم الروحية وجوهرهم الأخلاقي منذ اليوم الذي يولدون فيه. فبواسع من معرفته يعلم الله بما يفكر به كل إنسان، وبما سوف يقوم به من عمل، وبما سوف يؤول إليه، وبالحال التي سوف يكون عليها في الآخرة.

وتبقى نظرية آرمينيوس محط اهتمام وذلك لأنه أوجد انسجاماً بين مفهوم إرادة الإنسان الحرة ومعرفة الله الكلية ومصير الإنسان. ولكن الكنيسة الإصلاحية Reformed Church أدانتها في مجمع دورت Synod of Dort بين عامي ١٦١٨–١٦١٩ ميلادية. وفي أعقاب ذلك أبحرت جماعات شتى من الفرق البروتستانتية مع التيار السائد لعلم اللاهوت الشعبي، متأرجحة بين نظريات لوثر وكالفن وتباينات نظريات كاثوليكية. وفي العصور الحديثة انجرفت معظم الطوائف البروتستانتية إلى

جمع القرن العشرين بين مفهومي القضاء والقَدَر والكريستولوجيا.

ولم تحقق شيء من هذه النظريات إجماعاً عاماً، وبالتالي يبقى الموضوع موضع نقاش حي في الأوساط المسيحية.

ولعل موضوع القضاء والقَدر أقل خوضاً في الدين الإسلامي منه في اليهودية والمسيحية وذلك لسبب بسيط وهو أن كل الديانات لها ألغازها العقدية، والإسلام يعدّ القضاء والقَدر واحداً من بين تلك الألغاز. وفضلاً عن ذلك، فإن تعاليم الإسلام تنص على التسليم بالمفهوم وعدم الخوض فيه وذلك بسبب محدودية الفكر البشري.

فكما هو الحال مع نظرية آرمينيوس (بل ربما يجب أن نقول كما هو الحال مع النظرية الإسلامية لأن الإسلام سبق آرمينيوس بحوالي ألف العام)، يقر الإسلام بكل من مفهوم القضاء والقدر المقدّسَيْن ومفهوم الإرادة الحرة للفرد ويوفق بين هذه المفاهيم في ضوء معرفة الله المطلقة.

ومع ذلك يؤمن المسلمون بأن الله قد قدّر كل مانقوم به من أعمال.

فقد ورد حديث متصل بهذا الموضوع حين سأل أعرابي محمداً قائلاً: يارسول الله بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل"؟ قال: "لا، بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير." قال: ففيم العمل"؟ قال: "اعملوا فكلٌّ ميسّرٌ

لما خلق له". [٢٤٣]

وقد يساعد حديث آخر في توضيح الفهم الإسلامي وهو الحديث الذي روى فيه عليّ أن محمداً قال:

"مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار". قيل يارسول الله "أفلا نتكل". قال: "لا اعملوا ولا تتكلوا فكل ميسر لما خلق له". ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (القرآن الكريم ٩٢: ٥-١٠). [٢٤٤]

إن محاولة التوفيق بين الإرادة الحرة للإنسان والقول بالعلم المسبق لله والقضاء والقدر يفتح الباب على مصراعيه أمام التأمل والمجادلة اللامحدودة.

لكن، بخلاف الخوض في طبيعة الملائكة، والجن، ويوم الحساب، والجنة، والنار، إلخ، فإن فلسفة مفهوم القضاء والقدر قد تفضي بالمرء إلى الكفر. وربما لهذا السبب لايشجع الإسلام على الخوض في مثل هذه الموضوعات.

ولإيضاح هذه النقطة، نقول إن محمداً رأى ذات يوم مجموعة من

---

٢٤٣. رواه البخاري

٢٤٤. رواه مسلم

أصحابه يتجادلون في مفهوم القضاء والقَدَر، حيث كان بعضهم يستشهدون بآيات من القرآن تثبت أن الله قدّر كل شيء، وكان بعضهم الآخر يستشهدون بآيات تثبت الإرادة الحرة للإنسان. وعندما سمع محمد الصخب تحرى واستفسر عن موضوع المجادلة. فلمّا أخبره الصحابة بالأمر غضب حتى احمرّ وجهه، ثم قال:

> أبهذا أمرتكم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، وعزمت عليكم ألا تنازعوا فيه.[٢٤٥]

إن الذين يتمسكون بتحذير محمد ﷺ يواصلون سعيهم في الحياة وفي الدين، وفي الوقت الذي يسلمون فيه بـ "رفعت الأقلام وجفّت الصحف".[٢٤٦]. وهي فلسفة تتماشى تماماً مع المثل القديم القائل: "اعقل وتوكل".

---

[٢٤٥]. رواه الترمذي

[٢٤٦]. المرجع السابق

# الجزء الخامس: النتائج



**الحكمة هي معرفة ما ستفعل لاحقاً، الفضيلة أن تنفِّذ ذلك.**

ديفيد ستار جوردن David Starr Jordan

عـادة مـا تـنجم أعظـم الاسـتنتاجات في الحيـاة وأكثرهـا دلاليـة عـن سلسلة أصغر من الخطوات المعرفية. وتمثل الفصول الثلاثة التالية الخطوات التي يرى المؤلـف أنها ضـرورية للتوصـل إلى أكثـر النتـائج اتزاناً ودقـة فيمـا يخص موضوع هذا الكتاب.

# ١ : الديانة المنحرفة

**سأل بلطيس الساخر ما الحقيقة؟ ولم يك ينتظر جواباً.**

فرانسِسْ بيكون Francis Bacon، **المقالات**

قبل عدة أعوام وصف أحد المتعصبين المسيحيين الإسلام لي قائلاً بأنه "ديانة منحرفة". وكان ذلك التحدي الدافع وراء كتابة هذه المؤلَّفات. إذ يمكن للخطب الرنانة المتحيِّزة أن يكون لها صدىً عاطفياً جياشاً، ولكن الحديث القائم على دليل يدعو إلى حقيقة لا يمكن لها أن تتبدل.

كان هذا المسيحي المتزمت واحداً من الببغاوات الذين يردّدون فكراً غربياً سائداً، يستهدف تحقيق إقناع عن طريق التشهير. إلا أن الدعاية الدينية تخفق في حجب الحقيقة عند من يُعمل عقله بحثاً عنها. وشيئاً فشيئاً سوف يدرك الناس أننا إذا ما أمطنا لثام التشهير عن وجه المؤسسات الموتورة، فإننا سوف نصادف في الغالب حقيقة تحظى بقدر كبير من القبول، حيث من شأنها أن تدحر التصورات المسبقة الزائفة كلها.

وهذان الكتابان **"من فقدوا الله"** و **"من وجدوا الله"** قد كُتبا لتعرية حقيقة التشهير وعرض الحقيقة الكامنة. دعونا الآن نعاين تهمة الانحراف.

فبادئ ذي بدء، يتطلب تحليل الانحراف منا التأسيس لإطار ثابت من المرجعية. وريثما نؤسس لهذا الإطار، فإن السؤال "انحراف عن ماذا؟" لن يكون له أساس تقوم عليه إجابة مقبولة. لأن الدين ببساطة أمر غير قابل للجدل. كما أن الدين السليم لا يمكن أن يكون له معيار سوى التقيد بتعاليم الله سبحانه وتعالى.

وإذا ما بحثنا عن السلامة في قانون ديني من صنع البشر، فإننا نخاطر القياس بالإشارة إلى المعيار الخطأ. فكل مجموعة من الجنود المنتمين إلى عقيدة معينة سوف ينظرون إلى الآخرين على أنهم منحرفون عن معيارهم غير السوي إذا ما تعاموا عن إمكانية كونهم هم على خطأ. ومن المؤسف أن معظم الأديان تغذي مثل هذا الشلل المعرفي، غارسة موقفاً غير مهادن مبنياً على مقولة "نحن ضدهم" في موقف النخبة الروحية.

وتجد من العسير في الغالب اقتحام مثل هذا الحاجز من الجهل المزمن. إلا أن هذا هو المكوِّن الثاني اللازم لتحديد الانحراف. إن مايتوجب علينا فعله هو القيام بالتحليل الموضوعي لابشيء سوى معانقة الحقيقة، سواء أكانت تلك الحقيقة تنسجم وآراء نعدّها بغيضة لنا، أم تتضارب ومبادئ نعتز بها.

وهناك بعضٌ ممن قد يقيس الانحراف وفق أعراف سائدة، إلا أن هذا

المنهج عرضة للخطأ كذلك. فلو كان رأي الأغلبية هو المعيار الذي تُقاس به الحقيقة لكانت مفاهيم أن الكواكب تدور حول الشمس، وأن الأرض كروية، والنظرية الجرثومية للمرض آراء فاسدة في الزمن الذي بدأ الناس بتصورها فيه.

وكذا الحال بشأن الأنبياء، فقد كانت الأقلية هي من قبل بهم في زمانهم. ولو كان الحكم للغالبة حينذاك، لكان الأنبياء على خطأ.

وتلك هي الفكرة.

وهكذا فليس من الضرورة أن تسير الأعراف الاجتماعية والحقيقة المطلقة جنباً إلى جنب على جادّة الواقع.

فإن الانحراف عن الأعراف الاجتماعية، والانحراف عن الحق المطلق لا يسيران جنباً إلى جنب على جادّة الواقع. دعونا إذاً نقيس وفق المعيار الموثوق الوحيد وهو الذي في حالة الدين مشيئة خالقنا.

فالمسلمون يقولون أنهم باعتناقهم الإسلام يسلّمون بمشيئة الله كما جاء بها محمد ونزلت في القرآن الكريم. ولا بد لأولئك الذين يزعمون أنهم يسلِّمون لله باعتناقهم اليهودية أو المسيحية من أن يواجهوا قوة الأدلة التي قدّمنا لها في كتابنا هذا. ونسأل وفق الدليل: أي الأديان هو على الصراط المستقيم الذي ارتضاه الخالق لنا، وأيها الذي ضل عن ذاك الصراط؟ وأي المجموعات تسلّم بكلام الله، وأيها تسلِّم بعقيدة قائمة على خطأ من وضع إنسان خطّاء متلاعب بالكتب السماوية؟

فلابد للمعلومات المقدمة في هذين الكتابين أن تسمح لمعظم الناس بأن يجيبوا عن هذه الأسئلة بأنفسهم. ولكن دعوني أقول لكم لماذا قد لاتكون الإجابة غير ذات بال في بعض الأحيان؟ فإذا كنت يهودياً فإن كتاب اليهود المقدس (أي العهد القديم) يأمرك باتباع الأنبياء المبشر بهم. ترى إلى أين يقودك ذلك؟ سوف يقودك إلى عيسى أولاً ثم إلى محمد ثانياً. وأما إذا كنت مسيحياً، فإن المسيح عيسى أمر أنصاره أن يتحروا النبي الخاتم المبشر به ويتبعوه. وهذا بدوره يقودك إلى محمد.

يبدو أن الطرق جميعاً تقود إلى الإسلام.

بل ربما من الأفضل القول إن هناك طريقاً **واحداً** يقود إلى الإسلام، أو لنقل على الأقل إن الطريق الوحيد الذي مافتئنا نناقشه في هذين الكتابين هو طريق الوحي.

وسواء أعمل الناس بهذه التبصرة أم لم يعملوا، فإن ذلك يعتمد على إرادة كل فرد في التسليم للأدلة التي سقناها له في هذين الكتابين.

# ٢ : التسليم

**العرفان السريع بالجميل هو الأعذب دوماً.**

مثل قديم.

إن التسليم لله – في ظاهره – ليس بالأمر العسير، فإن معظم الناس لا "يُسلِّمون" لله إلا بشروط. والشرط الأول الشائع في حالات كثيرة هو ببساطة وجود الله كما يرد في التصور الخاطىء لفاتحة الدعاء: "يا إلهي! إن كنت هناك ..". ويتضمن الشرط الآخر أمر الهداية وذلك بدعاء المرء الله أن يجعل منه إنساناً أكثر إيماناً في دينه الذي يؤمن به، كأن يقول "اللهم اجعلني ... أفضل" (ضع ماشئت في الفراغ).

ولكن هل هذا هو التسليم حقاً؟ فماذا لو كان اختيار المرء لمعتقد ما خاطئاً؟ وماذا لو كان الدين الذي اخترناه لأنفسنا ليس دين الله؟ فالتواضع يجبرنا أن نعترف بتقلب مزاجية الإنسان ومعقولية تقبّله للاحتمالات كافة، بما في ذلك الاعتقاد الخاطئ.

بناء على ذلك فإن التسليم لله لايمكن أن يكون كاملاً إلا إذا كان غير أناني.

وفي الواقع أن التسليم لله كلمة سهلة، ولكنه مفهوم غير سهل. إنه عمل يمثل تحدياً لأن غالبيتنا يربط مفهوم التسليم بالاستسلام للخصم. ولكن بينما يُعدّ الاستسلام للخصم هزيمة مُهِينة، فإن الاستسلام للخالق هو انتصار للإيمان. فالخصم يهدد بالإيذاء، والإذلال، والسجن، والتعذيب، والموت أيضاً. أما الخالق فيَعِد بالرحمة، والإحسان، والسلام والنجاة من النار.

والتسليم الديني يشبه إلى حد بعيد التسليم للعدو. فهنا كذلك لابد من التخلي عن أسلحة الدفاع عن النفس وأدواته، وكذلك التخلي عن جميع الروابط الاجتماعية والأسرية التي من شأنها أن تهدد باستعبادنا، وأن ننبذ جانباً عدم استحسان أصدقائنا أو السلطات ممن يقف عائقاً في وجهنا، وكذلك أن نتخلى عن أولئك الذي يهددون معتقدنا. ولكن **بخلاف** موقف التسليم للعدو فإننا هاهنا لانلقي بأسلحتنا إلى موقف من ضعف، بل إلى موقف من قوة. فأي قوة يمكن تضاهي محبة الله ودعمه لنا؟

إن الذين يسلّمون لعدو في الحرب يطلبون الفرار من القتل. وأما الذين يسلّمون الأمر لله فإنهم يفرّون من عالم الكذب، والأوهام الخادعة، والشهوانية المسيطرة، والإغراءات الجذابة، إلى من رحمته مكفولة، وعفوه مؤكّد، وأمنه مطلق.

فهو المعوَّل عليه في تلقي عباده بفضله وكرمه اللامحدودين.

وهو الذي خلق الناس جميعاً،

وهو الذي يرزقهم معيشتهم،

وهو الذي يصبر على خلقه،

ومع ذلك فهو الذي يكفر به غالبية البشر.

فهو يستحق منا أفضل مما نقدّم.

فالمخلصون يخفضون رؤوسهم أمام خالقهم عبر الإقرار بربوبيته والإذعان لطاعته سعياً للفوز بمغفرته. إنهم المخلصون الذين يمتثلون لأمره دونما تسوية، دونما تكبر، دونما مقاومة: تسليم تام غير مشروط، وكلّ استسلام دون ذلك هو تسليم مقايضة.

إن التسليم الديني – بخلاف كلّ تسليم للعدو – يتطلب العمل. وهنا لابد لنا أن نتفحص الأديان التي نتعرض لها ونقوم بغربلة للدعايات القائمة. فالذين يرفضون اليهودية بفعل التحيز على الجشع النمطي، أو يرفضون المسيحية اشمئزازاً من القساوسة الذين يتحرشون بالأطفال جنسياً فقد حكموا وفقاً لإخفاقات أتباع الديانة لا وفقاً لأركانها. وبالمثل فإن من يرفض العقيدة الإسلامية على أساس المفاهيم المروجة فإنه يحكم على هذا الدين وفقاً لما يقوله الناس لا وفقاً لما يقوله الله.

وبالمثل فإنه يتوجب علينا ألاّ نسمح للعادات والتقاليد بإعاقة التحليل المعرفي. وتصف سوزان لافولتْ Suzanne LaFollette الأمر بدقة حين

تقول: "ليس هناك شيء في الإنسان أكثر فطرية من ميله لتحويل ما قد غدا عادة لديه إلى ما هو منزّل من عند الله".[٢٤٧] وهكذا، بينما قد يتحد المسيحيون بشأن شجرة عيد الميلاد والصليب، إلا أن هذه الممارسات هي نتاج التقاليد لا التعاليم الإنجيلية. وفي الواقع يذهب الكثيرون إلى أن مثل هذه التقاليد يدينها الكتاب المقدس وتدينها القدوة الحسنة من الآباء الرسوليين.[٢٤٨]

وعلى نحو مشابه، فإن العديد من عادات الجاليات اليهودية والإسلامية ليست من الدين في شيء. فهناك من المتطرفين من يرتكب الفظائع التي تتناقض وجوهر العقيدتين اليهودية والإسلامية.

فعلى سبيل المثال إن الإكراه في الدين، والإرهاب، واضطهاد المرأة ليست جزءاً من الدين الإسلامي على الإطلاق، بل هي جزء من دعاية معادية للإسلام، بنيت على الأمثلة المنحرفة في قلة من الفاسقين المسلمين من الذين تحتل تصرفاتهم بعض العناوين الرئيسة بربط أعمالهم الضالة بالإسلام، ولكنها ليست جزءاً من الإيديولوجية الإسلامية.

وإذا كان علينا أن نحكم على الأديان من خلال حثالات من مثل هؤلاء، وما أكثرهم، فإننا لن نخلع الدين الإسلامي وحسب، بل كل

---

٢٤٧. La Follette, Suzanne. 1926. *Concerning Women*. "The Beginning of Emancipation"

٢٤٨. See Jermiah 10:2-4 regarding Christmas trees, Appendix 1 of this book regarding statues

الديانات.

إن المشكلة هي أن الأحداث الراهنة، والتجربة الشخصية، وماتروج له وسائل الإعلام يمكن أن تتسبب جميعاً بالإنحياز غير العادل، الذي غالباً ما يدفع بالناس لإدراك عناصر هامشية أنها هي مايحدد المعايير. ليست ملايين اليهود هم من يصنع الأخبار، بل باروخ غولدستاينز Baruch Goldsteins؛ وليست بلايين المسيحيين الطيبيين والمحسنين من يؤثر في عناوين الأخبار بل جيفري داهمرز Jeffrey Dahmers ومفجرو عيادة الإجهاض. والقول نفسه ينطبق على بلايين المسلمين الطيبين الذي لا يمثلون المتطرفين أو العصابات المسلحة. فليس كل اليهود من يطلق رصاص بنادقهم الآلية على من يؤدون صلاتهم، وليس كل المسيحيين مختلين عقلياً لكي يقوموا بتفجيرات عيادات الإجهاض، وليس كل المسلمين إرهابيين ويضمرون العداء لأبناء المعتقدات الأخرى. وإذا سمحنا لأنفسنا أن نؤمن بخلاف ذلك، فإننا لابد أن ننتهي بالحكم على المؤسسات ليس وفق قيمهم الحقيقية بل وفق حفنة الضالين الذين يمنحوننا الأسباب اللازمة كي نحمل البغض والكراهية. إن ذلك لايدمر المجتمع العريض وحسب، بل يدمر إنسانيتنا.

إذاً فلنحجم عن الحكم على دين ما وفق ماتفتريه وسائل الدعاية، أو وفق مايقوم به أتباعه الضالون، وما أكثرهم، من أعمال متطرفة.

وبمجرد أن نستطيع النظر فيما وراء التلاعب البشري في العقائد الدينية

المختلفة، فإنه يكون بمقدورنا أن نكمل بحثنا وذلك بالتضرع إلى الله كي يلهمنا الهداية. ولعل "صلاة الرب The Lord's Prayer" (متّى ٦:٩–١٣، ولوقا ١١:٢–٤) تمثل نقطة بداية حسنة للمسيحيين، أو لكلّ شخص آخر. فالصلاة تلك ليست خاصة بطائفة بعينها ويصعب على المرء العاقل الاعتراض على توسل "ينجيه من الشر". وإذا كان ثمة اعتراض على الإطلاق، فإنه إما أن يكون الهدي غير المطلوب على وجه التحديد، أو أن صيغتي الدعاء الواردتين تخالف إحداهما الأخرى على النحو التالي:

| (متّى ٦:٩–١٣) | (لوقا ١١:٢–٤) |
| --- | --- |
| «أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ. لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ. لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. وَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا. وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ. لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ وَالْقُوَّةَ وَالْمَجْدَ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ». | «أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا كُلَّ يَوْمٍ. وَٱغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا لأَنَّنَا نَحْنُ أَيْضاً نَغْفِرُ لِكُلِّ مَنْ يُذْنِبُ إِلَيْنَا وَلاَ تُدْخِلْنَا فِي تَجْرِبَةٍ لَكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ». |

ويبقى من غير المؤكد أي الصلاتين نطق بها عيسى، إن كان قد نطق بهما أصلاً. هذا إذا أخذنا بالاعتبار ما أعلنه المنتدى اليسوعي The

Jesus Seminar، الذي يتكون من مجموع من علماء الإنجيليين البارزين، وهو الكلمة الوحيدة الواردة في صلاة الرب هذه التي تنسب إلى المسيح هي "أبانا".[٢٤٩] وهذه النتيجة مذهلة، لأنها لا تهزّ فقط إحدى أكثر الأشجار قبولاً في غابة الدين المسيحي، بل هي في الواقع تشكك في شرعية وجود الشجرة أصلاً.

تحاول بعض الترجمات الحديثة إخفاء التناقض السابق بين نسختي "صلاة الرب" هاتين، لكن نسخة كلّ كتاب مقدس منشور قبل العام ١٩٧٠ ميلادية يورد التناقض الذي يعود إلى ألفيْ عام خلت.

وفي ضوء هذا الشك المخيف، يقدم المسلمون هذا الدعاء الوارد في السورة التالية والتي تمثل بديلاً مقبولاً تماماً:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ . ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ . مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (القرآن الكريم ١: ١–٧).

إنه دعاء بسيط ومحكم وغير متحيز لطائفة محددة. ويردد المسلمون

---

٢٤٩. *Newsweek*. October 31.1998. p. 80

المتمسكون بدينهم فاتحة القرآن الكريم هذه ما لا يقل عن سبع عشرة مرة في اليوم الواحد عبر العالم. ومن الممتع أن تجد كيف يمجّد هذا الدعاء الله ويستهديه دون أن يذكر اسم "إسلام" البتة. ومن الصعب أن تجد من يعترض على دعاء نقي وجداني خال من التحييز، وليس كما هو الحال في "صلاة الرب" الواردة أعلاه.

# ٣: نتائج المنطق

**إن النتائج المنطقية هي فزّاعات الحمقى ولكنها منارات العقلاء.**

*Animal Automatism* :Thomas Henry توماس هِنري هوكسلي
Huxley

يشير الكثير من اليهود والمسيحيين إلى أن الآية ١٣٦ من سورة البقرة تدعو المسلمين للإيمان بـ ﴿ ... وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾. وحجتهم في ذلك تتمثل في الشكل التالي:

بما أن القرآن الكريم يوصي المسلمين للاعتراف بالوحي الذي أُنزل على موسى والوحي الذي أُنزل على عيسى، وألا يفرّقوا بين الأنبياء، فإن القرآن الكريم يعترف بشرعية العهدين القديم والجديد.

ولكن هذا ليس صحيحاً.

فـ " مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ "كان وحياً.

وعلى كل، وكما يعرف علماء الدين كافة فإن توراة موسى وأناجيل عيسى قد ضاعت جميعاً منذ آلاف السنين. إن الذي بين أيدينا من هذه الكتب في الوقت الحاضر هو ماكان قد وصلنا منذ ألفي عام خلت، قد حُرّفت تحريفاً كبيراً عن النسخة الأصلية.[٢٥٠] ومن هنا نقول، فعلى الرغم من أن القرآن يعترف بالوحي **الأصلي** الذي أنزل على الأنبياء، فإن هذا لايمكن في حال من الأحوال أن ينطبق على العهدين القديم والجديد الحاليين في نسختيهما المشوهتين غير الصافيتين.

وثانياً، وإن أخذنا كتب اليهود والمسيحيين المقدسة على ماهي عليه الآن، فإن العهد القديم، والعهد الجديد والقرآن الكريم تؤسس لاستمرارية في سلسلة النبوة، والوحي، وعقيدة التوحيد. إن مانجده في العهدين القديم و الجديد هو معتقدات نفعية والتي مازال الكثيرون يعولون عليها من أجل الخلاص — معتقدات مثل إن اليهود "شعب الله المختار" على الرغم من أنهم نقضوا العهود مع الله، وأن المسيحيين كُتب لهم "الخلاص عبر الإيمان" على الرغم من أن عيسى المسيح لم يدع لمثل هذا قط. وفيما يتعلق بالموضوع، فإن المسيح لم يدعُ قط إلى ركن من أركان اللاهوت التثليثي.[٢٥١]

وبالمحصلة النهائية، فإن المسلمين يفترضون أن أولئك الذين يتتبعون

---

٢٥٠. للمزيد من الأدلة والمناقشة انظر "**من فقدوا الله**"، القسم الرابع.

٢٥١. انظر المرجع السابق، القسم الثالث

تعاليم الأنبياء في كتبهم المقدسة لابد أن يصلوا في نهاية المطاف إلى الإسلام. بمعنىً آخر، إن الأنبياء جميعاً دعوا إلى مذهب التوحيد ذاته، إلى استمرارية سلسلة النبوة ذاتها، وإلى القانون الإلهي ذاته مع بعض التعديلات الطفيفة. ولكننا وكما نرى اتساقاً في تعاليم الأنبياء، نكتشف اتساقاً في مساعي أولئك الذين يسعون إلى تشويه الوحي. فالأنبياء يقودوننا إلى الحقيقة، أما أندادهم (من أمثال بولس) فيحاولون أن يقودونا إلى الضلال. إن أداة الأنبياء هي الوحي، أما أداة أندادهم فهي الصوفية.

إن وجهة النظر الإسلامي إذاً هي أن كل مرحلة من مراحل الوحي هيّأت المؤمنين الحقيقيين للمرحلة التالية. وكانت العقيدة ثابتة دونما انقطاع في سلسلة النبوة. فالذين يتبعون سلسلة الوحي بإخلاص سيتقدمون من حلقة في مسار الوحي إلى المرحلة التالية، إلى أن يصلوا في المحصلة النهائية إلى النتيجة المنطقية، وهي القبول بخاتم الأنبياء محمد وخاتم الكتب السماوية وهو القرآن الكريم.

وهنا تأتيهم الدعوة التالية:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٣: ٦٤).

فهل يأتي بنو البشر إلى مثل كلمة السواء تلك؟ هل يجتمعون على عبادة الله وحده دون سواه؟ دون إشراك أحد في ألوهيته؟ لا أظن أن هذا قد حدث بعد.

ولكننا لسنا مسؤولين عن بني البشر جميعاً ... بل على كل إنسان أن يتحمل مسؤولية نفسه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ (القرآن الكريم ٥: ١٠٥).



على هذا يمكن للإسلام أن يوطّن شرعيته عبر إبراهيم على أنه الدين الأقدم والأكثر موثوقية. فقد دعا إليه الأنبياء كافة (وهو الدين ذاته الذي نزل الوحي به إليهم جميعاً)، والذي صدع به محمد خاتم الأنبياء جميعاً بالطريقة الجديدة المثلى بعد أن تلقاه مباشرة من ربه عبر الوحي دون أن تحل به أخطاء اليهود والمسيحيين أو تشويهاتهم. ومن القرآن يتضح أن المسلمين هم الأقرب إلى إبراهيم، وأنهم من بين نسل إبراهيم ليسوا الوحيدين ممن يعبد الله وحسب، بل هم المؤمنون الحقيقيون الوحيدون في هذا المجال.

هانز كونغ Hans Küng (٢٠٠٧): **الإسلام: الماضي والحاضر والمستقبل** *Islam, Past, Present and Future*. ص. ٥١



# الملاحق: الوثنية

**إنها لمفارقة غريبة عندما نجد أن من يبجّل الأصنام يعيش في إيديولوجيات زجاجية.**

لورانس براون L. Brown

الوثنية – يالها من فكرة بغيضة لكل موحد، ومع ذلك فهنالك العديد ممن يرتكب هذه الجريمة بنفسه. واليوم لا يستطيع أن يفهم تعقيدات هذا الموضوع فهماً كاملاً سوى قلة من البشر، وذلك لأن تعريف **الوثنية** قد تم دفنه تحت ركام ١.٧٠٠ عام من تقاليد الكنيسة.

وتنص الوصية الثانية على مايلي: «لا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتاً وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَخْدِمهُنَّ» (الخروج ٢٠: ٤–٥)

والترجمات البديلة لهذه الوصية تَستخدم كلمات مختلفة قليلاً ولكنها من الأهمية بمكان، فعلى سبيل المثال تترجم النسخة المعتمدة المنقحة

الجديدة من الكتاب المقدس "NRSV" الآية السابقة بـ «... لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ أَوْ **تَعْبُدْهُنَّ**».

إن الوصية بعدم صنع تماثيل منحوتة أو صور مماثلة تتحدث عن نفسها كقانون تحريم قطعي. وهذه أوامر لايمكن أن تكون أشد وضوحاً من هذا.

ولكن نقول إنها طبيعة البشر التي دأبت على البحث عن ثغرات في القوانين، وفي الضرائب، وفي الكتب المقدسة. وبالمحصلة، فإن هناك أناساً من الذين يعدّون الأمر الأول بعدم صنع «تِمْثَالاً مَنْحُوتاً» أو «صُورَةً مَا...» مشروطة بتمام كلمات الأمر وهي عدم صنع تماثيل أو صور لنخدمها أو نعبدها، وحجّتهم في ذلك أنه إن كان ليس ثمة مَن يعبد الصورة ذاتها، فإن صنع هذه الصورة أمر مباح. ولكن هذا مخالف لما تقوله الوصية. وفي جميع الأحوال فإن الحيطة تملي على المرء أن يجتنب مانهى الله عنه، وذلك لأن من يتجاوز الحدود لابد أن يحاسب على ذلك.

ولنعد الآن خطوة إلى الوراء ونسأل عن حقيقة معنى كلمتي **يخدم** و **يعبد**؟

فالفعل "**يخدم**" to serve وفق ماجاء في قاموس الويبستر Merriam Webestr's Dictionary يعني "يقدم الخدمة والاحترام

اللازمين (لمن هو أعلى)".[٢٥٢] فإن كان وضع الصور في أماكن بارزة (كوضع تماثيل لقديسين فوق قاعدة، أو تأطير أيقونات دينية ضمن إطار، إلخ.) وإنفاق الوقت والجهد والمال لنفض الغبار عن هذه الصور، وتنظيفها، والمحافظة على جمالها، وصيانتها ليست أعمال خدمة واحترام فماذا يمكننا أن ندعو هذه الأعمال إذاً؟

فيأتيك الجواب المسيحي المثالي: هذه الأعمال أعمال **خدمة** وليست أعمال **عبادة**.

ولكن لحظة من فضلك، إن كلمة "**عبادة**" لم تكن موجودة منذ ألفي عام، بل وفي الواقع، لم تكن موجودة منذ ألف عام مضت. فهي لم توجد في اللغة الإنجليزية خلال فترة الوحي وإن كان العهد الجديد قد كُتب بها في ذلك الوقت، وهو لم يكتب طبعاً. إذا، ما الكلمات التي كانت متوافرة في زمن الكتاب المقدس؟ وما المعنى الذي اشتقت منه كلمة "**عبادة**"؟

ليس عجباً، أننا إن تتبعنا كلمة "**عبادة**" إلى المعنى الذي اشتُقّت منه في الأصل وجدنا أنها تعني "شيئاً ذا قيمة"، "معنى الاستحقاق أو القيمة":

> كلمة "**عبادة** worship" كانت في البدء تتألف من اسم مركب يفترض معنى "القيمة". وقد تم تشكيلها من الصفة *worth* (ذو قيمة، يستحق) واللاحقة *ship*– (حال، وضع)،

---

٢٥٢. *Merriam-Webster's Collegiate Dictionary*. 1997. 10th edn. Merriam Webster, Inc.

وكانت في البدء تستخدم لِ "التميُّز، الاستحقاق، المنزلة، الكرامة..)، ثم سرعان ماتحوّلت لتعني "الاحترام أو التبجيل"، لكنها لم تستخدم في سياقات دينية على وجه الخصوص قبل القرن الثالث عشر، علماً أن أصل الفعل يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي.[٢٥٣]

وإليك ماجاء في **الموسوعة الكاثوليكية الجديدة**:

جاءت كلمة "**عبادة**" من الآنغلو – ساكسونية Anglo-Saxon التي تفيد معنى "القيمة أو الاستحقاق" والمقطع worth" هنا يقصد به (القيمة، الجاه أو الشرف). ولذلك ف "worship عبادة" تعني في الأصل "حالة القيمة، نوعية أن يكون الشيء/المرء ذا قيمة أو اعتبار".[٢٥٤]

فماذا تقول الوصية الثانية في الكتاب المقدس إذاً؟ أليست تنهانا عن الانحناء للصور التي هي من صنع البشر أو الصلاة لها (على طريقة العديد من الكاثوليك)، أو أن نقيم وزناً لها؟

ويجيبك المسيحي العام قائلاً: "لم نقم وزناً لهذه الصور". فنقول له: "بالله عليك؟ ترى ماعساك أن تفعل إن نحن قذفنا بها في سلة المهملات

[٢٥٣] Ayo, John. 1991. *Bloomsbury Dictionary of Word Origin*. London: Bloomsbury Publishing Ltd. .

[٢٥٤] *New Catholic Encyclopaedia*. Vol.14. p.1030 .

أو في علب القمامة؟" وبما أن هذه الصور لاقيمة لها، فماذا يتوجب على المرء أن يعمل بالأشياء التي لاقيمة لها؟ نلقي بها بعيداً بالطبع، أليس كذلك؟

ماأريد أن أقوله هو أن المسيحيين يقيمون وزناً كبيراً لصورهم، وفي هذا خرق للوصية الثانية من الكتاب المقدس.

هل ثمة طرائق أخرى يمكن توضيح معنى الوثنية بها أكثر من هذا؟

ولطالما عجبت لماذا اعتاد الناس (وبعضهم لايزال كذلك) أن يحيّوا رجال الدّين من أصحاب الشأن، أو الشخصيات الملكية، أو الشخصيات الاجتماعية الاعتبارية بالكلمات Your worship (ياصاحب المقام / يا مولانا). إن استخداماً لهذه العبارة يبجّل العامة من الرجال والنساء من أصحاب المكانة الاعتبارية، أو الاجتماعية، أو من أصحاب المناصب. فهل هذه عبادة؟ أقول: وفقاً للتعريف الذي قدمناه آنفاً: نعم هذا نوع من العبادة. فـ Your worship (ياصاحب المقام / يا مولانا) تعني بالتأكيد Your worthiness (ياصاحب القيمة، ياصاحب الاستحقاق) وتؤدي معنى التميّز والقيمة الرفيعة.

فهل هذا يعني أن العامة الذين استخدموا هذه العبارة كانوا يعبدون مخاطبيهم حين يبتدرونهم بها؟ نقول: من المؤكد ذلك. فباستخدامهم لتلك العبارة، لم يكونوا يؤدون حق العبادة وحسب، بل والتقديس أيضاً. وهذه الدينامية تنسحب كذلك على نجوم الموسيقا، والرياضة، والسينما في وقتنا

الحالي فضلاً عن رجال الدين، والشخصيات الملكية، والنخب الاجتماعية.

وهنا قد يقول قائل: لقد جاوزت، لابد أنك تسخر.

وأقول: لا بل إنني أحاول أن أكون دقيقاً.

فأنا لا أقول إن الله قد نهانا عن تشريف مثل هؤلاء الأفراد، بل أقول إن استخدام مصطلحات مثل Your worship هو نوع من العبادة. ولكن هذا يتجاوز الخط إلى المنطقة المحظورة حينما يتّخذ أناس أناساً آخرين **أرباباً** من دون الله، يقدمون لهم من آيات التبجيل والاحترام ما لاينبغي أن يقدم إلا لله. ولكن هل يستحق هؤلاء الذين يغتصبون سلطة الله ذلك التفضيل الذي يمنحهم إياه مثل هؤلاء الأفراد الباحثين عن قوانين الوحي وهديه؟ هل يستحق هؤلاء من صفات التقديس والتبجيل والمعصومية، أو أن تحنى لهم الجباه أو يُمنحوا من التوقير ما لايمنح إلا الله سبحانه؟

على هذا الأساس لاتتطلب الوثنية تماثيل على الرغم من أن التماثيل تزيد من درجة الإثم. ففي النهاية، وكما جاء في **الموسوعة الكاثوليكية الجديدة**: "تدل الوثنية على عبادة الآلهة وليس على عبادة الله الواحد الحق، كما أن استخدام الصور هو إحدى مميزات حياة الوثنيين". [٢٥٥]

---

[٢٥٥]. المرجع السابق، المجلد السابع، ص 348

ومن الممتع أن مثل هذا التعريف موجود في موسوعة كاثوليكية، أليس كذلك؟ إننا لانحتاج في مثل هذه الحالة أن نقرأ بين السطور لكي ندرك أن الموسوعة إنما تلعن ذاتها.

ومن أسف أن تجد العديد من الطوائف المسيحية الحديثة تنطلق في ممارساتها بناء على الأعراف والتقاليد أكثر مما هو مبني على الإنجيل، إذ نادراً مايُقَدّم الإنجيل على الأعراف لدى هؤلاء. والأمثلة كثيرة، فلو عدنا إلى الوراء إلى بدايات القرن السادس عشر، لوجدنا مسيحيي ساحل مالابارالنسطوريين في الهند Nestorian Christians of the Malabar Coast قد قُدّمت إليهم صورة لـ "مريم العذراء" للمرة الأولى. وقد بقي هؤلاء المسيحيون الهنود معزولين عزلاً شبه تام عن التأثيرات الأوروبية، وبالتالي بقوا على جهل تام بالتغيّرات التي أجرتها مختلف المجالس council والمجامع synods على الكنائس الأوروبية. ولم يتم اتصالٌ ما بين المسيحيين الأوروبيين وإخوانهم من الهنود إلا مع تأسيس طرق الملاحة البحرية في القرن السادس عشر. وكما يلحظ إدوارد غيبّون E. Gibbon:

> إن انفصالهم عن العالم الغربي لمدة تزيد على ألف عام تركهم في جهل عما كان يحصل في الكنيسة، سواء أكان ما يحصل فيها إصلاحاً إم إفساداً. ولاشك أن اتباعهم لعقيدة القرن الخامس وممارساته الدينية كان من شأنه أن يخيب تعصب المسيحي

الكاثوليكي أو البروتستانتي على حد سواء.[٢٥٦]

فكيف كانت ردة فعلهم عندما قُدّمت إليهم صورة لـ "مريم العذراء"؟

... وكم كان يؤذي سمعهم سماع اللقب "أم الله" يطلق على مريم العذراء. فقد كانوا يقيسون فضائلها بكثير من الحرص والحيطة، وهي الفضائل ذاتها التي بالغت خرافات المسيحيين اللاتين Latins في استخدامها لدرجة أنهم رفعوا مريم العذراء لمرتبة الآلهة. وعندما قُدّمت صورتها لأتباع القديس توماس لأول مرة، ما كان من هؤلاء إلا أن صاحوا بسخط قائلين: "إنما نحن مسيحيون لا وثنيون".[٢٥٧]

ومن الجدير بالملاحظة أن مسيحيي ساحل مالابار لم يكونوا على صواب أو لم يكونوا وحدهم في وجهات نظرهم هذه:

لقد كان المسيحيون الأولون يمقتون أشد المقت استخدام التماثيل والصور الدينية وإساءة استخدامها، وقد ترجع هذه الكراهية إلى أنهم كانوا من نسل اليهود، وإلى عداوتهم لليونان. وكانت الشريعة الموسوية قد حرّمت بشدة وصرامة كل مايمثل الله، ورسخت هذه السنّة رسوخاً قوياً ثابتاً في مبادئ الشعب المختار وفي تصرفاته وفعاله. ووجّه المحاجّون

---

٢٥٦. Gibbon, Edward, Esq. Vol. 5, Chapter XLVII, p. 263

٢٥٧. المرجع السابق

والمجادلون المسيحيون ذكاءهم إلى مناهضة الوثنيين الحمقى الذين كانوا يحنون رؤوسهم أمام ماتصنعه أيديهم، وهي التماثيل النحاسية والرخامية التي – لو أنها **أوتيت** الفهم والحركة – لكان الأحرى أن تثير قاعدتها الافتتان بالقدوة الخلاّقة التي اتسم بها صانعها الفنان.(٢٥٨)

أو لنقل ذلك بطريقة أكثر بساطة وأقرب إلى الفهم العام:

لقد هاجم المسيحيون الأوائل عبادة الصور على أنها من عمل الشيطان، وعندما انتصرت المسيحية في نهاية المطاف، كان هناك تدمير بالجملة لأنواع الأصنام كافة. ولكن الصور زحفت على مدار العصور التالية لتظهر من جديد تحت مسميات جديدة لتؤدي الوظيفة ذاتها التي كانت تؤديها وفقاً لما كانت تراه العين الناقدة. لقد كان مسيحيو الشرق أول من بدأ يستشعر أن الكثير من الديانة الوثنية التي بذل آباؤهم الكثير من دماء الشهادة في سبيل التخلص منها قد عادت للظهور من جديد دون معنى.(٢٥٩)

[٢٥٨]. المرجع السابق، الفصل 49 ، ص . 359

[٢٥٩] Chamberlin, E.R. 1993. *The Bad Popes*. Barnes & Noble, Inc., p. 11 .

ومهما يكن فقد سُمح للفن الديني بالظهور في مجلس نيقية في العام ٣٢٥ للميلاد، ومنذ ذلك الحين أخذت عبادة الأوثان تغزو القُدّاسات في الكنيسة الكاثوليكية. ويعلق غيبّون على ذلك بالقول:

في بادىء الأمر جرت تجربة عبادة الصور والتماثيل في حرص وتورع، واتجه استخدام الصور المقدسة في شيء من الحكمة إلى تهذيب الجَهَلة، وإيقاظ ذوي الإيمان الفاتر، وإشباع تحيّز المهتدين الوثنيين. ثم تطور الأمر تطوراً بطيئاً، وإن يكن حتمياً، فانتقلت أمجاد الأصل إلى الصورة، وأخذ أتقياء المسيحيين يقيمون الصلاة أمام القدّيس، وتسربت إلى الكنيسة الكاثوليكية شعائر الوثنية المتمثلة في الركوع، وإيقاد الشموع، وحرق البخور.[٢٦٠]

ويمضي الوقت (يتابع غيبّون تعليقه):

تسربت عبادة الصور والتماثيل الدينية إلى الكنيسة شيئاً فشيئاً، وبطريقة غير محسوسة. وكانت كل خطوة صغيرة تبهج العقل المؤمن بالخرافات؛ لأنها تمنحه العزاء والبرء من الذنوب. ولكن في بدء القرن الثامن — حيث كان سوء استخدام تلك الصور والتماثيل قد بلغ ذروته — أيقظ اليونان الأكثر تهيباً خوفهم من أنهم، تحت ستار المسيحية، قد أعادوا ديانة

[٢٦٠] Gibbon, Edward, Esq. Vol. 5, Chapter XLIX, p. 361.

آبائهم وأجدادهم وسمعوا في حزن وملل وصمهم بالوثنيين — وهي تهمة وجهها إليهم بصورة مستمرة اليهود والمسلمون الذين استمدوا من شريعة موسى ومن القرآن كراهية دائمة للتماثيل المنحوته ولكل عبادة لغير الله.(٢٦١)

لقد عارض إدخال عبادة الأصنام جميع المسيحيين من الذين كانت ديانتهم مبنية على الإنجيل، والقدوة الرسولية، وتعاليم الأنبياء. ومن هنا فعندما طلبت قسطنطينة Constantina التي دعيت أخت الإمبراطور قسطنطين Constantin بالتوافق تمثيلاً لصورة عيسى المسيح وذلك في العام ٣٢٦ للميلاد، أجابها يوسيبيوس نيكوميديا Eusebius of Nicomedia بعجرفة قائلاً: "ماذا؟ وأي تمثيل لعيسى المسيح هناك؟ إن صوراً كهذه محرّمة وفق الوصية الثانية".(٢٦٢)

ومنذ مايزيد على قرنين خليا سطّر جوزيف بريستلي Joseph Priestley ملخصاً لم يشرح فيه تاريخ فساد المسيحية الراشدة Christian orthodoxy وحسب، بل شرح أسباب هذا الفساد أيضاً، وذلك بقوله:

أما وقد بدأ ببناء المعابد تشريفاً لبعض القديسين، وبخاصة من قضى منهم شهيداً، فقد كان من الطبيعي تزيين هذه المعابد

٢٦١. المرجع السابق، ص 365.

٢٦٢ Hodgkin, Thomas. 1967. *Italy and Her Invaders*. Vol.VI, Book VII. N.Y.: Russell & Russell. p.431 .

بلوحات ومنحوتات تمثل مآثر هؤلاء القديسن العظيمة. وكان ذلك مناسبة جعلت بعض الكناس المسيحية تبدو وكأنها معابد وثنية. كما كان يزين هذه الكنائس تماثيل وصور، الأمر الذي كان من شأنه الدفع بالجماهير الغفيرة الجاهلة نحو نوع جديد من العبادة، ولطالما كان هذا التحول طريقة عبادة أكثر سهولة.

وقد ميّز بولينوس Paulinus نفسه بهذه الطريقة. وكان بولينوس هذا عضواً بارزاً في البرلمان، وكان واسع المعرفة. وقد تحوَل من الوثنية إلى المسيحية، وقبل وفاته كان مطراناً لمدينة نولا Nola في إيطاليا. أعاد بولينوس بناء كنيسته الأسقفية بناء رائعاً، وقد أوقفها للقديس فيليكس Felix الشهيد. وفي رواقها عند المدخل نقش على الجدران معجزات موسى وعيسى، إلى جانب أعمال فيليكس وشهداء آخرين ممن كانت رفاتهم مدفونة في الكنيسة. وقال إنه قام بفعل ذلك بهدف تحويل الدهماء من الجماهير، الذين اعتادوا ممارسة طقوس الوثنية المحرّمة، إلى تعلّم العقيدة المسيحية وآرائها السديدة وذلك عن طريق معرفة تراجم القديسين المسيحيين وأعمالهم عبر تلك الصور والرسومات مما لم يستطيعوا تعلمه من خلال الكتب.

وما أن بُدِئَ بحيازة الصور في الكنائس لأول مرة (وإذْ بدأت عموماً على أيدي معتنقي المسيحية الجدد آنئذ من الوثنيين وكان ذلك حوالي القرن الرابع أو بدء القرن الخامس الميلادي) حتى

أخذ أثرياء المسيحيين يتبارون فيما بينهم حول من يزين كنيسته بطريقة أكثر بزخاً وترفاً، وربما لم يستطع أحد قط أن يبزّ ماقام به بولينوس في كنيسته تلك.

ويظهر من خلال القديس جون كريسوستوم Chrysostom (٣٤٧-٤٠٧ للميلاد) أن الصور واللوحات كان يمكن رؤيتها في الكنائس الرئيسة في زمانه، ولكن هذا كان في المشرق. أما في إيطاليا فكانت الصور واللوحات شبه نادرة في الكنائس عند بداية القرن الخامس، وقد فكر مطرانها — الذي كانت كنيسته قد زينت بالعديد من اللوحات والصور — أنه من المناسب أن يقدم اعتذاراً بسببها لأنها سوف تشغل الناس عن التسلية بأنفسهم. وربما كان الموطن الأصلي لهذا العرف هو كابادوكيا Cappadocia حيث كان غريغوري نايسينوس Gregory Nyssenus مطراناً وهو من أوصى غريغوري ثاوماتورغوس Gregory Thaumaturgus لابتكار طريقة تقام فيها الاحتفالات المسيحية بطريقة تشبه فيها الاحتفالات الوثنية.

وعلى الرغم من أن الكثير من الكنائس الحديثة مزينة بصور القديسين والشهداء، لكن صور المسيح فيها قليلة، حيث يقال إن الذي أدخل هذه الصور هم الكابادوكيون Cappadocians؛ وإن أولى تلك الصور للمسيح كانت في البدء رمزية على شكل حَمَل. وعندما وجد إبيفانوس Epiphanus واحدة من هذه

الصور في العام ٣٨٩ للميلاد، استشاط غضباً لدرجة أنه قام بتمزيقها. أما صورة المسيح على شكل بشر فلم يُصرح بها قبل مجلس القسطنطينية Council of Constantinople الذي دعي إنترولو In Trullo في أواخر العام ٧٠٧ ميلادية.[٢٦٣]

وفي العام ٧٢٦ للميلاد حين لم يكن قد مضى على مجلس القسطنطينية سوى تسعة عشر عاماً، بدأ إمبراطور القسطنطينية ليو الثاني Leo II (والمعروف بـ ليو محطم الأوثان) بتحطيم الأوثان ضمن صلاحيات نفوذه الموسعة. وقد علق توماس هودجكين Thomas Hodgkin على ذلك بالقول:

> لقد كان الاحتكاك بالمحمدية [الإسلام] هو الذي فتح عيني ليو الثاني ومن حول عرشه من الرجال، سواء الكهنوت منهم أم العامة، على ما حلّ بالكنيسة من خرافات وثنية أخذت تغشى حياة ديانة كانت تعد الأكثر نقاء وروحانية بين الأديان التي شهدها العالم، والتي سرعان ما أضحت واحدة من أكثرها خرافية ومادية. كانت هذه الديانة في البدء تحجم عن تمثيل شكل من الأشكال المرئية مهما كانت، ولكنها سرعان ما سمحت لنفسها

---

٢٦٣. Priestley, Joseph. LL.D. F.R.S. 1782. *An History of the Corruption of Christianity*. Birmingham: Piercy and Jones. Vol.1; "The History of Opinions relating to Saints and Angels," Section 1, Part 2— "Of Pictures and Images in Churches." pp.376-7.

استخدام الرموز الجميلة المحزنة (مثل صورة الراعي الطيب). وفي القرن الرابع سعت الكنيسة المسيحية كي تلقن الحشود الكبيرة الوافدة في دينها من أتباعها الجدد إثر فتوحات الإمبراطور قسطنطين بأن يزيّنوا جدران الكنائس بالأحداث العظيمة من تاريخ الكتاب المقدس. وفي أعقاب ذلك، غدا التحول إلى تبجيل صور المسيح ، ومريم العذراء، والقديسين أمراً طبيعياً وسهلاً. أما السخف والكفر الذي توّج ذلك، وهو تمثيل خالق الكون العظيم بأنه عجوز هرم ذو لحية طافية في السماء، فلم تجرؤ البشرية على ارتكابه إلا بعد أن بدأت بالغوص عدة أمتار في غياهب العصور الوسطى. عند ذلك كان قد وقع من الأفعال مايكفي ليدل على الاتجاه الذي كانت تتجه الكنيسة نحوه، ولتعطي أتباع النبي [محمد] من أسباب السخرية بنا عندما أطلقوا علينا لقب "الوثنيين"، أولئك الذين كانوا يقطنون مصر وسورية من الجبناء والرقيق.(٢٦٤)

إن مفارقة تحوّل ليو الثاني من منتصر على عرب الشرق المسلمين في أوروبة الشرقية إلى ليو الثاني محطم الأوثان لامناص من التعليق عليها. فبعد أن هزم المسلمين، تبنّى دوافعهم في إلغاء الوثنية. وعلى كلّ حال فقد حاول البابا غريغوري الثاني Gregory II أن يكبح جماح ليو الثاني

٢٦٤. Hodgkin, Thomas. Vol.VI, Book VII. p.431

بالمجلس التالي:

> هل أنت غافل عن حقيقة أن الباباوات هم رباط الوحدة، وهم وسطاء السلام بين الشرق والغرب؟ إن عيون الأمم مسمرّة على تواضعنا، وهم يوقِّرون الرسول القديس بطرس على أنه الله في الأرض، في حين نراك تهدد بتحطيم صورته ... كفّ عن تهوّرك ومغامرتك المصيرية. فكر مليّاً، ولترتعد فرائصك، وأحذر أن تعود لمثله. وإن أبيت، فإننا برآء من الدّم الذي سوف يسفك، ونرجو أن يُسفح ذلك الدم على رأسك أنت.[٢٦٥]

وكما قال جورج برنارد شو George Bernard Shaw في مسرحيته القديس جوان *Saint Joan*: "يتوجب على الكنائس أن تتعلم التواضع وكذلك عليها أن تعلّمه".[٢٦٦] ولاشك في أن الشخص الذي ينادي بأعلى صوته "هلاّ نظرتم إلى تواضعي الجم! لا أظن أن ثمة تواضعاً آخر يدانيه" هو شخص بعيد عما يقول. أو بشكل أدق، أقول إن البابا الذي يقاطع الصور ولكنه في الوقت ذاته يقول "أما بالنسبة لتمثال القديس بطرس ذاته، الذي تعده ممالك الغرب قاطبة أنه الله في الأرض، وأن الغرب بأكمله سوف ينتقم"[٢٦٧] عليه أن يدرك أنه يرتكب مخالفة لاهوتية تقارب حجم كوكب. ومن هنا يبدو واضحاً من الذي يتوجب عليه أن "يفكر

---

٢٦٥. Gibbon, Edward, Esq. Vol. 5, Chapter XLIX, p.367-7.

٢٦٦. Shaw, George Bernard. 1924. *Saint Joan*. Preface.

٢٦٧. Labbe, P. Venice, 1728-1733. *Sacrosancta Concilia*. Vol.VII, p.7.

ملياً، وأن ترتعد فرائصه، وألا يعود لمثله".

بما أن البابا غريغوري الثاني وأتباعه كانوا مستعدين لشن حرب دفاعاً عن صورهم، فإن ذلك يبرهن على القيمة العالية الخارقة (أي القيمة، والقدر، وبالتالي **العبادة**) التي كانوا يضعونها في مثل تلك الصور. وأما بالنسبة للدماء فقد أراقوا منها لدرجة أن الهزيمة التي لحقت بجيش ليو الثاني في معركة رافيننا Ravenna قد أحالت لون ماء نهر بو Po أحمر. لقد تلوثت مياه النهر لدرجة أن "أنف الناس الصيد في ذاك النهر لمدة ست سنوات...". [٢٦٨]

وعندما التأم مجمع القسطنطينية في العام ٧٥٤ ميلادية، بدأت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية حملة مقاطعة بدعوى عدم اتساق الكنيسة الإغريقية مع التعاليم الكاثوليكية، أو لنقل إن ذلك كان أقل اعتذار يمكن أن يقدموه لتجنب الحضور. ولكن المشهد الأكثر احتمالاً هو أن الكاثوليك أدركوا عدم قدرتهم على الدفاع عن ممارسات يقومون بها، وقد لعنها الله الذي يدّعون عبادته في الكتاب المقدس.

ومهما يكن فقد انعقد مجمع القسطنطينية دون حضورهم:

> وبعد مشاورات جادة دامت ستة أشهر، وقّع ثلاثمائة وثمانية وثلاثون مطراناً مرسوماً بالإجماع أعلنوا فيه أن جميع الرموز المرئية للمسيح، ماعدا تلك التي في القربان المقدس ("الإفخارستيا"

---

[٢٦٨] Gibbon, Edward, Esq. Vol. 5, Chapter XLIX, p.379 .

Holy Eucharist)، هي إما كفر أو هرطقة؛ وأن عبادة الصور فساد في المسيحية وتجديد للوثنية. كما أعلنوا أن جميع آثار الوثنية هذه يجب إما أن تحطّم أو تمحى، وأن على جميع من يمتلك موضوعات شعوذات خاصة أن يقوم بتسليمها، ومن أبى فهو آثم بعصيان الطاعة لسلطة الكنيسة وسلطة الإمبراطور.[٢٦٩]

إن حقيقة إعفاء المجمع القربان المقدس من ربطه بالوثنية يبعث على الفضول وبخاصة للعارفين بالشعائر والطقوس الفارسية والمصرية. فالفرس استخدموا الماء المقدس والخبز في عقيدة مِيثرا Mithras [إله النور] القديمة.[٢٧٠] وكما يلحظ ت. و. دوُيْن T.W.Doane في دراسته التي قام بها في العام ١٩٧١ بعنوان: **أساطير الكتاب المقدس ونظائراها في ديانات أخرى** *Bible Myths and Their Parallels in Other Religions*:

إننا نجد أقرب شبه للسر/القربان المقدس Sacrament عند المسيحيين هو ما كان في ديانة فارس القديمة – وهي ديانة مِيثرا الشفيع the Mediator، والمنقذthe Redeemer ، والمخلِّص the Savior – الذي جاء من عندهم على أغلب الظن. وربما الذي جاء بهذا السر إلى المسيحية هم من كان يعرف أسرار

---

٢٦٩. المرجع السابق، ص 369

٢٧٠. Bonwick, J. F.R.G.S. 1956. *Egyptian Belief and Modern Thought*. Colorado: Falcon's Wing Press. p.417

مِيثرا أو من كان من أتباعه، الذين أدخلوا سر الخبز والنبيذ المقدَّسَيْن إلى المسيحية...

وهذا الطعام الذي دعوه بالقربان المقدس لم يكن يُسمح لأحد بالمشاركة فيه سوى الأشخاص الذين يؤمنون أن الأشياء التي كانوا يعلمونها كانت صحيحة وهم الذين تم غسلهم بماء يمحو الخطايا. كما ورد ذكر المِيثرائيين في كتابات تِرتولْيان Tertullian، الذي اشتُهر مابين الأعوام ١٩٣-٢٢٠ ميلادية، والذي قال إن المؤمنين منهم كانوا يحتفلون بالقربان المقدس.

وأما المجوس the Magi فكانوا يدعون مِيثرا بـ الثالوث الثاني في ثالوثهم المقدس، وهو الرب، والمخلّص، وأضحية القربان. لقد كان قربانه المقدس يقام دوماً بالطريقة ذاتها التي كان يقوم بها المسيحيون الأرثوذكس orthodox، وذلك لأن كليهما كان يستخدم الماء بدلاً من النبيذ أحياناً، أو مزيجاً من الاثنين معاً.[٢٧١]

كما كانت عقيدة أوزيريس Osiris (إله الحياة، والموت، والخصب عند قدماء المصريين) تقدم الإغراء ذاته في طريقة خلاص سهل من النار بالطريقة ذاتها التي قدمها مفهوم بولس عبر عقيدة الفداء عند المسيح. "إن سر تلك الشعبية هي أنه [أوزيريس] قد عاش على الأرض محسناً، ومات

٢٧١. Doane, Thomas W. 1971. *Bible Myths and Their Parallels in Other Religions*. N.Y.: University Books. pp.307-308.

من أجل صالح البشرية، ثم عاش من جديد خليلاً وقاضياً".[٢٧٢] ولقد كان قدماء المصريين يحيون مولد أوزيريس بحمل المهد وإشعال الأنوار، ويحتفلون بذكرى بعثه المزعوم. كما كانوا يقيمون ذكرى تأبين لموته بأكلهم الخبز الذي يقدّسه كهنتهم. وكانوا يعتقدون بأن هذا التقديس إنما كان يمثل تحويل الخبز إلى جسد أوزيريس.[٢٧٣] وإذا مابدا لنا أن جميع هذه الأشياء مألوفة، ولابد أنها كذلك، لأنه كما كتب جيمس بون ويك James Bonwick "فكما هو متعارف عليه من أن الخبز يصبح رمزياً جسد المسيح بعد شعائر الكهنة، فكذلك كان أناس نهر النيل يعلنون أن خبزهم كان يصبح جسد أوزيريس أو أيزيس Isis بعد تقديس الكهنة له: وبهذه الطريقة كان أوزيريس و أيزيس إلهين لوادي النيل".[٢٧٤]

ويمضي جيمس بون ويك بالقول:

> إن كعك أيزيس كان دائري الشكل مثل كعك أوزيريس، وكان يوضع فوق المذبح. ويقول غلِيدّون Gliddon "إن ذلك الكعك كان يطابق في شكله الكعك المقدس للكنائس الرومانية والشرقية". ويؤكد لنا ميلفيل Melville أن "المصريين كانوا يَسِمون هذا الخبز المقدس بصليب القديس آندرو St. Andrew". وكان خبز **الحضور** يقسّم إلى قطع قبل أن يوزّع

---

٢٧٢. Bonwick, James. p.162

٢٧٣. المرجع السابق، ص 163

٢٧٤. المرجع السابق، ص. 417

على الجمهور على افتراض أنه جسد ودم الرب. وقد أُحدثت هذه المعجزة على يدَي الكاهن الذي كان يؤدي المراسم والذي كان يبارك الخبز ".[٢٧٥]

وعلى نحو مماثل كان قدماء البوذيين Buddhist يقدمون قرباناً مقدساً قوامه الخبز والنبيذ، وقدم الهندوس Hindu قرباهم من عصير السّوما soma (وهو خلاصة نبتة مسكرة)، كما قدم قدماء الإغريق قرباهم المقدس من الخبز والنبيذ إكراماً لـ ديميتَر Demeter (آكا سيريس aka Ceres آلهة المحصول عندهم)، ولـ ديونيسوس (آكا باخوس aka Bachus آلهة الخمرة عندهم). وبهذه الطريقة فقد أكلوا من جسد آلهتهم وشربوا من دمها".[٢٧٦]

إن المتوازيات الدينية واضحة للعيان لدرجة أنها لاتحتاج لشرح. ويمكن لنا أن نسأل سؤالاً عقلانياً هنا وهو كيف أمكن لعقائد أيزيس و أوزيريس أن تضع إشارة صليب القديس آندرو على خبزهم المقدس قبل مولد هذا القديس بألفي عام؟ هل كان هذا تبصرة من جانب المصريين، أم سرقة أدبية من جانب القديس آندرو؟ بالإضافة إلى أن هناك تشابهات صارخة بين أسرار المسيحية البولسية وأسرار عقائد أيزيس و أوزيريس— أسرار تشتمل على الولادة العذرية (أيزيس الأم العذراء، وحورس Horus الطفل)

---

٢٧٥. المرجع السابق، الصفحات 418-417

٢٧٦. Doane, Thomas W. pp.305-309

وتضحية أوزيريس في التكفير عن خطايا البشر، وماتلاها من بعثه وبدء توليه وظيفة المنقذ. وقد فنّد جَستِن مارتر Justin Martyr المدافع الشهير عن المسيحية نقط التشابه هذه بزعمه أن الشيطان قد نسخ الطقوس المسيحية لكي يضل بقية بني البشر.[٢٧٧] ولكن إذا ما دونّا تسلسل الأحداث زمنياً، فإننا نجد أن ممارسات القرابين المقدسة وأسرار العقيدة هذه قد سبقت القرابين المقدسة وأسرار العقيدة الكاثوليكية بأكثر من ألفي عام تقريباً.

وقد توصل ت. و. دوُيْن إلى نتائج هذه الحقيقة بقوله:

> إن هذه الحقائق تُظهر أن القربان المقدس هو أمر آخر أخذه المسيحيون عن الوثنية. فقصة المسيح والحواريين على مائدة العشاء، حيث يقسّم السيد الخبز قد تكون صحيحة، إلا أن المقولة التي صرّح بها "افعلوا هذا تخليداً لذكراي" .. "فهذه القطعة جسدي" و "هذه دمي"، لاشك أنها كانت بدعة تمت استعارتها من الوثنية لكي تضفي الشرعية على ذاك الطقس الصوفي.[٢٧٨]

مقولات مبتدعة في الكتاب المقدس؟ كيف حدث ذلك وقد سجلت جميع الأناجيل كلمات المسيح في مائدة عيد الفصح؟ نعم هذا ممكن، ولم لا؟ فوفق ماجاء في (يوحنا ١٣: ١): اعتقل المسيح قبل مأدبة المناولة

---

٢٧٧. المرجع السابق، ص 307

٢٧٨. المرجع السابق، ص 312

Passover feast. ومن هنا فالخلاف هو بين إنجيل يوحنا و ال synoptics (مجموعة الأناجيل الثلاثة الأولى)، أو لنتكلم بإنصاف بين إنجيل يوحنا ومجموعة ال "Q" (وهي اختصار الكلمة الألمانية *Quelle* والتي تعني "المصادر") أي وثيقة المصدر العام للأناجيل الثلاثة الأولى Synoptic gospels.

ولكي لايسيء أحد فهم الكاثوليكية، نقول إن الكاثوليك أنفسهم لايطيقون التفسير الرمزي لشعائر قربانهم المقدس. فمجلس ترِنْت Council of Trent (المنعقد بين عامي ١٥٤٥-١٥٦٣ للميلاد) أسس للقوانين المتعلقة بالاستحالة Transubstantiation [استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه] وهذه القوانين لاتزال سارية إلى يومنا هذا. ولم يغير هذا القانون مجلس من المجالس التي عقدت لاحقاً بما فيها مجلس الفاتيكان الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) الذي كان أكثرها ليبرالية. ونقرأ باختصار ماجاء في أحكام مجلس ترِنْت:

> القانون ١: إذا قال أحد إنه في سرّ القربان المقدس (الإفخارستيا Holy Eucharist) لا يوجد في الحقيقة والواقع جوهرياً جسد سيدنا يسوع المسيح ودمه، وفي الوقت نفسه ولاهوته، أي المسيح كله، بل قال إنها لاتوجد إلا رمزياً وصورياً

أو بالقوة: فليكن أناثيما [أي محروماً].[٢٧٩]

القانون ٦: إذا قال أحدهم إن المسيح ابن الله الوحيد في سر القربان المقدس (الإفخارستيا)، يجب أن لا يُعبد، حتى خارجياً،[٢٨٠]م.ت. ويجب من ثمَّ ألاّ يحتفل به في عيد خاص، ولا يُحمل باحتفال في زياحات [مواكب] بحسب طقس الكنيسة الجامعة المقدسة أو تقليدها، ولا يُعرض علانية لعبادة الشعب، إذ أن الذين يعبدونه هم عبّاد الأوثان: فليكن أناثيما [أي محروماً].[٢٨١]

بمعنى آخر إن من يرفض أن يعبد، ويبجل، أو يعظّم فإن عليه أن يواجه المصير ذاته الذي يواجهه من يقول إن القربان المقدس رمزي. وهذه القوانين الكاثوليكية لا تزال في الكتب حتى تاريخه، وهو مايشرح سبب ابتعاد الكثير من إخوانهم من الطوائف البروتستانتية عنهم. ونجد أن بعض هذه الطوائف البروتستانتية قام بإلغاء سر القربان المقدس في حين قام

---

٢٧٩. Schroeder, Rev. Henry J., O.P. 1941. *Canons and Decrees of the Coucil of trent* (Original text with English Translation). London: B. Herder Book Co. p.79

٢٨٠. لاتريا *latria* العبادة لله وحده دون غيره، على النقيض من دواليا *dualia* (الشرف الممنوح للقديسين)، و هايبردواليا*hyperdualia* (الشرف الممنوح لمريم العذراء).
McBrien, Richard P. (General Ed.). 1995. *HarperCollins Encyclopedia of Catholicism.* N.Y. HarperCollins Pubishers

٢٨١. Schroeder, Rev. Henry J. p.80

آخرون بالتقليل من أهميته. وليس من الصعب فهم سر هذه الاستجابة وذلك لأن العديد من الثقافات الوثنية توارثت قيم أجدادها من الطواطم Totem عبر تناول "الخبز بعد أن استحال جسداً". ولكن الذي يبقى مثار جدال دائر إلى اليوم هو أي المجموعات تلك هي صاحبة قطعة الخبز المقدسة الأصلية؟

وبالعودة إلى الموضوع الرئيس، نقول إن الكنيسة الكاثوليكية استجابت لمجلس القسطنطينية الذي عقد في العام ٧٥٤ ميلادية وذلك بالدعوة إلى عقد مجلس نيقية في العام ٧٨٧ للميلاد. وهذا المجلس أرجع عبادة الصور إلى سابق عهدها على أساس أن "عبادة الصورة يتوافق والكتاب المقدس والعقل، ويتوافق وآباء الكنيسة ومجالسها...".(٢٨٢)

وفجأة بدأت نظرية مجموعة كهنة من المهلوسين في القرن الثامن تتشكل على أنها نظرية جيدة. وعلينا أن نتساءل ترى أي آباء رسوليين وأية أناجيل كانت مرجع هؤلاء الكهنة؟ وعلينا أن نسأل كيف يمكن لمثل ذلك القرار أن "ينسجم والإنجيل والعقل"؟

وعلى كلّ حال، فإن الجاليات الدينية التي اعترضت على عبادة الوثن المسيحي قد تم "تطهيرهم" على يد الجيوش الكاثوليكية. وسرعان ما بدأت الإمبراطورة ثيودورا Theodora بمذابح المسيحيين التوحيديين في منتصف القرن التاسع، الأمر الذي أكسبها سمعة التميُّز المريب وهو أنها

---

٢٨٢. Gibbon, Edward, Esq. Vol. 5, Chapter XLIX, p. 397

الحاكم "الذي أعاد الصور إلى الكنيسة الأورثوذوكسية الشرقية".[٢٨٣] أما المحاولات اللاحقة التي تمت في سبيل استئصال الصور من الكنيسة فقد سحقت جميعاً، وكانت النتيجة هي الاستمرار في الممارسات الوثنية التي لا نزال نشاهدها إلى يومنا هذا.

ولكن مايثير قلقاً أكبر هو تبني التماثيل **البشرية**. فعبادة رجال الدين طفت على السطح في مطلع القرن الثالث عشر، وذلك على شكل كهنة يتصرفون كوسطاء بين البشر والرب للاعتراف بالخطايا والحصول على الغفران. كما أن عبادة البابا كانت تتم علانية وذلك على شكل طقس يتم خلاله تقبيل قدم البابا أو خاتمه. وسرعان ما برزت عقيدة خلاّقة وهي عصمة البابا كما عرّفها البابا بيُّوس التاسع Pius IX في مجلس الفاتيكان الأول First Vatican Council مابين العامين ١٨٦٩-١٨٧٠، حيث جُعل فيه البابا نداً لله. أما عبادة مريم وبإعطاؤها لقب "أم الرب Mother of God" فقد شُرِّع قبل قضية عصمة البابا بوقت كبير، وذلك في مجلس إفسوْس Ephesus في العام ٤٣١ للميلاد. كما أجيز توجيه الدعاء والصلوات إلى القدّيسين، والملائكة، ومريم العذراء رسمياً ابتداء من مطلع القرن السابع للميلاد. وقد استمر الابتهال لمريم العذراء بالدعاء الشهير *Ave Maria* (السلام عليك يامريم البتول) لمدة تزيد على ألف عام، ثم أخذ طابعه الرسمي في كتاب صلوات البابا بيُّوس الخامس Pius V في

---

٢٨٣. المرجع السابق، المجلد السادس، الفصل 49 ، ص 397

العام ١٥٦٨ ميلادية. ولكن من بين عباد الله الذين مشوا على الأرض، يبقى عيسى المسيح بلا منازع واحداً من بين أكثر موضوعات العبادة البشرية على الإطلاق.

ومن بين التحديات المؤثرة للفكر التثليثي، التي نُسبت ابتداءً إلى ثيوفيلوس ليندسي Theophilus Lindsey (١٧٢٣-١٨٠٤) وتناوله المسيحيون التوحيديون حول العالم بالنقاش، يسأل كيف ستكون ردة فعل الذين يعبدون المسيح فيما لو عاد للأرض ووجّه إليهم الأسئلة التالية:

أ. لِمَ توجهتم بالإيمان إليَّ؟ هل وجّهتكم يوماً لفعل ذلك، أو جعلت من نفسي معبوداً لكم؟

ب. ألم أجعل لكم قدوة حسنة على نحو مطرد من البداية إلى النهاية بأن تصلّوا للأب، «... أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ» (يوحنا ٢٠: ١٧).

ت. وعندما طلب مني الحواريون أن أعلمهم الصلاة (لوقا ١١: ١-٢)، هل أمرتهم قط أن يصلّوا لي؟ ألم أعلمهم ألا يصلّوا لأحد إلا للأب؟

ث. هل زعمت يوماً نفسي إلهاً لكم، وهل قلت لكم يوماً إنني أنا الذي صنعت هذا العالم لكم لكي تعبدوني؟

ج. لقد قال سليمان بعد بنائه للمعبد: «لأَنَّهُ هَلْ يَسْكُنُ اللَّهُ حَقّاً عَلَى الأَرْضِ؟ هُوَذَا السَّمَاوَاتُ وَسَمَاءُ السَّمَاوَاتِ لاَ تَسَعُكَ،

فَكَمْ بِالأَقَلِّ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي بَنَيْت؟» (الملوك الأول ٨: ٢٧)
فكيف يمكن لله إذاً أن يكون قد مكث في الأرض؟

إن هذه الأسئلة هي أكثر الأسئلة ذات الصلة، وذلك لأن المسيحيين يتوقعون أنه عندما يعود المسيح سوف يتّهم الكثير من المسيحيين بالكفر، كما جاء في متى (٧: ٧-٨):

«لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ!».

فإذا كان المسيح سوف يتخلى عن بعض المسيحيين الذين تنبّؤوا باسمه، وصنعوا الشياطين باسمه، وأدّوا بعض الخوارق باسمه (أي الذين يقولون : يَا رَبُّ يَا رَبُّ) فمن ياترى يكون هؤلاء الكافرون؟

الجواب: إنهم «فَاعِلِوا الإِثْمِ» كما يقول المسيح لا أنا. وهذا هو الحق أليس كذلك؟ فما الناموس الذي جاء به المسيح؟ فخلال فترة بعثته كان الناموس المعلن هو ناموس العهد القديم «إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ»، وهذه هي الشريعة التي دعا إليها المسيح وعاش من أجلها.

ليس ثمة موضع على الإطلاق في تعاليم المسيح أو في قدوته أنه يأمر فيه الناس بعبادته أو أن يتخذهم عبيداً. ولكن على نقيض ذلك، إذ

يسجل الكتاب المقدس ما أثر عن عيسى قوله: «إِنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَه تَعْبُدُ» (لوقا ٤: ٨). بل وكانت دعوته أيضاً هي: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ» (متى ٩: ١٧، مرقس ١٠-١٨، و لوقا ١٨: ١٩)، و «أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي» (يوحنا ١٤: ٢٨).

ربما لهذه الأسباب ركّز المسيحيون في الثمانية عشر قرناً الأولى من عبادتهم على الأب، والأب وحده. وكما يقول لنا جوزيف بريستلي، إن الصلاة للمسيح بدعة حديثة، ولكنها بعيدة كل البعد عن تعاليم عيسى وزمانه:

> ووفقاً لذلك، فإن ممارسة الصلاة للأب وحده كان أمراً قديماً وعالمياً في الكنيسة المسيحية: فالأدعية القصيرة التي كانوا يخاطبون بها المسيح كالابتهالات التي تقول: "**أيها الرب ارحمنا، أيها المسيح ارحمنا**"، هي نوعاً ما أدعية حديثة، وذلك لأننا لانعثر على مثلها في طقوس القربان التي كان يقوم بها القديس كليمنت Clementine liturgy وهو أقدم ماتضمنته الدساتير الرسولية التي ربما تعود إلى القرن الرابع الميلادي تقريباً. وأما أوريجن Origen فإنه يحض في رسالته المطولة وبقوة على موضوع آداب الصلاة التي يجب أن تكون للأب فقط وليس للمسيح. وبما أنه لايعطي إشارة واحدة إلى أن صيغ الصلاة العامة تلك فيها مايشين في ذلك الجانب، فمن الطبيعي أن نصل إلى نتيجة

مفادها أن أدعية للمسيح كهذه لم تكن معروفة في تجمعات المسيحيين العامة في زمانه. وهذا الفهم كان له أعرافه الراسخة المبكرة في عقول الناس، حيث كانت الممارسة العامة للتثليثيين أنفسهم هي التوجه بالدعاء للأب وحده، ولكن باستثناء المسيحيين المورافيين Moravians الذين كانت أدعيتهم تتوجه دوماً إلى المسيح.

والسؤال الآن يتمثل في التالي: وفق أي مبدأ تم التأسيس لهذه الممارسة العالمية المبكرة؟ أي معنىً في عقيدة التثليث التي تتألف من ثلاثة أشخاص متساوين، والتي تمنح الأب ميزة التفضيل على الابن أو روح القدس؟[٢٨٤]

ونقول أي معنى في ذلك بحق الله؟ ويسجل جوزيف بريستلي لعنصر غير معروف كثيراً من عناصر التاريخ المسيحي وهو – حتى وقته هو أي في أواخر القرن الثامن عشر – "كان المسيحيون التثليثيون أنفسهم في مجملهم يصلّون عموماً للأب فقط". وأما الذين يشيرون لخبرتهم المسيحية الحديثة قد يعتقدون على نحو خاطئ أن ممارسة القرن الحادي والعشرين في الصلاة لعيسى المسيح هي أمر يعود إلى قرون المسيحية الأولى.

---

٢٨٤. Priestley, Joseph. 1786. *The Theologicl and Miscellaneous Works of Jeseph Priestly*. Ed. By John Towill Rutt. Hackney: George Smallfield. Vol. VI, p.29

ولكن هذا غير صحيح.

فعلى مدى ألف وثمانية عام من ولادة المسيحية، كانت الصلوات والأدعية توجه دوماً لله. ولم يتم التوجه بالصلاة والدعاء للمسيح عيسى حتى العام ١٧٨٧، وذلك عندما بدأت الكنيسة المورافيّة Moravian church (وهي طائفة بروتستانتية تأسست في القرن الخامس عشر في بوهيميا Bohemia – تشيكوسلوفاكيا Czechoslovakia اليوم) بالتحول الجذري في إحدى الطقوس من الصلاة والدعاء للأب إلى الصلاة والدعاء لعيسى المسيح.

فإذا كان كل من الأقانيم الثلاثة للثالوث المقدس المزعوم يعد مساوياً للآخر، فلماذا إذاً كان تفضيل أقنوم الأب هو الأكثر شيوعاً بينها، ليس لعقد أو عقدين من الزمان، بل مدة ألف وثمانمائة عام من بداية تاريخ المسيحية؟ ثمة درس عظيم يجب أن نتعلمه من اتساق العقائد المسيحية المبكرة وهذا الدرس أعظم من تباينات لاهوت العقيدة التثليثية.

لم يكن جوزيف بريستلي سوى واحد من الذين حاولوا أن يمنعوا خروج العقائد المسيحية عن المسار الصحيح، وهو التوجه للخلق بدلاً من الخالق — الخلق الذين يتمثلون في المسيح، ومريم، وروح القدس، وعدد لايحصى من القديسين. ولكن لايمكن لتحليل تاريخي لهذا الموضوع أن يكتمل دون أن نلحظ أن الإسلام قد حافظ دوماً على عقيدة توحيدية خالصة، تحارب عقائد الأوثان كما وصفها غيبّون:

... وقد وقف المحمديون [المسلمون] بالاجماع يقاومون الإغراء الذي ينزل بعقائدهم وتقواهم إلى مستوى حواس الإنسان وخياله. فشهادة "ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" هي الشهادة الإسلامية البسيطة التي لا تتغير. فصورة الإله في الأذهان لم تصبها مهانة قط بتمثيلها بوثن يراه الناس، والأمجاد التي أسبغت على النبي لم تتعد قط حدود الفضائل البشرية. وحصرت تعاليمه الحية اعتراف أصحابه بفضله في داخل حدود العقل والدين.[(٢٨٥)]

٢٨٥. Gibbon, Edward, Esq. Vol. 5, Chapter L, p.533

# مراجع مقترحة للاستزادة

**Translations of the Meaning of the Holy Qur'an**:

1) *The Holy Qur'an* (King Fahd Holy Qur-an Printing Complex, Al-Madinah Al-Munawarah, Saudi Arabia) and The Qur'an (Tahrike Tarsile Qur'an Inc., Elmhurst, New York) both present the translation of Abdullah Yusuf Ali—an excellent translation, enhanced by the beauty of more classical English than that found in more modern translations. A major shortcoming, however, is that the translator's commentary contains multiple errors, and is best avoided in favor of more classic, and respected, *tafaseer* (explanations of the meanings of the Qur'an).

2) *The Noble Qur'an* (King Fahd Holy Qur-an Printing Complex, Al-Madinah Al-Munawarah, Saudi Arabia) translated by Dr. Muhammad al-Hilali and Dr. Muhammad Muhsin Khan. A more modern and literal translation than that of Abdullah Yusuf Ali, thoroughly researched and complemented by explanations from the *tafaseer* of Ibn Katheer, Al-Qurtubee, and At-Tabaree, as well as quotations of authentic *hadith*, primarily from the collection of Al-Bukhari. This is without a doubt the most error-free of the English translations, yet this translation nonetheless suffers from a certain lack of

fluency in the English language. Although an exceptional reference book, dedicated reading can become tiresome due to the format and limitations of the language.

3) *The Qur'an* (revised and edited by Saheeh International, Abul-Qasim Publishing House, Jeddah, Saudi Arabia). An excellent, easily readable, and highly respected modern translation, thought by many to be the overall best available in the English language. Highly recommended as the first book for those seeking an easy, accurate, and pleasing translation of the meaning of the Qur'an.

**Sciences of the Qur'an**:

1) *An Introduction to the Sciences of the Qur'aan* (Al-Hidaayah Publishing, Birmingham, England), by Abu Ammaar Yasir Qadhi.

2) *Approaching the Qur'an* (White Cloud Press), by Michael Sells.

**History of Islam**:

1) *Muhammad, His Life Based on the Earliest Sources* (The Islamic Texts Society, Cambridge, England) by Martin Lings. An excellent and comprehensive history of the life of Muhammad, only slightly marred by the few aforementioned errors.

2) *When the Moon Split* by Safi-ur-Rahman al-

Mubarakpuri. Published by Maktaba Dar-us-Salam, Saudi Arabia. An excellent, award-winning history of the Prophet, this English translation is slightly disappointing, but still readable and highly informative.

**History of the Arabs**:

1) *A History of the Arab Peoples* (Warner Books) by Albert Hourani. Scholarly and comprehensive.

**Comparative Religion**:

1) *MisGod'ed*, by Laurence B. Brown—the first book in this series.

2) *Misquoting Jesus* (Harper San Francisco), by Bart D. Ehrman. Perhaps the most readable book of biblical textual criticism ever written, backed up by the highest scholarship.

3) *Lost Christianities* (Oxford University Press), by Bart D. Ehrman. Another "must read."

4) *A Muslim Study of the Origins of the Christian Church* (Oxford University Press), by Ruqaiyyah Waris Maqsood. A sadly neglected treasure of theology written by a noted Muslim scholar.

5) *The Mysteries of Jesus* (Sakina Books, Oxford), by Ruqaiyyah Waris Maqsood. Same book, but published under a different title.

**Basic Information on Islam**:

1) *What Everyone Should Know About Islam and Muslims* (Kazi Publications, Chicago, IL), by Suzanne Haneef. A comprehensive, beautifully written primer.

2) *What Every Christian Should Know About Islam* (The Islamic Foundation, Markfield, England), by Ruqaiyyah Waris Maqsood. Shorter than Suzanne Haneef's book, but every bit as enjoyable and informative, with greater emphasis on theology, balanced by personal narrative.

**Guidance to New Muslims**:

1) *Bearing True Witness* (or, *Now That I've Found Islam, What Do I Do With It?*) — see author's website, www.leveltruth.com.

**And Just for Pleasure**:

1) *The Eighth Scroll,* by Laurence B. Brown. A historical thriller.

2) *The Road to Mecca* (Islamic Book Trust, Kuala Lumpur), by Muhammad Asad. A remarkable and heartwarming story of one man's journey, first to Islam, and then through the world of the Arabs.

3) *Desert Encounter,* by Knud Holmboe. Memoirs of a Danish Muslim's travels through "Italian" Africa.

# المراجع


Abu Nu'aem. *Dala'el An-Noobowah.*

*Al-Bukhari*—the famous ninth century *hadith* scholar, Muhammed ibn Ismaiel ibn Ibrahim; translated by Dr. Muhammad Muhsin Khan. 1997. *Sahih Al-Bukhari*. Riyadh: Darussalam.

*Al-Haakim.*

Al-Hilali, Muhammad, Ph.D. and Dr. Muhammad Muhsin Khan, M.D. *Interpretation of the Meanings of The Noble Qur'an in the English Language; A Summarized Version of At-Tabari, Al-Qurtubi and Ibn Kathir with comments from Sahih Al-Bukhari*.

Al-Mubarakpuri, Safi-ur-Rahman. 1995. *Ar-Raheeq Al-Makhtum (The Sealed Nectar)*. Riyadh: Maktaba Dar-us-Salam.

*An-Nasa'ee.*

Anthes, Richard A., John J. Cahir, Alistair B. Fraser, and Hans A. Panofsky. 1981. *The Atmosphere*. 3rd edition. Columbus: Charles E. Merrill Publishing Co.

Arberry, A. J. 1953. *The Holy Koran: An Introduction with Selections*. London: George Allen & Unwin Ltd.

Arberry, A. J. 1964. *The Koran Interpreted*. London: Oxford University Press.

Arberry, A. J. 1996. *The Koran Interpreted*. A Touchstone Book: Simon & Schuster.

Arbuthnot, F. F. 1885. *The Construction of the Bible and the Korân*. London: Watts & Co.

*Ash-Shifa.*

At-Tabarani, *Al-Mu'jam Al-Kabeer.*

Ayto, John. 1991. *Bloomsbury Dictionary of Word Origins.* London: Bloomsbury Publishing Limited.

*Azzirikly, Al-Aa'lam.*

Baigent, Michael and Richard Leigh. 1991. *The Dead Sea Scrolls Deception*. New York: Summit Books/Simon & Schuster Inc.

Bermant, Chaim and Michael Weitzman. 1979. *Ebla: A Revelation in Archaeology*. Times Books.

The Bible, Revised Standard Version. 1977. New York: American Bible Society.

Bonwick, James, F.R.G.S. 1956. *Egyptian Belief and Modern Thought*. Colorado: Falcon's Wing Press.

Bucaille, Maurice, M.D. 1977. *The Bible, the Qur'an and Science*. Lahore: Kazi Publications.

Bultmann, Rudolf. 1971. *The Gospel of John, a Commentary*. Translated by G. R. Beasley-Murray. Oxford: Basil Blackwell.

Butler, Trent C. (General Editor). *Holman Bible Dictionary*. Nashville: Holman Bible Publishers.

Cailleux, Andre. 1968. *Anatomy of the Earth*. New York: McGraw-Hill Book Company. Translated by J. Moody Stuart.

Carlyle, Thomas. 1841. *On Heros, Hero-Worship and the Heroic in History*. London: James Fraser, Regent Street.

Chamberlin, E. R. 1993. *The Bad Popes*. Barnes & Noble, Inc.

Cohen, M.J. and J.M. 1996. The Penguin Dictionary of Twentieth-Century Quotations. Penguin Books.

Davis, Richard A., Jr. 1972. *Principles of Oceanography*. Reading, Massachusetts: Addison-Wesley Publishing Co.

De Lamartine, A. 1854. *Histoire de la Turquie*. Paris.

Denzinger, Henricus & Schonmetzer, Adolfus. 1973. *Enchiridion Symbolorum, Definitionum et Declarationum de Rebus Fidei et Morum*. Barcinone: Herder.

Diamond, Jared. 1999. *Guns, Germs, and Steel*. W. W. Norton and Company, Inc.

Doane, Thomas W. 1971. *Bible Myths and Their Parallels in Other Religions*. New York: University Books.

Ehrman, Bart D. 2005. *Misquoting Jesus*. HarperCollins.

Ehrman, Bart D. 2005. *Lost Christianities*. Oxford University Press.

Elder, Danny; and John Pernetta. 1991. *Oceans*. London: Mitchell Beazley Publishers.

*The Encyclopedia Americana International Edition*. 1998. Grolier Inc.

*Encyclopaedia Britannica*. 1994–1998. CD-ROM.

*Encyclopaedia Judaica*. 1971. Jerusalem: Keter Publishing House Ltd.

*Encyclopaedia Judaica*, CD-ROM Edition. 1997. Judaica Multimedia (Israel) Limited.

*Fath Al Bari Sharh Sahih Al Bukhari*. Ibn Hajar Al Asqalani, Bab Alqadar. Cairo: Al Maktaba Assalafiyah.

Fossier, Robert (editor). 1986. *The Cambridge Illustrated History of The Middle Ages*. Cambridge: Cambridge University Press.

Fox, Robin Lane. 1991. *The Unauthorized Version: Truth and Fiction in the Bible*. Viking Press.

Gibbon, Edward, Esq. 1854. *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*. London: Henry G. Bohn.

Gilman, Arthur, M.A. 1908. *The Saracens*. New York: G. P. Putnam's Sons.

Gross, M. Grant. 1993. *Oceanography, a View of Earth*. 4th edition. Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc.

Guillaume, Alfred. 1990. *Islam*. Penguin Books.

Hammad, Ahmad Zaki. 1997. *Father of Flame, Commentary & Vocabulary Reference of Surat al-Masad.* Bridgeview, Illinois: Quranic Literacy Institute.

Hastings, James (Editor). 1913. *The Encyclopedia of Religion and Ethics*. Charles Scribner's Sons.

Hastings, James (editor); Revised edition by Frederick C. Grant and H. H. Rowley. 1963. *Dictionary of The Bible*. 2nd edition. Charles Scribner's Sons.

Hirschfeld, Hartwig, Ph.D. 1902. *New Researches into the Composition and Exegesis of the Qoran*. London: Royal Asiatic Society.

Hodgkin, Thomas. 1967. *Italy and Her Invaders*. New York: Russell & Russell.

Hogarth, D.G. 1922. *Arabia*. Oxford: Clarendon Press.

The Holy Bible, New King James Version. 1982. Thomas Nelson Publishers.

The Holy Bible, New Revised Standard Version. Grand Rapids, MI: Zondervan Publishing House.

Hyndman, H. M. 1919. *The Awakening of Asia*. New York: Boni and Liveright.

Ibn Hisham. *As-Seerah An-Nabawiyyah*.

Imam At-Tirmithi. *Mukhtasar Ash-Shama'el Al Muhammadiyyah*.

Irving, Washington. 1973. *Mahomet and His Successors.* New York: G. P. Putnam's Sons.

Kähler, Martin. 1953. *Der sogemnante historische Jesus und der geschichtliche, biblische Christus.* Munich: New edition by Ernst Wolf.

Kipling, Rudyard. *Life's Handicap*. 1891. "Bertran and Bimi."

Kraeling, Emil G. Ph. D. 1952. *Rand McNally Bible Atlas*. Rand McNally & Co.

Kuenen, Philip H. 1960. *Marine Geology*. New York: John Wiley & Sons, Inc.

Küng, Hans. 2007. Islam, Past, Present and Future. One World Publications.

Labbe, P. Venice, 1728–1733. *Sacrosancta Concilia.*

LaFollette, Suzanne. 1926. *Concerning Women*. "The Beginnings of Emancipation."

Lane, Edward William. 1980. *An Arabic-English Lexicon Derived From the Best and the Most Copious Eastern Sources.* Beirut, Lebanon: Librairie Du Liban.

Lane-Poole, Stanley. 1882. *The Speeches and Table-Talk of the Prophet Mohammad.* London: MacMillan and Co.

Lings, Martin. 1995. *Muhammad, His Life Based on the Earliest Sources.* The Islamic Texts Society.

*Manaahil Al-Irfaan fi Uluum Al-Qur'an (Wells of Knowledge of the Sciences of the Qur'an).* 1988. Muhammad Abdul-At-Theem Az-Ziqaani. Dar Al-Kutub Al-Ilmee'a.

McBrien, Richard P. (General Editor). 1995. *HarperCollins Encyclopedia of Catholicism.* New York: HarperCollins Publishers.

Meagher, Paul Kevin OP, S.T.M., Thomas C. O'Brien, Sister Consuelo Maria Aherne, SSJ (editors). 1979. *Encyclopedic Dictionary of Religion.* Philadelphia: Corpus Publications.

*Merriam-Webster's Collegiate Dictionary.* 1997. 10th edition. Merriam-Webster, Inc.

Michener, James A. May, 1955. "Islam: The Misunderstood Religion," in *Reader's Digest* (American Edition).

Miller, Albert and Jack C. Thompson. 1975. *Elements of Meteorology.* 2nd edition. Columbus: Charles E. Merrill Publishing Co.

Montet, Edward. 1929. *Traduction Francaise du Couran.* Paris.

Moore, Keith L. 1983. *The Developing Human, Clinically Oriented Embryology, With Islamic Additions.* 3rd edition. Jeddah: Dar Al-Qiblah with permission of W.B. Saunders Co.

*Muata'h Imam Malik.*

Muhammad ibn Ishaq ibn Yasar. 1963. *Seerat An-Nabi.* Maydan Al Azhar (Cairo): Muhammad Ali Sabi'eh & Children.

Muir, Sir William. 1923. *The Life of Mohammad.* Edinburgh: John Grant.

*Muslim*—the famous ninth century *hadith* scholar, Muslim ibn Al-Hajjaj.

*Musnad Abu Ya'ala.*

*Musnad Ahmad.*

Naish, John, M.A. 1937. *The Wisdom of the Qur'an.* Oxford.

*National Geographic Society.* "The Universe, Nature's Grandest Design." Cartographic division. 1995.

*National Geographic.* December, 1978.

*New Catholic Encyclopedia.* 1967. Washington, D.C.: The Catholic University of America.

*The New International Encyclopaedia.* 1917. 2nd edition. New York: Dodd, Mead and Company.

*Newsweek.* October 31, 1988.

Nydell, Margaret K. 2006. *Understanding Arabs.* Intercultural Press.

Ostrogorsky, George. 1969. *History of the Byzantine State.* (Translated from the German by Joan Hussey). New Brunswick: Rutgers University Press.

Press, Frank and Raymond Siever. 1982. *Earth.* 3rd edition. San Francisco: W. H. Freeman and Co.

Priestley, Joseph, LL.D. F.R.S. 1782. *An History of the Corruptions of Christianity.* Birmingham: Piercy and Jones.

Priestley, Joseph. 1786. *The Theological and Miscellaneous Works of Joseph Priestley*. Edited by John Towill Rutt. Hackney: George Smallfield.

Qadhi, Abu Ammaar Yasir. 1999. *An Introduction to the Sciences of the Qur'an*. Birmingham: Al-Hidaayah Publishing.

Ranke, Hermann. *Die Ägyptischen Personennamen (Dictionary of Personal Names of the New Kingdom)*. Verzeichnis der Namen, Verlag Von J J Augustin in Glückstadt, Band I (1935); Band II (1952).

Rippin, Andrew (editor). 1988. *Approaches to the History of the Interpretation of the Qur'an*. Chapter: "Value of Hafs and Warsh Transmissions," by Adrian Brockett. Oxford: Clarendon Press.

Robinson, Victor, M.D. 1943. *The Story of Medicine*. New York: The New Home Library.

Ross, Alexander. 1718. *The Life of Mahomet: Together with The Alcoran at Large*. London.

Sa'eid Hawwa. 1990. *Ar-Rasool, Salallahu Alayhi Wa Salam*. 2nd edition. Cairo: Dar As-Salaam Publishing.

*Sahih Al-Bukhari.*

Saheeh International Version of The Holy Qur'an. 1997. Abul-Qasim Publishing House. Jeddah, Saudi Arabia.

Said Qutub, *Fi Thilal Al-Qur'an.*

Sale, George. 1734. *The Koran*. London: C. Ackers.

Schroeder, Rev. Henry J., O.P. 1941. *Canons and Decrees of the Council of Trent* (Original Text with English Translation). London: B. Herder Book Co.

Seeley, Rod R., Trent D. Stephens and Philip Tate. 1996. *Essentials of Anatomy and Physiology.* 2nd edition. St. Louis: Mosby-Year Book, Inc.

Shaw, George Bernard. 1944. *Everybody's Political What's What?*

Shaw, George Bernard. 1924. *Saint Joan.*

Smith, R. Bosworth, M.A. 1986. *Mohammad and Mohammadanism.* London: Darf Publishers Ltd.

Stubbe, Dr. Henry, M.A. 1975. *An Account of the Rise and Progress of Mohomedanism, with the Life of Mahomet.* Lahore: Oxford and Cambridge Press.

*Sunan Tirmithee.*

Sykes, Sir Percy Molesworth. 1951. *A History of Persia.* 3rd edition. London: Macmillan & Co., Ltd.

*Tafheem-ul-Qur'an.*

*Tafseer ibn Kathir.*

Tarbuck, Edward J. and Frederick K. Lutgens. 1982. *Earth Science.* 3rd edition. Columbus: Charles E. Merrill Publishing Company.

Thompson, Della (editor). *The Oxford Dictionary of Current English.* 1993. 2nd edition. Oxford University Press.

Vaglieri, Dr. Laura Veccia. Translated from Italian by Dr. Aldo Caselli, Haverford College, Pennsylvania. Originally published in Italian under the title: *Apologia dell' Islamismo* (Rome, A. F. Formiggini, 1925). 1980. *An Interpretation of Islam.* Zurich: Islamic Foundation.

Watt, W. Montgomery. 1953. *Muhammad at Mecca.* Oxford: Clarendon Press.

Wegner, Paul D. *The Journey from Texts to Translations.* 1999. Grand Rapids: Baker Books.

Wehr, Hans. *A Dictionary of Modern Written Arabic.* 3rd printing. Beirut: Librairie Du Liban; London: MacDonald & Evans Ltd. 1980.

Weinberg, Steven. 1988. *The First Three Minutes, A Modern View of the Origin of the Universe.* Basic Books; Harper Collins Publishers.

Wells, H. G. 1922. *The Outline of History.* 4th edition. Volume 2. Section XXXI – "Muhammad and Islam". New York: The Review of Reviews Company.

Whiston, William, A.M. 1998. *Josephus, The Complete Works.* Nashville: Thomas Nelson Publishers.

*Zad Al-Ma'ad.*

Zahrnt, Heinz. 1817. *The Historical Jesus.* (Translated from the German by J. S. Bowden). New York: Harper and Row.